صائب خدر

تغريبة الأيزيدي

رواية



تغريبة الأيزيدي

صائب خدر

تغريبة الأيزيدي

رواية



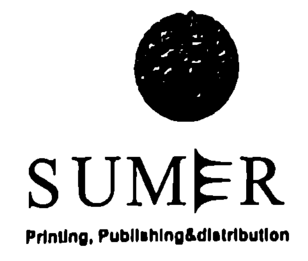
- تغريبة الأيزيدي
- تأليف: صائب خدر

- الطبعة الأولى ٢٠٢٤

ISBN: 978-9922-628-79-0



دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
07700492567 - 07711002790
Email: bal_alamo@yahoo.com



- تصميم الغلاف والإخراج الفني: ماهر عدنان
- لوحة الغلاف الفنان : محمد كريم نهاية

إلى مُعلِّمي الأول "والدي"

((يا أيها الغريب.. يا أيها المغترب

يا مسكين.. يا من في قلبه حزنٌ شديد..

أنت طيرٌ تأخر عن سربه كثيراً. ذهب بعيداً ثمَّ تاه.

يا غريباً عن الديار وتائهاً بين الدروب

يا بعيداً عن الأهل وكلِّ محب وحبيب..

يا غريباً ليس لنا نهارٌ ولا ليل

فكلاهما أصبحا سواءً..

ولحال غربتنا فالنجوم لاذت بالفرار..

هذا هو حالنا نحن الفقراء..

حالنا نحن الضعفاء..

حالنا أن نعيش غرباء.))

((قال له الفريق عمر وهبي باشا:

- أسلِم تسلمْ.

ردَّ عليه الأيزيدي الأعزل:

مستحيل.. أنا من ديانة أخرى. ديانتنا كانت ولم تزل مولد عذاباتنا، وهي أيضاً ترسم أقدارنا، سنبقى عليها مهما حيينا)).

١

غالبا ما يطلُّ النحس برأسه في كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع. لذلك كان يحاول أن يُطيل النوم في يوم النحس الموعود. ففي العاشر من حزيران ٢٠١٤ استيقظ سليمان البعشيقي مفزوعاً صباح يوم الثلاثاء المشؤوم.

ثمة صداع مدوٍّ في قاع جمجمته جعل من رأسه ثقيلاً. يجبره دويُّ الصداع وعدم التوازن للعودة إلى النوم من جديد. برَّر الأمر لاحتسائه كمية كبيرة من العرق المحلّي في جلسة الاثنين الليلية، حيث استمرت الجلسة حتى ساعة متأخرة على صدى تصادم الكؤوس.

استيقظ فزعاً على نغمة رنين هاتفه، إذ تشير نغمة الرسائل إلى ورود رسالة ما. بتثاقل فتح عينيه ليقرأ الكلمات. تبين أن المرسل صديقه زياد. وإذ كتب باختصار قاتل: "أخذوا الموصل".

لم يتبين معنى الكلمتين وهو في حالة بين الصحو والنوم. لذلك أعاد شريط نقاشات الليلة الفائتة ليتذكر ما حصل. أدرك أن تفاقم أزمة الوضع السياسي لتلك الأيام العصيبة هي المؤشر الخطير. وفي محاولة منه ليدرك معنى هذه الرسالة القاتلة. راح يتأمل كلمتي الرسالة من جديد، وكأنه يبحث عن ما خلف الرسالة من كلمات مفقودة أخرى لتُشبع فضوله.

[illegible] "إنه يوم ثلاثاء، إذن هو نحس جديد". وعلى [illegible] الحرارة اللاهبة وصوت المبردة وهي تصدر صريراً [illegible] إلى النوم من جديد تاركاً مشاغل الدنيا ورعبها تحت وسادته. "في النوم تتضح الأمور" هذا ما ردده مع نفسه.

نام حتى طاف به الطيف. في الحلم وجد نفسه مقيداً راكعاً أمام الفريق "عمر وهبي باشا"[1]. ذلك الباشا العثماني المتجبّر المعروف بصلفه والمليء بالحمق والغرور. جاء إلى الموصل والياً عليها بفرمان من الصدر الأعظم عبد الحميد، ومعه مجموعة كبيرة من الشباب تركع على أرض بلاط القصر. كانوا مقيدين في السلاسل. خطب الباشا خطبة عصماء بهم. كان يرتدي البزة العسكرية العثمانية التقليدية ويضع خنجراً في وسطه معقوفاً من الأسفل، مع قبعة سوداء. كما يضع على صدره دزينة نياشين تتراقص بانتشاء. تحدث عن سماحة دينه ومهمته الجديدة التي كلفه بها الصدر الأعظم. طغى الجانب الديني في حديثه أكثر من حديثه عن التجنيد الإلزامي الذي التزمت به الدولة وفرضته على رعاياها. كانت مجموعة الشباب صامتين، وهو يتلو فرمانه مخيّراً إياهم بين الدخول في الإسلام أو القتل.

يطول الحلم بتفاصيل كابوسية عن حالات التنكيل والتعذيب. يدخل الوالي عمر وهبي باشا إلى الحلم كبطل أسطوري وسفاح. وفي مشهد تاريخي يستقبل الأيزيديين الوافدين خير استقبال في البداية عند الجسر العتيق في الموصل. الأهالي يقفون على الجانبين مستمتعين بهذا المشهد الرهيب. يرفع يده فتتوقف الأناشيد والدبكات. إنه يعرض عليهم الدخول في الإسلام. رفض من رفض الدعوة وقبلها بعضهم. فما كان منه إلّا أن يستشيط غضباً، ليأمر بتعذيب الرافضين، وما هي

---

(١) عمر وهبي باشا والي عثماني قام بعمليات قتل بشعة بحق الأيزيديين سنة (١٨٩٢) في الموصل.

إلا ساعة تمرُّ ليأمر بالقتل الشنيع لهؤلاء العزَّل وسط صراخ المتجمهرين وتصفيقهم.

ليس من سبيل للنجاة سوى الدخول في الإسلام. هكذا كانت تجري الأمور في باحة السراي الحكومي المنيف. وعندما وصل الدور إلى سليمان انتصب أمامه الباشا بشكل مهيب ومخيف بوجه عبوس رافعاً سيفه عالياً استعداداً للانقضاض على رقبته وقال له:

- أسلِم تسلمْ.

ردَّ عليه الأيزيدي الأعزل سليمان:

"مستحيل.. أنا من ديانة أخرى. ديانتنا كانت ولم تزل مولد عذاباتنا، وهي أيضاً ترسم أقدارنا، سنبقى عليها مهما حيينا". في تلك اللحظة فزَّ مرعوباً من هذا الكابوس وهو يلهث متعرِّقاً ويتنفس بصوت عال. إذ كانت مبردة الهواء ترسل الهواء الجاف كاللهب الحارق.

نهض من فراشه وذهب فوراً ليشرب الماء، كي يرطّب جوفه المحترق ويطرد شبح الكابوس. نظر من النافذة المطلّة على الشارع العام، فلم يجد الكلب الأسود تحت شجرة الزيتون المعمِّرة، كما كان يشاهده من قبل هذا اليوم في مكانه. هنا أدرك أن شيئاً ما قد حدث، أو ربما سيحدث لاحقاً في بعشيقة وبحزاني[1].

***

في آخر الليلة الفائتة كان النقاش محتدماً بين شلّة الأصدقاء الندامى في نادي الجبل المطل على المدينة الناعسة، والمحاطة بجبلها الأليف. كالطوق الحامي لها من هوس الأشرار وكوابيس الليل، ربما كان جبل

---

(١) بعشيقة وبحزاني مدينتان متجاورتان تقعان في سهل نينوى بمحافظة نينوى يسكنها خليط من الأيزيديين والمسيحيين والمسلمين.

بعشيقة مثل المعطف فوق أكتاف صبيّة عذراء يحميها من لسعات البرد.

في الليلة الفائتة كانت هناك رؤى وتحليلات وتنبؤات عدة لمخمورين، يناقشون والكؤوس تدور بين أيديهم، عن ما سيجري في الغد، وكأنهم في ندوة تلفازية؛ كل واحد من الشلّة يدلي بمجموعة تهويمات أو تصورات متخيَّلة عن الوضع المخيف لمدينة الموصل في تلك الأيام.

كأن رسالة زياد القصيرة هي بمثابة انتصار لنبوءته عن حوارات ليلة خمر صاخبة، والتي أدّت في نهايتها لمغادرة بعض الأصدقاء، الذين اختلفوا مع زياد وسليمان في تصوراتهما عن مصير المدينة المهدَّدة باجتياح جوقة من الضباع الوحشية.

في تلك الليلة كانت مجموعة الأنس تحتسي الكؤوس المترعة من "العرق المحلّي" وقد اتفقوا على صنفه المفضل من أجود أنواعه. فعرق "بيت الياس" لا يضاهيه في تركيزه ونشوته أيُّ مشروب آخر، فهو مصنوع بمهارة وحرفية على نار هادئة. غير أن مجيدًا الذي كان يفضّل عرق "بيت عتو" يفضل الاختلاف عن الشلة، إذ يعدُّ عرق بيت عتو الأفضل من كل أنواع العرق البعشيقي في كل بيوتات بعشيقة وبحزاني على السواء.

كانت أحاديث المجموعة تنصبُّ عن تحركات "تنظيم الدولة" في تلك الأيام، والطرق المحتملة لالتفاف المسلحين المباغت لتطويق المدينة، ثم الانقضاض على مناطق سنجار وأطراف الموصل. انقسموا حول طبيعة هؤلاء المسلحين. كانوا يتحدثون كما تتحدث القنوات العربية على اختلاف مشاربها ومصالحها. "بعثيون" كما كان مجيد يؤكد. "ضباط جيش منحل" يؤكد زياد. "إرهابيون متطرِّفون" من بقايا

القاعدة كما كان يصرُّ سليمان. استغلوا ضعف الدولة وسلوكها العدائي والطائفي المقيت مع مواطني مدينة الموصل حتى غدت مهيَّأة للاجتياح أو السقوط.

هكذا كان يبرر أغلب الحاضرين باستثناء مجيد الذي كان يوحي بأن ما يحدث في الموصل هي ثورة لمؤيدي النظام السابق على حكومة بغداد التي أوغلت في تكريس الحس الطائفي تجاه أهالي المنطقة فدفعتهم إلى ثورة عارمة تعيد لهم أمجادهم.

سليمان كان يدرك خفايا حماس مجيد، البعثي السابق، ورجل الأمن، الذي كان متحمساً لعودة نظامه، حتى لو على عربة المتطرفين ليعيد بعض سلطته، التي فقدها مكرهاً في قمع الناس واضطهادهم، أو على الأقل يحتفل بارتداء بذلته الزيتونية التي ما زال يحتفظ بها وبالنياشين معلقة في خزانة ملابسه. الزي الحزبي الأخضر الداكن الذي كان يعتقد بأنه سيكون مهيباً من الجميع. كل همُّه مكرَّساً للحلم بعودة ذلك اليوم الذي سينفش ريشه كالطاؤوس ويتبختر في شوارع بعشيقة مرهِباً الجميع بعودة السلطة لنظامه.

لذلك كان يتحين الفرص للتشويش على كل صفاء أمني في المنطقة. أحياناً يستثمر كل سلوك لخداع الأهالي في بعشيقة وبحزاني وإخافتهم بحلم العودة من جديد، فيما كان سليمان يختلف كثيراً مع هذا الحزبي المقيت الذي يسعى لاستعادة سطوته على المجتمع. فسليمان على الرغم من عدم عمقه الثقافي والسياسي وتخلُّفه في التعليم، لكنه كان مستمعاً جيداً لنشرات الأخبار والتحليلات ومطّلعاً على الأخبار والمقالات التي تُنشر من على مواقع التواصل الاجتماعي، كل ذلك منحه قدرة في إدامة واقعية ومنطقية للحوار. يعتمد على الذكاء الفطري، كي يساعده في تصويب الأمور وإعادتها إلى نصابها الصحيح،

كي تضعه بمكانة المثقف الفطري وهو يحاول أن يقنع من حوله، وقد كان يرى بأن ما يجري من أحداث سريعة في الموصل هي لحركات دينية متطرفة. قال مجيد لمجموعة الندامى:

- كلنا نعرف الموصل وأهلها. أغلبهم كانوا من القوميين في زمن القومية. هل نسيتم ثورة الشواف على عبد الكريم قاسم التي دعمها عبد الناصر قوميًّا. ثورة بدايتها موصلية ثم انتشرت في أنحاء البلد. ولو كانت مجاميع إسلامية مسلحة كما تزعمون، فهذا حتماً سيجعلكم تحنُّون بل تتمنون عودتنا.

رد عليه سليمان:

- كلام فارغ. هل تتذكر في التسعينيات من القرن المنصرم كيف ترعرعت الحركة الوهابية بحماية نظامك الأحمق. من دعمها؟ أنت وحزبك، في سنين الحملة الإيمانية المزعومة. هل تتذكر أم نسيت؟ ألا تتذكر مظهر الوجوه في "السرچخانة؟"[1] كانت لحاهم الطويلة تمتد إلى صدورهم. هل نسيت ذلك العطار فؤاد الذي كان يتباهى بعودته من الجهاد في أفغانستان؟ كنتم كجهاز حزبي وأمني تغضُّون الطرف عن هؤلاء. كان هذا العطار يأنف حتى من الكلام مع الأيزيديين ولا يلمسهم أو يتعامل معهم. وأنا غير ناكر بأن أهل الموصل طيبون، ولكن طبيعتهم وتكوينهم يجعلنا نتيقن بأن ما يحدث الآن هي حركات دينية متطرفة يدعمها الفضاء السياسي الملتبس في البلاد والبيئة الحاضنة. فبعض الضباط القدماء تبنوها بغطاء ديني.

كرع مجيد كأس العرق ومسح فمه قبل أن يردَّ على سليمان:

- نحن لا ننكر بأن المرحلة تتطلب البرغماتية العالية في التعامل مع

---

(١) أحد الأسواق الشعبية والتجارية المعروفة في الموصل.

المسلحين. وأنا متأكد أنك لا تعرف معنى البرغماتية. هههههه. عزيزي المصلحة السياسية تقتضي ذلك.

سكت سليمان كي لا يعكر صفو الجلسة بالنقاشات السفسطائية.

رفع الكأس وشرب قليلاً منها مستشعراً لذتها ثم أردف محذراً وبهدوء:

- النار ستصل إلينا قريباً وتحرقنا جميعاً، تلك هي النتيجة الحتمية التي يستشعرها المرء.

كان كلامه مقنعاً ومدعماً بقراءة ورؤية عميقتين. أسكت الجميع إلا مجيدًا الذي لم يكن قادراً على سماع هكذا نظريات تبدد أحلامه الخيالية، فرد قائلاً بعدما وضع الكأس التي كان يشرب منها:

- سليمان لا تتفلسف أرجوك. أنت لا تعرف بالحس المؤامراتي العالمي ولا تعرف بالنيات في هذه القضايا. الموضوع باختصار هو سياسات دولية ومصالح أقاليم. نظامنا لا ينتهي. يجب أن نعود إلى السلطة بأي ثمن.

ختم سليمان كلامه، قائلاً:

- هذه من أحلام العصافير.

ابتسم مجيد ابتسامة صفراء واستدرك قائلاً:

- عوفك من هذا كله. خليك بشغلك بين الرمل والجص والأسمنت. أو اشرب عرق واسكت.

٢

في بادئ حياته العملية كان سليمان يشتغل في مهنة "الطلاسة"[١]، التي أتقن فنونها على أحسن حال، حتى غدا معروفاً في دقة وجمال الجدران المصقولة من قبله وبهاء طلّتها. ليس في بعشيقة وبحزاني فحسب، إنما طغت في كل القرى والمناطق المجاورة أيضاً. ترتدي البيوت الجديدة حلتها على يده، بعد أن ينثر الأسمنت الأبيض السائل بماكينة النثر اليدوية لتبدو البيوت بأبهى صورها. حتى أنه بات معروفاً من سكان المنطقة وأصحاب البيوت المرممة أو الجديدة.

هذه المهنة التي تعلمها مجبراً ومارسها بعدما ترك الدراسة في بداية مراحلها، لسوء تعلمه اللغة الإنكليزية على الرغم من محاولات معلمه "أبلحد أفرام" لتعليمه هذه المادة، لكنه كان يتحين الفرصة لترك الحصص، فتم فصله بسبب عدم أدائه الامتحان النهائي. مما اضطر لترك المدرسة بوقت مبكر من حياته.

ينتمي سليمان لعائلة فقيرة الحال، والده جمعة، فلاح يزرع البصل والباذنجان وعبّاد الشمس في أسفل التل[٢] الذي مرَّ من أمامه الإسكندر المقدوني - هكذا كان يخبرهم أستاذهم أبلحد أفرام -.

أما جمعة الأب فهو رجل بسيط بقامة قصيرة وظهر أحدب يلبس

---

(١) اللباخ في اللهجة المحلية هو الذي يقوم بصقل المنازل بالأسمنت.

(٢) تل بعشيقة يقع في أسفل المدينة ويسمى اثرياً (تل شيبانيا) وهو من المناطق الأثرية القديمة.

"دمير"[1]. يعتمر اليشماغ الأحمر، كان يلفه بإحكام على رأسه. يذهب ويأتي إلى حقله من دون أن يكلم الناس، لذلك يسمونه في بعشيقة بـ "جمعة المسكين". لم يكن جمعة يعرف شيئاً عن الإسكندر المقدوني الذي جاب العالم وفتح بلدانًا كثيرة وسفك دماءً عديدة، ولم يكن يعلم شيئاً عن حديث المعلم "أبلحد أفرام" عن الإسكندر بحماسة، كي يثبت في كل مرة عن عراقة المدينة وأثرها في التأريخ. غالباً ما كان المعلم هذا يتحدث عن بطل ولد في وطن، ثم مات غريباً في بلد آخر. كان يسرد عن بعشيقة وبحزاني وتاريخها والحضارات التي مرت عليها وتركت بعض آثارها على تلك البقعة، كان ينقب في كل الكتب والمراجع عن أي شيء يخص هذه المدينة ويعلّمه لطلابه ليزداد تعلقهم بها.

كانت العلاقة بين سليمان وبعشيقة المدينة علاقة حب مثالية. يعدُّها حاضنته التي يتنفس فيها الهواء المنعش. هي تختلف عن كل مدن البلد، هي بالنسبة له كالثمرة الناضجة التي يشتهيها الجميع، أو هي الغصن الذهبي في شجرة الوطن الباسقة ، مدينة جميلة فواحة هادئة منعشة بجبلها وبساتينها.

غدت مزرعة البصل وعبَّاد الشمس هذه مزرعة خضراء في حديقة الوطن، وتُعد المكان الآمن لسليمان كي يتأمل الحياة البعشيقية البسيطة. يصطاد فيها الطيور المهاجرة. يبدأ في الظهيرة بنصب الفخاخ بطريقة مخاتلة بين سيقان البصل ليحصل على صيده من الطيور المهاجرة التي تستريح في مزارع البصل وعبَّاد الشمس، تلك المزارع التي يطلق عليها أهالي بعشيقة وبحزاني (السقيات)[2]. في البداية كان

---

(١) ملابس تراثية أيزيدية يرتديها الرجال من كبار السن.
(٢) أراضٍ فسيحة في أطراف بعشيقة وبحزاني كانت تسقى بماء العين الجاري من الجبل ويزرع فيها الأهالي محاصيلهم الزراعية.

يعمل كل يوم في مزرعة أبيه بعد ترك المدرسة. في الصباح يذهب ليوزع حصص المياه (الجرك) التي تنساب من الينابيع والعيون ليسقي المزرعة، ينبطح في الظهيرة بين سيقان البصل ويتأمل السماء الصافية. لكن سليمان لم يكتفِ بالمزرعة. طموحه طاغٍ، مما جعله يفتش عن مهنة أخرى. فوجد بالطلاسة شغفاً فأصرَّ على تعلم تلك المهنة.

لم تكن الحياة يسيرة من دون عمل على سليمان وعائلته. حتى جاء اليوم الذي سيق فيه إلى الخدمة العسكرية كجندي مكلف بخدمة العلم الذي لا يميز بين ألوانه. بعد بلوغه الثماني عشرة سنة لكونه تاركاً للتعليم. أجبر على الخدمة العسكرية خوفاً من نفاق وتقارير مجيد وزبانيته. في بادئ الخدمة سيق كجندي إلى مدينة العمارة. كانت هذه أول مرة يغادر فيها خارج بعشيقة، وهو الشاب الذي لم يستطع مفارقتها يوماً ما، لكنه لم يكن يعلم بأن مغادرته لمدينته لن تكون المرة الأولى أو الأخيرة، فالخدمة في الجيش تتطلب منه الترحال والتنقل في مدن حدودية ومناطق ساخنة.

بعد سنين طوال تسرَّح سليمان من الخدمة العسكرية. لم يجد فرصة عمل سوى الحنين إلى مهنته القديمة. تعامل من جديد مع الأسمنت والرمل والجص. مهنة خبرها منذ زمن طويل ويعرف أسرارها. كان يمارس مهنته مثل نزهة مع الأصدقاء. لكنها أتعبته كثيراً بمرور الوقت بعدما انتشر في بعشيقة أسطوات عمل جدد من الشباب، مما اضطره بعد سنوات لفتح متجرٍ/ علوة على شكل ساحة وسط بعشيقة لبيع المواد الإنشائية، ولخبرته في أنواع الأسمنت والرمل وغيرها من المواد الإنشائية تحسنت الأحوال.

عُرِف سليمان في بعشيقة برجل يحب الحياة ناشراً البهجة فيما حوله محبًّا للخمر والدبكات. يحتسي الخمر في متجره عصراً. لم يكن

يستهويه سوى العرق المحلي. ذات مرة يدعي بأنه احتسى الخمر في ليلة العيد منذ المساء حتى مساء اليوم التالي، مع هذا كانت صحته لا تظهر بأنه محب للكحول، فهيأته توحي بأنه رياضي متمرس وبصحة جيدة. فهو عريض المنكبين بقامة طويلة بعكس الأب جمعة المسكين. ضخم الجثة ذو شعر أصفر وعينين زرقاوين. كان وسيماً بصفات رجولية قلَّ مثيلها. ورث ذلك من أخواله كما كان يردد دائماً. يدخن السجائر في أثناء الشرب، فالخمر والسجائر توأمان. الكأس الأولى مع سيجارة تجعله منتعشاً يحلق في سماوات بعيدة، لكي ينسى متاعب العمل اليومي. سليمان هذا رجل له من المحاسن التي تجلب له مزيداً من الأصدقاء، كما عُرف عنه خصلة الوفاء للصداقة. رجل غيور وشهم أمام الجميع وليس الأصدقاء والمعارف فحسب. لذلك كان الأصدقاء يحيطون به، ويحظى بمودتهم للخصال الحميدة التي يمتلكها. فلا جلسة خمر ولا سفرة من دون سليمان، الذي كان يُضفي على الجلسات رونقاً وجمالاً وفكاهة كي يضحك الجميع ويشيع في نفوسهم البهجة.

أما في المناسبات فكان سليمان أول المحتفلين لإشاعة الفرح والسعادة. كان لا يترك أية "طوافة"[1] في بعشيقة وبحزاني، إلا وكان أول من يرقص فيها ويدبك، بل كان الأهالي ينتظرون سليمان ليعلن بدء الاحتفال. يدبك فيها على طريقته المعتادة في إشاعة الألفة والأنس. كان الناس جميعاً يتحدثون عن سليمان وإبداعه في الطوافة ورقصته المميزة في حلقة الدبكة. وكيف يشع ابتسامة ويدخل الفرح والأنس في قلوب الناس، حتى أن مجيدًا ذات يوم وشى به لدى مسؤوليه، إذ

(١) الطوافة وجمعها (الطوافات) هي كرنفالات دينية وشعبية أيزيدية تمارس في فصل الربيع برقصات ودبكات شعبية وطقوس دينية أمام المزارات بحشد جماهيري كبير وتعود جذورها للسومرية والبابلية.

ذكر "إن سليمان يحيي الناس بالطوافة كقائده الأوحد". كانت علاقة سليمان متنوعة مع المسيحيين والأيزيديين والمسلمين، صداقات لا تحدها ديانة أو مذهب أو معتقد، ولا حتى أي هوية عرقية ، إنما محبة الناس جميعاً، فبعشيقة وبحزاني في نظره وحدة جميلة تجمع كل هذا الطيف، فالذي يجمع أهلها أكبر من مسمَّيات دينية. لم يكن يشعر بتمايز، لا بل لم يكن يفكر فيه أبداً. حين يغيب عن جلسات السمر الليلية لتبادل أنخاب كؤوس العرق البعشيقي تبقى عيون الأصدقاء والندامى مشدودة إلى الطريق بانتظار قدومه.

لم يتوقع سليمان أن الأيام الجميلة واللحظات الممتعة التي كان يعيشها في مدينته، مع بساطة الحياة العفوية ستتبخر من دون رجعة في يوم ما. الأيام المتوارية تجتمع في صندوق ذاكرته الحديدية. يستذكرها فقط، كي يتسلَّى بنكهة الحياة العفوية. هو يعرف أن الماضي الجميل لن يعود إلى مدينته التي أحبها. المدينة التي لم يفارقها سوى لخدمته العسكرية في محافظة ميسان جنوب العراق، وأيام أخرى لمرافقة زوجته في أثناء الولادة في المستشفى الجمهوري في مدينة الموصل.

كانت بعشيقة وأزقتها وحاراتها وبساتينها وجبلها، تمثل له الرئة التي يتنفس من خلالها، ففيها تنتعش الذكريات ويكون للحياة طعم العشاق المتيَّمين. طعم الحياة البعشيقية تعني له سرَّ العيش الجميل في هذه البقعة من العالم. تأريخه الشخصي ينحصر في هذه المدينة بتجليات كافة، حبه الأول الذي هز قلبه ذات يوم. إذ تذوق في دروب المدينة الغافية طعم القبلة الأولى التي عرف من خلالها سر الحياة في تلك المدينة. قبلة جعلته يستعيد لذائذ العيش من خلالها. ففي يوم من أيام الصبا البعيدة طبع قبلة ساخنة على خدٍّ حبيبته. يمسك خده، حين يتذكر كيف صفعته وقتها على الرغم من حبها له. يتذكر أيضاً مذاق

الكأس الأولى من الخمر ولذة الخَدر الذي سرى وتنمَّل في جسده. هذه المدينة تشبه إلى حدٍّ بعيد صبيَّة مرحة صهباء تمرح في الحقول. فتاة عصيَّة على الإمساك بها. مدينة كانت تتأثر بتقلبات البلاد بكل تأريخه المتأرجح بين لحظات رخاء قليلة وأزمنة حروب طويلة وأخرى للحصار، ثم خيمت ظلال داكنة في زمن تدشين حقبة الإرهاب الأسود، بما فيها من دماء وقتل واضطهاد ديني وتطرف، كانت تنعكس في مرآة وجه هذه المدينة التي كان يطلق عليها بين أهالي بعشيقة وبحزاني اسم الضيعة[١].

(١) الضيعة في اللغة العربية هي أرض مُغلَّة؛ أي الأرض التي تدر على صاحبها مالاً، يطلق أهالي بعشيقة وبحزاني على مدينتهم اسم الضيعة وهي كلمة ينفرد فيها أهالي هذه المنطقة في عموم العراق، ربما تكون قد جاءت هذه التسمية من اللهجة الشامية لا سيما أن هناك تقاربًا بين لهجة أهالي هذه المناطق وبعض المدن الشامية.

٣

أثارت سخرية مجيد استفزاز حواس سليمان في جلسة ليلة الاثنين، ليس لأنه قدَّم رأيا مخالفًا، إنما حاول التقليل من شخصه، وأيضا لجهله وعدم إكماله الدراسة، إذ أن المعروف عن سليمان البعشيقي أنه لم يكمل دراسته، والتي كانت دائما تُعدُّ نقطة سلبية في حياته، ولكن هذا لم يلغِ ذكاءه الحاد. فهو معروف عنه أيضا أنه رجل عصامي بذاكرة حديدية وعمق تفكير ورغبة عارمة في حب استطلاع للمعرفة والتعلم من الحياة وعبرها. فهو مدمن على قراءة كل ما تقع عليه عيناه من لافتات وجرائد ومجلات، بخلاف مجيد الذي أنهى دراسته في مدرسة الصناعة على نفقة الحزب ودخل جهاز الأمن بدعم قوي من خاله عضو الشعبة، لكن الفرق بين الاثنين أن مجيدًا كان حاقداً ومتطرفاً بعثيّاً لا يؤمن بشيء سوى مصالحه الشخصية.

عاش مجيد طفولة قلقة بعد طلاق أمه، فيما كان الأب منشغلاً بملذاته، مما ترسَّخت له شخصية مريضة، كارهاً لمن حوله ومنتقما من أقرانه. فهو غيور وحاقد وشبقي، يدنس الأعراض متى ما سنحت له الفرصة بحثاً عن عاطفة هوجاء تعكس صورة مغايرة لحقيقته. يكره جميع من حوله لكنه لا يظهر هذا الكره، بل كان لسانه الحلو يعكس تصرفات شخصية أخرى. لم يكن أحد يطيقه في الجلسات لدناءة

سلوكه وماضيه السيِّئ، فكان يفرض ذاته عليهم. حينما عمل في جهاز الأمن كان منبوذاً من أهالي المنطقة، لكن بعضهم يضطر لمجاملته، حتى من زملائه في العمل، على الرغم من استفزازه المثير في ليلة الاثنين لسليمان، لكن الأخير بلع الإهانة وسكت. حاول سليمان أن لا يخرب أجواء الجلسة، لكنه ردَّ عليه بهدوء، قائلاً: "ممكن نعرف كيف وماذا تقصد؟ ما معنى أن ما يحدث هو ثورة الحزب؟ أي حزب هذا يا رفيق مجيد؟"

فكرر مجيد كلامه وبصيغ أخرى ليحاول فيها إقناع بقية المجموعة بأنه العارف الوحيد والمحلل الإستراتيجي لبواطن أمور ما يحدث، استدرك قائلاً: " إن ما يحدث في الموصل هو ثورة الرفاق البعثيين على "الحكومة الطائفية" في بغداد، وهناك تحركات خفية لا تعرفون خيوطها. ولديَّ اتصالات ببعض الأصدقاء هناك، وهم في كل مرة يؤكدون ذلك".

كان أحدهم يهمس لسليمان أن يترك هذا الجدل العقيم ليستمتعوا بجلستهم، وينعموا بشمِّ الهواء العليل الذي هبَّ عليهم مع تداول الكؤوس الأخيرة فيما بينهم. لكن سليمان أجابه بهدوئه المعتاد قائلاً: " حتى لو كان ذلك صحيحاً، لكن الغطاء الديني لمؤامرتكم سيكشف زيف هواكم. ولا تنسَ؛ لم يعد هناك شيء اسمه البعث ولا انتماء قومي وحزبي وأمة عربية واحدة. الموضوع كله بدأ يأخذ منحى دينيّاً، حتى أنت يا مجيد ستحرقك النار القادمة، ولو كنت مؤيداً لهم. تذكرْ كلامي هذا".

تدخل أحد الأصدقاء الجالسين قائلاً بصوت بدا مرتفعاً: "إخوان أرجوكم اتركونا من السياسة وخلونا نشرب ونستمتع بهذه الأجواء ونغني معا أغنية شعبية". انبرى مطرب جلسات الخمر وراح

يغني بصوته الشجي:

"زعلانه ليش زعلانة. بنت عمي ليش زعلانة.

أنت حبيتي غيري والله أنت غلطانة

زعلانة حبيتوكي كما الوغداي غيتوك

بعستو يطلبوك أهلي ماكالغادوكي.

زعلاني اعطيني بوسة..

قبل لأعمل هوسة.

بيتك بلا استاغه وانا سكغان مطوطح......"[1]

انتشت المجموعة لهذه الأغنية التراثية القديمة، وهم يتمايلون مع إيقاعها. تنعش النسمات الباردة الأرواح المتعبة ليلاً. تتراقص أضواء البيوت من بعيد مع دبيب الخمرة في الرؤوس. تزداد نوراً فترسم لوحة ليلية عن بيوت غافية لهذه المدينة. ضيعة هادئة ومسالمة تبتسم البيوت فيها للغرباء بمودة، وهي تحتضن أشجار الزيتون لتوفر لهم الأجواء الباهرة.

كان جميع الجلاس يتمنون لها أن تبقى بهذا الجمال. لكن هاجس الخوف من ضباع شرسة تحاول تمزيق تلك الألفة. ضباع وحشية كانت تتحين الفرصة لتفتك جسدها، وتشويه وجه طلة بعشيقة البريئة. ثمة رايات سود ترفرف على مقربة من تلك المدينة. الأخبار تأتي من البعض وهم يتعقبون أخبار الدواعش ليؤكدوا إلى المواطنين، "أن الخطر قادم لا محال".

كان استحضار سليمان لمناقشات أمس بعدما قرأ الرسالة زادت من تشاؤمه واكتئابه وتذكر المناقشات العقيمة مع مجيد والتي ما زالت تدور في مخيلته يحلل فيها كلام وتصورات مجيد ما بين السطور، إذ

---

(١) أغاني من التراث في بعشيقة وبحزاني.

يعرف مجيدًا وعلاقاته مع بعض الجهات في الموصل والتي ما زالت مستمرة لم تنقطع ومعروف بأنه يتعاون مع الكثيرين منهم، حتى أنه في عام ٢٠٠٤ حاول أن يشارك مع عودة خيوط التنظيمات السرية لضرب القوات الأمريكية، لولا أن الأمريكان ألقوا القبض عليه وأشبعوه ضرباً وعطفوا عليه، فقال له أحد الضباط الكبار عبر مترجمة لبنانية: "أنت أيزيدي ما الذي أدخلك في هذه التنظيمات؟" مكث فترة من الزمن في السجن، حتى تدخل رجال دين من المنطقة في أثناء زيارة القائد الأمريكي لناحية بعشيقة. على أثر ذلك تمَّ إطلاق سراحه.

نهض سليمان مترنِّحاً إلى بيته. نام نوماً قلقاً متقلباً بفراشه في تلك الليلة. يعتريه انزعاج حاد بعد أن كتم غيظه من مجيد والأخبار المتوالية عن الموصل. استيقظ على رنة هاتفه ورسالة زياد، والحلم المزعج الذي طاف به. مسك رأسه بكلتا يديه، ثم ذهب ليغسل وجهه بالماء البارد. جلس ليتناول الفطور مع عائلته. كان التلفاز يبث الأخبار العاجلة وهو يمسك بيده استكان الشاي. كانت الأخبار العاجلة بالخط الأحمر. "احتلال الموصل من قبل تنظيم داعش". "تنظيم الدولة الاسلامية في العراق والشام يحكم سيطرته على المدينة" . " تفكك وهرب معظم قوات حفظ النظام والجيش والشرطة الاتحادية من المدينة " . " فرار العديد من العوائل إلى خارج مدينة الموصل" . "إعطاء مهلة لمدة سبعة أيام للمسيحيين إما أن يعطوا الجزية أو يخرجوا من ديار المؤمنين".

كانت الأخبار تتوالى بوتيرة خطيرة. تظهر الصور الأولى لمدرعات عسكرية استولى عليهم عناصر داعش ينتصبون فوقها رافعين راياتهم السود بلحاهم القذرة وشراويلهم الأفغانية وأشكال غريبة بدأت تنشر صورها وتفاصيلها، أما مواقع التواصل الاجتماعي؛ الفيس بوك

منها، فكانت تعج بصورهم والتأييد لهم من البعض في التعليقات، بل كانوا يتهجَّمون على كل شخص يكتب بالضد منهم، حتى يأتيه تعليق من صفحة مستعارة بأسم (سيف الحق) كاتباً له : "نحن قادمون لكي نزرع في قلوبكم الإيمان بعدما عاث الكفر فيها أيها الكفار". هذا ما كتبه سيف الحق على تعليق لسليمان على إحدى الصفحات التي كانت تنشر صورهم ، بعدما كتب عنهم (أشكالهم قذرة لا تدنس الأراضي الطاهرة وسيخرجون اليوم أو غداً أو حتى بعد سنة).

لم يكن تناوله الفطور على عادته مثل كل يوم. راح يدخن سيجارته الأولى ويحتسي الشاي ويراقب الأخبار، ثم التفت إلى زوجته هدى التي كانت تجلس إلى جانبه، وهي خائفة لا تعرف ما يجري من أحداث: "لا تأخذي ما تسمعينه بجدية". قال لها بعدما أخذ أنفاساً عميقة من سيجارته الصباحية:

- الأوضاع لا تبشر بخير، ربما قذارة هؤلاء ستصل لمناطقنا وتدنس أراضينا.

لم تكن تفهم ما يقصده، على الرغم من أنها كانت ترى فيه الجدية والخوف من قادم الأيام. ولكن كعادتها الهادئة والمطمئنة قالت له:

- لا أعتقد أنهم يصلون للضيعة. لأنها محمية من الخاسين[1]، ومن قوات البيشمركة، " لكن أشنو دورهم صار من ٢٠٠٤ كيحمونا ".. وابتسمت بشكل أوحى له باطمئنان وثقة بمن يحمونها. ثم أردفت بالقول وعلى محياها شبه ابتسامة فاترة:

- إذا هجموا على الضيعة سنهرب للجبل. الجبل أبونا الوحيد الذي يحمينا كملاذ أخير دائماً. جبل حنون ساعدنا في أيام محن سابقة ولن ينسانا مرة أخرى إن ألَمّت بنا ضائقة طارئة.

---

(١) كلمة في اللهجة البعشيقية المحلية تعني الخالصين، أو الأولياء الصالحين وأصحاب الكرامات.

رد سليمان بصوت جدي أخاف ابنتيه وزوجته:

- نعم. اعتقد أن الهرب للجبل كملاذ هو الحل المتاح في الأفق.
سنهرب للجبل حتماً.

٤

في تلك الأيام المحفوفة بالخطر والغضب والترقب، تراجعت حركة العمل في بعشيقة، حيث خيَّمت أجواء من القلق المصحوب بالخوف على تباطؤ حركة الأعمال اليومية.

بدأت الغيوم السود تخيِّم على أجواء المدينة تنذر بخطر قادم، بعد سقوط الموصل. الأهالي في بعشيقة وبحزاني ليس لهم سوى متابعة الأخبار الواردة من مدينة الموصل. من هجرة المسيحيين خوفاً على حياتهم المهدَّدة. فبعشيقة لا تبعد عن الموصل سوى بضعة كيلومترات فقط. كان سليمان كعادته كل يوم يذهب عصراً إلى "چيخانة الرشيداني" وسط بعشيقة لملاقاة الأصدقاء. يصغي لما يقوله الوافدون إلى المدينة. يحلل المواقف السياسية. يترصد أخبار المهجَّرين وأحوال من تبقَّى هناك والأخبار التي ترد من داخل الموصل والتي يتناقلها الناس في بعشيقة.

كل من دخل مدينة بعشيقة لا يحب مغادرتها مطلقاً. فهي نادرة الخصال الحميدة، بطبائع أهلها وانسجامهم العجيب. تعد مدينة الوئام. ولا غرابة في مشاهدة الغرباء يدخلونها ويخرجون منها بسلام، بعد أن تركت في ذاكرتهم هذا الانسجام الغريب فيها. لكن الغرابة في هذا التجانس المبهر هو في التجاور بين معبد مقدس وجامع وكنيسة. بين بيت مسلم وبجانبه بيت مسيحي وآخر أيزيدي بين "چيخانة

تحتضن الجميع بمودة. شوارع وأزقة تحتوي كل هذا التنوع الغريب والمتجانس المليء بالوئام والمحبة والتعايش منذ مئات السنين متعايشين ومتحابين ومتعاونين. كذلك تجد خمّارة يرتادها المسلم والمسيحي والأيزيدي وكل من يشرب عرق بعشيقة. كلٌ ينشغل في دينه، يحترم ويمارس طقوسه بحرية ولا يفرضها على الآخر. جو جميل تعيشه هذه المدينة منذ وجودها، لم يكن أحد يعرف سبب هذا الانسجام الغريب والجميل بينهم، فالمزار قريب من الجامع، والاثنان قريبان من الكنيسة، فالصلاة ترفع بموعدها، فيعم صوت المؤذن كل المدينة ونواقيس الكنيسة تسمع في أزقتها، ورائحة بخور المزار تنتشي وتنتشر بين شوارعها وبيوتها هكذا يعيش الأهالي في بعشيقة وبحزاني في تجانس روحاني يبعث على السلام والمودة.

يسلك سليمان في طريقه إلى المقهى طريقاً لا يستبدله كل يوم. من محلته في رأس العين حيث منزله إلى الشارع الرابط حيث "چيخانة الرشيداني". في الطريق كان يراقب العجائز وهنَّ يفترشن الأرض جالسات أمام دورهن، بينما الأطفال يلعبون في الشوارع المحاذية. لا تخلو مجالسهنَّ من الثرثرة السياسية والأوضاع الحالية، وما ستصل إليه أمور بعشيقة لاحقاً. ثرثرة ربما تفوق ثرثرة الشيوخ الكبار في مقهى "الرشيداني".

عندما خرج من داره كانت خطواته بطيئة في محاولة ليسترق السمع من حديث العجائز. يمشي حيث يشبك يديه خلف ظهره. يرتدي شرواله الرصاصي وقميصه الأبيض وحذاءه الكتان. عندما وصل بالقرب من نسوة عجائز يتجمّعن تحت شجرة الزيتون. ألقى عليهن التحية بصوت عالٍ. لفت انتباهه "الخالة حسنة " فلاطفها كعادته بكلماته المتعارف عليها. هذه العجوز التي قاربت الثمانين عاماً

تجلس في الطرقات، أكثر من المكوث في بيتها، ومنذ ساعات الصباح الأولى حتى ساعات المساء. وما زالت على سجيَّتها الفطرية تنام على سطح منزلها ثم تنهض في الفجر تؤدي شهادتها في الدعاء الصباحي. تحاول السير اغلب الايام إلى مزار "ملك ميران"[١] القريب منها، كي تؤدي طقس أدعيتها هناك، ثم تعود لتجلس أمام الدار. تتجمع من حولها نساء وعجائز المحلة تباعاً. تضع إلى جانبها قدح/ طاسة الماء الفافون وترفع عينيها بين فترة وأخرى تحاول أن تحدِّث أحد المارة وتتبادل معه أطراف الحديث.

لا يوجد ضابط محدد لحديثها، فهي أحياناً تتحدث عن الحياة الاجتماعية او الاخبار السياسية أو قصص عن بعشيقة القديمة أو أي شيء آخر. تتكلم بطريقة فكاهية عن الأجداد والآباء. لا أحد في المنطقة لا يعرف "خالة حسنة"، تلك العجوز الطيبة المؤمنة والتي عزفت عن الزواج، فاعتكفت لممارسة التعبد والإيمان، وهي تعيش عند عائلة شقيقها. وبعد وفاته بقيت عند أحد أحفاده. خالة حسنة ترتدي قميصاً أبيض وفستانًا أبيض وحتى المئزر الذي تغطي صدرها به فوق القميص كانت تفضله باللون الأبيض فقط، سوى (الفيس أو القب)[٢] يكون ذا لون أسود. كانت تحمل إيماناً صوفيّاً عميقاً يفيض من وجهها البسيط والساطع البياض. جمالها آسر على الرغم من كبر سنها. روحها طيبة؛ لا تنطق إلا بالحديث الطيب. تضحك كثيراً مع كل من يمر في الشارع، على الرغم من ضعف بصرها، لكنها تميز الأصوات بطريقة ذكية. كانت تُشخِّص المارة حتى على وقع أقدامهم، فما أن يأتي أحدهم حتى تناديه باسمه. تدخله في تحقيق طويل وتسرد

---

(١) مزار أيزيدي في بعشيقة.

(٢) غطاء رأس تلبسه النساء وهو من الملابس التراثية القديمة.

قصته وتاريخ عائلته، بتفاصيل مملة لكنها مثيرة.

كان لجمال حديثها طعم ونكهة عند أهالي المحلة ومنهم سليمان الذي يربطه معها بقصص كثيرة، فهي شهدت ولادته وختانه وزواجه. كانت تعرفه جيداً وهو أيضاً كان يرى في الخالة حسنة المرأة الحكيمة والعجوز المتدينة بإيمان صادق. إيمان متصوف فيها من البساطة والتراث الجميل والأصالة التي ممكن أن تأخذ منها النصيحة والرشد.

يواصل طريقه إلى المقهى، وفي أثناء نزوله من الطريق إلى چيخانة الرشيداني ألقى التحية على الجالسات من النساء على جانبي الطريق وكنَّ منشغلات في ثرثرتهن. "مساء الخير" فرددن التحية عليه. "هلا سليمان" إلا "خالة حسنة": قالت له بحس فكاهي:

- سليمان إلى أين أنت ذاهب؟
- للچيخانة خالي حسنة.

ردت عليه:

- يعني للچيخانة لو طردتك زوجتك من البيت؟

ضحك الجميع ومنهم سليمان ورد قائلاً:

- ما عاش إلي يطردني من البيت؟

فابتسمت قائلة له:

- كلكم معشر الرجال في العلن أقوياء، وعلى الفراش تتحولون إلى أطفال.

بدأت قهقهات النسوة ترتفع. شعر بخجل ولكنه ابتسم خجلاً.

واستدركت قائلة له:

- ما الذي يحدث في الموصل من هؤلاء أهل اللحى الطويلة من ايدعش؟

بقي مبتسماً لكلمة "ايدعش". قال لها:

- خالة حسنة هؤلاء اسمهم داعش. هم إرهابيون قاتلون ومجرمون، والوضع صعب كما نسمع في الأخبار، ومن أصدقائنا ربما يدخلون علينا في أي لحظة. هؤلاء من دون رحمة بشرية. يكفرون الجميع ، يقتلون الطفل قبل الشيخ، والمريض قبل المعافى، والنساء قبل الرجال. خالة هم عصابات همجية وحشية.

كان سليمان يتكلم بحرص وثقة كمن يحاول أن يفرّغ جام غضبه على ما يحصل في الموصل.

فردت عليه الخالة حسنة:

- إذا كانوا أقوياء فهناك أقوى وأكبر منهم.
- خالة حسنة الله أقوى من الجميع ولكنَّ الناس بدأت تهرب من الموصل، والمسيحيون يتركون المدينة خوفاً على ارواحهم. يقول الناس إنهم يتوسعون في احتلال القرى والمدن خارج الموصل. وأية مدينة يدخلونها يقتلون من فيها. ربما يستبيحون مناطق الأيزيدية. سيقتلون كل من يوجد فيها. نحن لأزم نفكر ونخرج قبل أن يهجموا علينا.

لم تجب الخالة حسنة على كلام سليمان الذي استشعرت خطورته وأهميته، ولكن إحدى النساء الجالسات قربها سألتها:

- إذا دخلوا داعش أنت تخرجين من الضيعة؟

رفعت خالة حسنة طاسة الماء الفافون وشربت منه. ثم قالت لها:

- ولدت في هذه المدينة وعشت فيها وسأموت فيها أيضاً، لم يخرجنا من الضيعة أي وحش. ما أخاف من ايدعش معغش ديعش داعش ماعش.

٥

كلما مرَّ سليمان على الخالة حسنة يتذكر حكاية جدها التي روتها له. كان جدها هو أحد ضحايا فرمان "عمر وهبي باشا" العثماني الذي كان والياً على الموصل. تولّى وطغى؛ ففي يومٍ ما وجّه دعوة لوليمة غداء لوجهاء الايزيديين، كتعبير منه عن حسن نيته في التعامل مع الأيزيدية، بعدما أصبح والياً جديداً على الموصل بفرمان من الباب العالي وكان جدها من ضمن المدعوين. كانت الدعوة في ظاهرها تجديد للعلاقات والمحبة والوئام والدعوة لدخول الأيزيدية في دين الوالي الجديد. لكنه غدر بهم في نهاية المطاف، عندما قام بحجزهم في غرفة مظلمة، ثم قام بتعذيبهم، حتى قيل إنه سلخ جلود بعضهم.

تعالت الصيحات والشكاوى ضد الباشا عمر وهبي، لذلك تدخَّل الباب العالي استجابة للضغط الدولي فأمر وهبي بالإفراج عنهم، وكان جد الخالة حسنة من ضمنهم الذي لم يبق سوى أيام معدودات، وتوفّي من شدة التعذيب، هكذا كانت تذكر الخالة حسنة قصة جدها مع فرمان الفريق كما كان يسمى.

يواصل سليمان طريقه. ودّع النسوة متجها إلى چيخانة الرشيداني كان قد تخطّى المدرسة الثانوية للبنات. وقف قليلاً أمام المدرسة ليستعيد ذكرياته. كيف كان ينتظر الطالبة هدى طالبة الثانوية في موعد مغادرتها المدرسة.

أكمل مسيره في الطريق إلى المقهى. كان يحدق في المروحة الحديدية العالية، كانت تسمى مروحة "المستر" كان يقول لهم أستاذهم أبلحد أفرام إنها تعود لأحد مبشري البروتستانتية الذي سكن المنطقة قديماً.

في كل يوم يقطع المسافة ذاتها. وفي كل يوم أيضاً يستعيد بعض ذكرياته من خلال هذا الشارع. بعد ذلك انعطف يساراً، فدخل الزقاق المنحدر، ثم استدار يميناً ليصل إلى المقهى على الشارع العام.

جلس في المقهى القديم والذي كان يكتظ بالرجال من أعمار مختلفة. يُعدُّ هذا المقهى أقدم مقاهي بعشيقة. كان سابقاً يتوسطه جدول ماء يأتي من عين في الجبل ليسقي البساتين ، يأخذ الجدول طريقه إلى وسط المدينة حتى مقهى الرشيداني. هناك يعلو صوت المذياع بأغانٍ تراثية قديمة، غير أن فضائيات سياسية تنقل عبر شاشة التلفاز أخباراً متلاحقة عن تقدم تنظيم الدولة ومسلّحيه ويكسب نواحي وأقضية جديدة. رواد المقهى ينقسمون على فريقين. فريق الشاشة والمذياع، وفريق آخر يستقي الأخبار من الناجين والمهجرين الهاربين من مدينة الموصل.

كان حديث الشباب في المقهى لا ينفك عن أحداث الموصل وسقوطها. وصور المسلحين وأشكالهم التي تثير الخوف والرعب في نفوس الناس. بعض جلاس المقهى يترقبون الخطاب. أي خطاب تقصدون؟ يسأل أحدهم. خطاب البغدادي المرتقب، والذي كان يُعلنُ عنه في الفضائيات سيثير المفاجأة حتماً. ثمة انقسام في الآراء حول مستقبل المدن المجاورة للموصل، بل وصل الانقسام إلى مستقبل البلد بين فريقي مقهى الرشيداني.

احتسوا الشاي أو القهوة وعيونهم ترنو إلى المجهول. الآخرون أو "الزمرة الطيبة" جلسوا في زاوية المقهى يدخنون بشراهة. جلس زياد

ومعه بقية ندماء الليل وهم ما بين الفريقين. لم يكن مجيد من بينهم. لمحوا سليمان في أثناء دخوله، فنادى عليه أحدهم ليجلس معهم. طلبوا له شراب الحامض بالاستكانة. كان الجو مشحوناً بأخبار داعش. لم يرغبوا بأن يتطرقوا إلى الموضوع مرة أخرى ولا يودون إعادة نقاشات ليلة الاثنين. انشغلوا بجمال لعبة الدومينو على وقع الأخبار العاجلة.

بعد ساعة من الوقت نقلت وسائل الإعلام خبر خطاب البغدادي من الجامع الكبير في الموصل. تسمَّر سليمان أمام التلفاز ليشاهد صورة البغدادي لأول مرة. كانت صوره مرعبة بلباسه وعمته السوداوين وساعته الرولكس. كان لخطابه من على شاشة التلفاز وعلى منبر الجامع الكبير وقعٌ مرعبٌ على الجميع في المقهى. وجهه متجهم ولحيته طويلة ومنسقة بترف. صعد المنبر ببطء قاتل. بدا صوته كنقيق الضفادع بلحن مقصود. يدعم خطابه بآيات قرآنية وأحاديث عن مستقبل دولته وخلافته التي قبل بها كأمانة ثقيلة. ذكر أن دولة الخلافة ستتمدَّد على خطى السلف وبالجهاد ستعزز أهداف الدين، وصادف وقتها بداية لشهر رمضان، فذكَّر الناس بآيات قرآنية تحث على الجهاد، وأنهى الخطاب والتفَّ حوله عدد كبير من الناس والأهالي بهتافات الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

في بادئ الأمر أطرق سليمان برأسه إلى الأرض ثم أوقد سيجارته وراح يدخن وهو يفكر بمستقبل ما تؤول إليه الأوضاع في بعشيقة.

تحدث سليمان بهمس، كمن يهرب من نفسه إلى وجدانه. كأنه يحدِّث نفسه: " نحن الأيزيديين سنقضي أعمارنا هكذا متنقلين ما بين المدن والجبال ووديانها، كي نكرس فكرة الوطن بوجداننا. قدرنا هكذا. نحن أقلية خائفة ومسالمة. غايتنا أن نعيش بوئام مع الآخرين.

هم لا يدركون خصوصيتنا أبداً. العقول الصحراوية ذوات الطباع القاسية تحاول اجتثاثنا بالقسر".

لم يرد عليه أحد الجالسين الذين أصابتهم الصدمة القاتلة. وفي ذاكرتهم يتجدد ألف عمر وهبي في تلك اللحظة الفاصلة من تاريخ وجودهم. لذلك غادر بعضهم المقهى بسرعة مباشرة بعد الخطاب. حيث وجدوا فيه رسالة حرب على الجميع. رسالة تضاف إلى كل ما أخبرهم الناجون من مدينة الموصل.

٦

عـاد سـليمان إلى البيـت مسرعـاً. أمسـك جهـاز التحكـم / الريمـوت كونـترول وأخفـض صـوت التلفـاز. اسـتدار إلى زوجتـه التـي كانـت مشـغولة بطـيِّ الملابـس وترتيبهـا بعـد جمعها من عـلى حبل الغسـيل. قال لها:

- هل عرفتِ عن تطور الأحداث في الموصل؟
- نعم عرفت من القنوات الفضائية.
- الوحـوش السـود. اسـتمعت في المقهـى لخطـاب كبيرهـم. الأمـور مخيفة بالنسبة لأهالي بعشيقة وبحزاني.
- كيف يعني؟
- بعـض أهـل الموصـل ومع الأسـف شـاهدتهم يصفقون للظـالم. كما صفقـوا مـن قبـل إلى المسـتبد والقاتـل والمنافـق والـكاذب. طبائـع جبلـت عـلى النفـاق. شـعارها التصفيـق كالقطيـع الـذي يسـوقه الراعي. حتى لو لم يعرفوا إلى أين يقودهم.

لم تـرد زوجتـه عـلى مـا قالـه. أدركت بحكـم العلاقة بينهما، عـن حالته العصبية وهستيريته المتصاعدة مما حدث. ثم أردف قائلاً:

- أجمعي كل ما خف وزنه الآن. لنستعدَّ منذ الآن للهرب.
- إلى أين؟
- لا أعـرف. فقـط عليـك أن تجمعـي مسـتلزمات الهجرة من بعشـيقة

في أي ساعة مقبلة.

- والأهالي في بعشيقة وبحزاني؟

لم يجبها مباشرة. بل راح يحدق بعيني الكلب الأسود قرب شجرة الزيتون خارج البيت. ثم قال من دون أن ينظر إليها:

- إلى الجبل. الهرب أصبح أمراً قريباً.

ابتسمت كعادتها وقالت:

- دائماً أنت متشائم.

- متشائم صحيح، ولكن حاولي أن تجهزي الأوراق الثبوتية كافة، وما لديك من ضروريات في حقيبة كبيرة تحسباً لأي أمر طارئ.

ردت عليه هدى:

- كيف نترك بيتنا الذي عشنا فيه. بيتنا هو تاريخنا يا سليمان. تربّى فيه أولادنا، قضينا زمنًا طويلًا من دون بيت، وعندما أصبح لنا هذا المنزل تطلب مني الخروج. لمن أتركه؟ والله لن أتركه.

***

استمرت الأيام في الضيعة مشحونة بترقب، تزداد سخونة مع تصاعد غبار الأخبار، فيما الأجواء كانت ساخنة للغاية في شهر تموز. الشمس والحرارة تخترقان البيوت والحيطان، ترافقهما سخونة الأخبار الواردة من داخل مدينة الموصل. وما يقوم به المتطرفون من عمليات قتل وتهجير وتنكيل وفرض الأتاوات بقوة السلاح. حتى الإعلام بكل توجهاته ومواقع التواصل الاجتماعي باتت تعمل على توفير أرضية خصبة لإشاعة الخوف ومساعدة المسلحين من أجل نشر فضاء الفوضى في هذا البلد.

كان أهالي الضيعة يفكرون بالخلاص. بعشيقة اليوم ليست على ما

يرام. ماذا سيكون مصير سكانها؟ الخوف من الغدر. خطب "الخليفة" زعيم هذا التنظيم خطبة عصماء تحمل أكثر من رسالة خطرة. تحمل نذر الإبادة في طيات كلماتها. أبدع في حفظ الآيات القرآنية وانتقى منها ما يجعل المدن المحيطة على سطح صفيح ساخن. فقد وصف المخالفين لدولته بالكفار والمرتدين، فإذا كان يكفّر من هم على دينه فماذا سيكون موقفه مع الأيزيدية؟ الناس هنا تتحدث عن طبيعة هذا التنظيم وعن معنى "باقية وتتمدَّد". هل سيصل إليهم؟ أم سيكون هدفه بغداد؟ هل سيكتفي بإسقاط العاصمة - كما كانت منشورات التنظيم وخطاب زعيمه توحي بذلك؟ بعض الأهالي البسطاء كانوا يرون أن الأمل في القوات الأمنية التي تسيطر على مناطقهم.

في مقاهي بعشيقة طرحت وجهات نظر مختلفة، بعضها مأخوذة من القنوات الفضائية وتحليلاتها مدعومة بفيديوهات مما يفعله المسلحون. أكثر من طابور خامس وسادس وسابع. يروج بعض أفراد الطوابير بإمكانة كبيرة لدحر هذا التنظيم على أبواب مدينتهم بعشيقة وبحزاني.

أما سليمان فكان يشك في ذلك، وكانت له رؤاه الخاصة بتحليل ما يحدث. الأدلة متوفرة والتي تثبت أن الأحداث ستذهب أبعد من أحلام العصافير. إنها المؤامرة حتى إن كانت الأيادي ما زالت خفية عن بسطاء الناس.

كان سليمان يفكر بعقلية عميقة وجادة، وهو أفضل من محلّلي الفضائيات والإعلام، لكنه لا يقوى على الكلام المنمّق المتراص بشكل هندسي. هو يعرف بفطرته كل خفايا الحس المؤامراتي العالمي، لكنه لا يجيد إقناع أحدٍ من أصدقائه. اعترض بشدة على حديث زياد، الذي اجترّ تصريحاً لأحد المسؤولين الحزبيين الكبار في المنطقة، إذ تحدث

المسؤول عن طمأنة الجماهير، عندما اتصل بمراجعه العليا أمام الملأ. أكدوا له أن مناطق الأقليات في سهل نينوى وسنجار هي خطوط حمراء، وأنها على عهدها، ونطمئن الجميع وسنضحّي بأرواحنا لو تجرّأ شخص ما على التفكير بالاقتراب منها.

ابتسم سليمان ابتسامة ساخرة. أزعجت زياداً الذي كان مصدِّقاً لحديث هذا الشخص، خاصة أنه سمع المكالمة عبر الهاتف أمام عدد من وجهاء المنطقة. ردَّ سليمان بعد فاصل الضحك المرير: "صديقي زياد المسألة ليست باتصالاتٍ ووعود وتباهٍ أمامكم. هناك معطيات كُثر تجعلنا نتيقن بأن المتطرفين سيدخلون منطقتنا، بل كل المناطق المجاورة للموصل. لأن مناطقنا لم تحسم تبعيتها منذ ٢٠٠٣ لأية جهة، فتسميتها بالمناطق المتنازع عليها، هي كفيلة بأن تكون كبش فداء دائماً لمدن بقيت حالمة بالحرية والاستقلال الجزئي، فالوضع مربك جداً. نحن لا نشكِّل سوى أقلية منسيَّة لا تدخل في معادلات وحسابات البقاء، والتضحية بها أمرٌ واردٌ، ووارد جداً.

رد عليه زياد:

- هذا كلام إعلامي مجرَّد.

فقاطعه سليمان قائلاً:

- يا صديقي ضع عيناً على الأرض وأخرى خلف جبل بعشيقة واترك الفضائيات ومحلّليها نحن قرابينُ للتضحية عبر التاريخ. من الممكن التضحية بنا في أي وقت يشاؤون، من أجل مصالح واتفاقات كبرى. إن ما يجري مخطط كبير، وإلا ما الذي أدى إلى انهيار جيش جرَّار بهذه السهولة. جيش بكامل الجهوزية في الموصل ينهار كما تنهار مكعبات طفل عابث. تدخل مجموعة من الرعاع والمجرمين والقتلة المنحرفين وتعبث بمكونات التاريخ

"العريق لهذا البلد".

قال زياد له:

- الأهم من ذلك كله ألّا يدخلوا مناطقنا.
- سترى بعينيك كيف سيدخلون مناطقنا.

حاول زياد مقاطعته، ولكن هاتف سليمان رنَّ لأكثر من مرة، قاطعاً النقاش بينهما. كان المتصل زوجته هدى التي كان صوتها يبدو مرتبكاً وخائفاً. قالت له بصوت مبحوح فيه من سمات الخوف: - سليمان الأخبار تنقل عن دخول داعش إلى سنجار.

- من قال هذا الكلام؟
- صور الناس وهم يهربون إلى الجبال بالآلاف.
- مستحيل!!
- نحن خائفون. تعالَ إلى البيت بسرعة. ننتظرك؛ لا تتأخر.

نهض سليمان وقال لصديقه زياد:

- ألم أقل لك إن النار قريبة علينا وستحرقنا. نحن لا نعدو أن نكون قرابين طقوس وعبادات منحرفة بنظرهم. سنذبح وننتهك على مذبح السياسات والمؤامرات القذرة.
- ما الذي حصل؟ قال زياد متفاجئاً؟ فرد عليه سليمان
- الأيزيديون يبادون في سنجار، داعش دخل مناطقهم والناس هربت بالآلاف للجبال ومن بقي في المدينة من المؤكد سيتم نحره على الطريقة الداعشية.

بدت الصور والأخبار التي تأتي من هناك مرعبة بحق. إنه فيلم تاريخي من أفلام هوليود الشهيرة والفائز بجوائز عدة. تنقل مشاهده الحزينة الرعب التاريخي المدفون في تاريخ الإبادة للأيزيديين. مشاهد تحرك الصخر وتفتته. أطفال في العراء وما بين صخور الجبال في هذا

الصيف اللاهب بأقدام حافية. عيونهم كما تنقلها الكاميرات تحمل آلاف الأسئلة المبهمة، فيما السؤال الأهم هو أكثر من مساءلة واقعية لتاريخ الدم. أمهات يبكين مصيرهن وضياعهن وتشتُّتهن في هذا الجبل. رجال يحملون العجائز على أكتافهم ويبكون بصمت، ناس تمشي تحت حرارة الشمس حفاة الأقدام يعلوهم التراب، عيونهم خائفة تترقب. آخرون يحملون حقائب يد فيها أوراق ثبوتية وهُويات لا نفع بها بعد تلك الساعة ، مواشي هربت هي ايضاً مع اصحابها وتمشي لاتعرف طريقاً لها بين ارجل الهاربين. أمهات يضعن فلذات أكبادهن من العجائز في عربات الدفع. الحياة غدت عبارة عن صورة للمشاهدة أمام الجميع في هذا العالم الذي لا يستحيي من الفرجة على أحزان الآخرين. الناس متربة يعلوها الغبار، وجوه شاحبة صفراء وعيون خائفة، نساء يبحثن عن ماء لأطفالهن حيث بدأت تبث الأخبار بوفاة أكثر من خمسين طفلًا من العطش. تنقل الكاميرات أفواجاً مؤلفة من المدنيين العزل في سنجار تهرب إلى المجهول في العراء. تحتمي من حرارة الشمس في ظلال الصخور وفي الكهوف خوفاً من أن تطالها عصابات داعش التي أحاطت المدينة من كل الجهات، بل أحكمت سيطرتها عليها بعدما انسحبت منها قوات البيشمركة والقوات الحكومية تاركة الأهالي لمصيرهم المؤلم مع هؤلاء الخارجين من بطون التاريخ، تساءل سكان الكوكب عبر الكوكل عن الأيزيديين وتاريخهم ودياناتهم وكل شيء عنهم.

أما سليمان فبدا غريباً تسمَّر برعب أمام التلفاز مصفرَّ الوجه. تنهال من عينيه الدموع. دموع بلَّلت ملابسه، لا يستطيع السيطرة عليها. شعر بالعجز عن مساعدة أهله، عن المصير المجهول الذي ينتظرهم في بعشيقة وبحزاني؛ مدينتي التوأم الروحي المتماثل.

لم يكن يعرف ما يفعل بتلك اللحظة الفاصلة من حياته. قام بسحب الهاتف من جيبه يبحث عن رقم صديقه "سمير السنجاري" الذي كان معه في الخدمة العسكرية في جنوب العراق. قضيا سنوات عديدة معاً في جبهات وخنادق الخدمة العسكرية دفاعاً عن جغرافية البلد وتاريخه. سمير ذو الشوارب الكثة واللحية المسترسلة الجميلة، مع إطلالة الوجه البريء. كان ذا غيرة متقدة وحادة على أهله ودينه وقومه. راح سليمان يتذكر كل صفاته في تلك اللحظات وكيف استطاع إنقاد أحد الجنود من تحت يديه بعدما اعتدى بالقول بصورة فكاهية على أحد رموز الأيزيدية الدينية، فما كان من سمير إلا أن رمى نفسه على هذا العسكري ووضع يديه على رقبته حتى كاد يختنق، لولا مساعدة سليمان وإصلاح ذات البين بينهما. في ذلك الوقت عاتب سمير سليمان على تدخله. قال له : "لماذا أبعدتني عن رقبته؟ كنت مصمماً على قتل هذا الكلب ابن الكلب. أما سمعته كيف يضحك ويستهزئ ويقول عنا إننا نعبد الشيطان[1]!!"

في ذاك اليوم أصلح سليمان بينهما، فهما كانا وحيدين في تلك الوحدة، والحرب تستعر هناك وكان يخاف أن ينصبوا لهما الفخ فقام بترطيب الأجواء بينهما وإنهاء حالة الخلاف.

استمرت العلاقة بينهما على الرغم من انتهاء خدمتهما العسكرية. علاقة صداقة لتاريخ عيش مشترك يحمل المزيد من الذكريات الحلوة والمرة. وتستمر العلاقة الجميلة بل تطورت إلى علاقة عائلية بمرور الزمن. حتى جاء اليوم الذي تزوج فيه سمير من أخت سليمان،

(١) يروج البعض داخل المجتمع العراقي وخارجه أن الأيزيدية يعبدون الشيطان وهي إحدى الصور النمطية الخاطئة التي تم أشاعتها في فترات زمنية عديدة عن الديانة الأيزيدية والتي كانت وما زلت تستغل من قبل البعض بجهل وعدم دراية واحيانًا بتعمد، لا سيما أن هذه الفكرة لا يوجد لها أصل ديني أو عقائدي لدى الأيزيدية.

فزادت علاقتهما وتطورت بشكل عميق.

كان سليمان يعشق سنجار لجمال طبيعتها وهوائها العليل الذي ينشط البدن ويوقظ المشاعر. يعشق الأزياء التراثية للشنكاليين. بساطتهم وعزيمة رجالهم وتاريخهم وأمجادهم. كما أن سنجار هي تاريخ الأيزيدية وتراثها. التبوغ الشنكالية الممتعة. والعسل الأصفر ذو المذاق الطيب، والتين الطري المعلق بخيوط لأطوال مختلفة والتي كان يرسلها سمير وزوجته لسليمان وعائلته باستمرار.

اتصل سليمان بهاتف سمير الذي كان يرن لأكثر من مرة من دون رد. زاد ذلك من قلقه واستمر بالاتصال حتى جاءته الإجابة أخيراً. قال له: " سمير طمني عنك. شنو صار منكم؟ ما أخبار ميساء والأولاد؟، قلوبنا معصورة عليكم".

رد سمير وكأنه كان يرد من كهف بسبب بعد صوته وتغير نبرته بسبب المشي والبكاء وبكلام متقطع من عطش وخوف وقلق. قال له وهو يكاد يبكي: "سليمان لقد باعونا. أنا الآن في الجبل وميساء معي والآلاف من العوائل هربت وهم الآن في الجبال والكهوف. الكثيرون منهم حاصرهم داعش لم يستطيعوا الهرب، نحن نمشي لا نعرف إلى أين. عائلتي قتلها داعش أمام عينيَّ، قتلوا أخي وأخذوا زوجته وابنتيه سبايا". انقطع الاتصال على حرقة وبكاء وعويل بالقرب منه.

ثم عاود سليمان الاتصال من جديد لمعرفة مآل المصير لآلاف العوائل الهاربة. جاوبه سمير بصوت متقطع وخافت. كمن يحاول أن يشكوَ ليحصل على مساعدة ما، أو على وسيلة ما لمحاولة إنقاذ تخفف من صراخات الأطفال وعويل السنجاريات. قال: " أنا خائف يا سليمان. لا على نفسي، بل على مصير آلاف الزاحفين لقمة الجبل. هل يعرف العالم ما يجري هنا؟ لا ماء لا طعام لا حليب للأطفال الرضَّع.

في كل دقيقة ندفن طفلاً أو شيخاً أو تلد امرأة في طريق الصعود. راح يموت هذا الصغير. أوصيك بالدعاء لنا". ثم أغلق الخط وانتهى كل شيء.

عاود سليمان الاتصال للاطمئنان على أخته، ولكن التلفون كان مغلقاً. كلام "سمير السنجاري" أثَّر كثيراً بسليمان وعائلته وبدأت الدموع تنهمر. نظر إلى ابنتيه وزوجته. تخيَّل مصير أخته وبقية العوائل على جبل سنجار. أشعل سيجارته ونهض منتصباً كمن يحاول أن يفعل شيئاً ما، لكن من دون جدوى. قال لزوجته هدى: " يجب أن نخرج من بعشيقة، حضِّروا أموركم سنترك المدينة؟

ردت هدى وهي خائفة: " ماذا بك؟ هل سيأتون إلى الضيعة؟..

بدأت الآن أكثر اقتناعاً بكلام سليمان وأكثر خوفاً بعدما شاهدت الصور عن سفح جبل سنجار وسمعت عن سمير ومصيبته.

قال سليمان: " الموضوع لا يحتاج لنقاش بعد سنجار سيكون الدور علينا. "

***

بعد دخول تنظيم داعش إلى سنجار والصور والأخبار التي بدأت ترد من هناك، بدت شوارع بعشيقة وبحزاني موحشة. الرعب ينعكس على وجوه الأهالي. وجوه تعلوها علامات الخوف والرعب الحقيقي. يترقبون الأخبار ولا يعرفون ماذا يفعلون. هل يصدقون هول وتضخيم الإعلام؟ ثمة حملات تشويش وإشاعات متبادلة من داعش ومن القوات العسكرية المسيطرة، فداعش كانت تنشر تقدمها واحتلالها للمناطق، فيما بيانات القوات العسكرية تعلن إعادة سيطرتها على مناطق وجغرافيات جديدة.

تطمئن الأهالي بأن القيادة عدَّت مناطقهم خطاً أحمر، وأن انسحاب سنجار كان انسحاباً تكتيكيّاً ليكون هناك هجوم لتحريرها، وكأن الفخ الذي حدث في سنجار، هناك من يحاول تكراره في الضيعة. زادت المظاهر المسلحة وشراء السلع والمؤن. كان حديث الشارع عن صور سنجار الوافدة ومصائرهم المجهولة حديثاً مطوَّلاً في بعشيقة وبحزاني. إلى أين تتجه الأمور؟ لا أحد يجيب. بدأت مخاوف الناس تزداد ومعها يزداد القلق من سيل الأخبار التي ترد وتقرأ وتسمع وتأتي عبر الواتس آب. بدأت عوائل كثيرة تخرج فعليّاً من منطقة وأخرى، كانت تحاول طمأنة الناس والتي كان يدفعها بعض المسؤولين والأحزاب. بدأت السيارات تنقل العوائل بشكل لافت، حيث قرر سليمان وعائلته الخروج مع العوائل الهاربة من بعشيقة وبحزاني.

٧

كانت غزلان الساعات وخيول الأيام تسابق بعضها بعضاً. ففي كل دقيقة ثمة أخبار جديدة. فقبل يومين فقط من دخول الدواعش إلى بعشيقة وبحزاني، أي في يوم ٦/٨/ ٢٠١٤ قرر سليمان الرحيل عن مدينته بدل أن يُقتل أو يُجبر بالغصب على دخول "الدين الجديد".

استأجر سيارة "بيك أب" قديمة تعود لجاره المزارع في حقل البصل. وضع فيها حاجياته الأساسية وبعض الوثائق والأوراق، كما دسَّ في جيب سرواله بعض المبالغ المالية، مقرراً الرحيل مع زوجته هدى وابنته البكر أمل والأخرى دينا.

كانت وجهته إلى مدينة دهوك التي تبعد ما يقارب ٧٦ كيلو متر عن بعشيقة. كانت خريطة الطريق الآمنة عبر طريق الفاضلية الرابط بين بعشيقة وناحية الفاضلية، ثم ينعطف الطريق يميناً نحو الشيخان. بدا الطريق مأساوياً وهو يعج بأسراب من مركبات محملة بالمواطنين وكأنهم ذاهبون بنزهة إلى يوم الحشر العظيم. كان الطريق مزدحماً بالمهاجرين من أبناء قومه.

مواطنون مسالمون هربوا من برطلة وقرقوش وبعشيقة وبحزاني وقرى الشبك، يتكدسون بسيارات حمل قديمة وفي صناديق سيارات الصالون. مشهد قلّ نظيره في تلك المسالك. حالة الأسى تغمر الوجوه، ينظرون إلى قراهم المهجورة وبقايا دخان المطابخ يتصاعد إلى السماء.

كانت تعدُّ أعظم هجرة لهم في التاريخ. ثمة مسيحيون معهم في تلك الحملة قادمون من برطلة وقرقوش. جماعات من الشبك أيضاً قرروا الرحيل إلى المجهول، بالإضافة إلى الجمع الكبير من الأيزيديين. كان الجميع ينظرون إلى السماء بدعوات هامسة وسرية طلباً للنجاة ولا من مجيب حتى ساعة الوصول إلى تخوم مدينة الشيخان. نساء وصبايا يبحثن في عيون المارين بالاتجاه المعاكس عن أجوبة لأسئلتهم المعلقة في العيون، ولا جواب يلوح في الأفق أو في السماء. ما الذي يحدث وإلى متى سيستمر هذا الوضع الكارثي؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ ماذا ينتظرنا في الطريق؟

كان مفرق الطرق القريب من قضاء الشيخان والرابط ما بين الموصل ودهوك يشهد منظراً دراميّاً مرعباً عندما تتصاعد صرخات الأطفال وعويل الصبايا والعجائز.

أصيب سليمان لهذا المشهد القاسي بالصدمة. فالمئات من العوائل والجموع البشرية والسيارات المتكدسة بالأهالي وتدافعهم إلى دخول نقطة الشيخان، والتي تُعدُّ معبراً آمنا إلى مدينة دهوك من ضمن إقليم كردستان الآمنة لغاية تلك الساعة، حيث تمثل الشيخان هي المنطقة الفاصلة ما بين حدود الموصل والإقليم.

ثمة منظر مضحك ومبكٍ في الوقت ذاته، مشهد لقطعان الخراف المرعوبة أو الأبقار التي تساق في البرية في طريقها إلى الهرب أيضاً. عدد قليل منها محمَّلة في سيارات الحمل. ثمة حمير تحولت إلى واسطة نقل للمهجَّرين، عندما شحَّت وسائط النقل. نساء يفترشن أحواض سيارات الحمل الكبيرة يحاولن تهدئة صراخ الأطفال. ثمة جنود مهزومون بزي عسكري وهم حفاة يبحثون عن منفذ للنجاة.

كان الهلع والخوف والقلق ينبعث من عيون الناس، والمزيد من

الأسئلة الضائعة تبحث عن أجوبة لكن غبار السيارات والصراخ مع الخوف أضاع كل آفاق الأجوبة عن المصير. أحد الرعاة نقل إلى المهجَّرين خبراً جديداً؛ قال: "سيارات حديثة معبأة بمقاتلي التنظيم شاهدوهم يحملون الرايات السود. إنهم يحاولون اللحاق بقافلة المدنيين الهاربين". الأمر الذي زاد من الخوف والقلق للبحث عن منفذ النجاة. ساعات قطعوها في الطريق. الأطفال يبكون ليس من الخوف، إنما من العطش وقلة الماء وحرارة الشمس والغبار والجوع، لتزيد من صعوبة المعاناة.

المشهد بدا كأنه أحد أفلام هوليود التي تجسد نهاية العالم. في تلك اللحظة كان سليمان يفكر فيما ينتظره وعائلته عندما يصل دهوك. وإذا ما داهم المدينة مقاتلو داعش ما هو المصير الذي ينتظره؟!.

في آخر حاجز عسكري عند مفرق الشيخان وجد عوائل كثيرة من بعشيقة وبحزاني قد وصلت قبله. كانت تنتظر الموافقة الرسمية لدخولها إلى مدن الفردوس. مكث في مكانه ينتظر مع الجميع بوابة المصير. أوقف السائق سيارته قريباً من زياد.

قال سليمان بعدما شاهد ما جرى من شريط مأساوي مرعب:

- أيعقل ما يحدث هذا؟ لا يمكن أن أستمر بكل ذلك ولا أستطيع أن أنتظر هنا؟

رد عليه زياد في محاولة أن يثنيه عن دوافعه التي بدت واضحة في العودة من حيث أتى، فقال له:

- سليمان هذا الحال طبيعي. فالحشر مع الناس عيد كما يقولون. الناس تهرب من كل المناطق في نينوى للبحث عن الأمان. داعش وراءنا وسيدخلون مناطقنا اليوم أو غداً. سيفعلون بمن فيها كما فعلوا بأهالي سنجار، وربما أكثر. والأيزيدي الذي يعثر

عليه سيقطع رأسه بسكين عمياء، وتلك طريقتهم التي نقلها
الأهالي وسمعتها عنهم.

***

في تلك الساعات المحتشدة بالترقب، لم يكن سليمان مقتنعاً تماماً بما ذكره زياد، ومع ذلك تراجعت خطاه وقلَّ حماسه للعبور. أين المفر؟ لا أحد يجيبه. الحشد الكبير من المهجَّرين يزداد في كل لحظة تمر. يتدافعون على الحواجز العسكرية. يضطرهم والحال هذا لترك حاجياتهم مقابل الدخول إلى حدود الإقليم حيث دهوك.

افترش بعضهم الأرض وبعضهم يجري اتصالات مع المعارف لتسهيل مهمتهم. غير أن بعض ضباط السيطرة يستهترون بمشاعر الناس. يصفونهم بالجبن والخذلان لهربهم وترك مناطقهم. اللوم والتقريع على الأهالي العزَّل في تلك الظروف زاد من حزنهم. صرخ الضابط بالعوائل، وهو المسؤول على المنفذ كما بدا. تحدَّث بلغة عربية مكسَّرة وغير مترابطة، لا يقوى على تركيب الحروف ومخارج الكلمات. لكنه يشتم الجميع هنا. شعره أصفر حليق الوجه والشارب، نحيف البنية بقامة طويلة كطائر اللقلق: "غار عليكم أن تتركوا بلدتكم. أنتم جبناء. أتريدون أن ندافع عن حشد الدجاج ؟؟" كلماته المستفزة أشعلت النار في صدر سليمان وزياد. يعربد هذا المزعج ذو النجوم الثلاثة من تجاوزه على الناس. حاول أن يضرب امرأة أصرت على دخولها مع طفلها المريض، فما كان منه إلّا أن دفعها حتى تقهقرت وسقطت إلى الأرض وسقط طفلها بعيداً عنها. والناس لا تقوى إلا على الصمت والحسرة لهذه المشاهد المستفزة للحواس. يتفرجون خائفين أن يكون مصيرهم كمصير هذه المرأة، فيما لو حاولوا تجاوز

الحاجز خاصة. فما كان من سليمان الواقف بين المرأة والضابط إلا أن تقدم إليه ورفسه في صدره. كانت رفسة قوية تحمل كل حالات الغضب المخبّأ في صدره. رماه لمسافة مترين. انبطح الضابط على الأرض يحاول التقاط أنفاسه، لكن سليمان انهال عليه مجدداً ومعه زياد الذي تشجع بالضرب، وهما يصرخان: "نحن لم نهرب وأنت تعلم من الذي هرب.. يا دجاجة يا أبن الدجاجة". تدخل الجنود من حرس الحاجز لفك الاشتباك. هنا وفي تلك اللحظة بالذات تحمّس الأهالي للدفاع عن سليمان وزياد. ساعدوهما لرد الاعتبار. شاعت حالة من الفوضى والارتباك بين رجال أمن الحاجز وتراجعوا إلى الخلف قليلاً كي يمتصّوا هياج المواطنين. مما ساعد في اقتحام الناس المتجمهرة إلى المنفذ والدخول بسلام إلى الأرض الآمنة. كانت بحق معركة كبيرة. لم تنفع العيارات النارية تقدم الجموع. تطور الأمر أكثر مما حصل. فاتصل الضابط المسؤول طالباً فوج دفاع لصد الجماهير التي اجتاحت الحاجز.

أما سليمان فقد قرر ألّا يعيش في كنف المهانة. فضل الموت في مدينته بدلاً من الذل الذي سمعه من هذا الضابط المتهوِّر، فقرر العودة والموت على أرض بعشيقة. عاد لزوجته الواقفة مع ابنتيه وقال لهم: "سأعود إلى الضيعة. أنتم أكملوا مسيركم وادخلوا بسرعة من المنفذ المفتوح."

حاولت هدى أن تثنيه عن قرار العودة. فقال لها: "لا يمكن أن أبقى تحت هذا الوضع. لا يمكن أن أتجرع كأس الذل هذا. سأذهب إلى الضيعة وكفى. وإذا ما دخلها داعش، سأحاول الهرب عبر الجبل. الأهم أن لا تخافي عليّ."

كان مصراً من دون تراجع عن قراره. فقبّل رأسها وخدود ابنتيه. انهمرت دموع هدى وطلبت منه عدم تركهم وحدهم في هذا الظرف

الحرج، فقال لها: " لا تخافي كل أهالي المنطقة معك. اذهبي حيث يذهبون. وهذا المبلغ معك بإمكانك الاستعانة به والأمور لن تطول وستعودون يوما ما حتما. قبّل رأس هدى والبنتين مرة أخرى. انسكبت دموعه من دون إرادته. أمسكت البنت الكبرى بيده:" بابا لا تبتعد عنا. لن تعود إذا ذهبت الآن."

احتضنها بحنان وقال لها: " لا تخافي يا ابنتي. الموت لا نحدِّده نحن وإنما هو مرسوم لنا مسبقاً في الزمان والمكان. وأن متُّ في مدينتي، لهو أفضل لي من أموت خارجها، لطالما كنت أرغب في ذلك!! المهم أن تهتمي بأختك الصغرى وأمك."

٨

استقلَّ سليمان سيارة زياد مودعاً عائلته بإشارة من كفه وبحركة بطيئة. أقنع سليمانُ زياداً بالعودة سالكين طريق الجبل.

انطلقت السيارة تاركة خلفها عويل النساء وصراخ الأطفال، في ظل الفوضى البشرية التي كانت تعمُّ المكان. بدا طريق الجبل الوعر موحشاً وخالياً من البشر، سوى بعض ربايا عسكرية نصبت حديثاً.

واصلت سيارة زياد الطريق صعوداً وهبوطاً ما بين الوديان. توقف زياد بالقرب من رعاة الماعز الجبلي ليسأل عن أمن الطريق نحو بعشيقة. بعض الرعاة لم يشجعوهما على الاستمرار وبعضهم الآخر أثبتوا أن الطريق سالك. وما هي إلا ساعة من الوقت حتى شارفوا على قمة الجبل المطل على بعشيقة. بانت ملامح المدينة بجمالها وبساتينا المترامية الأطراف. تنفس سليمان بعمق وكأنه هجرها وعاد إليها منذ سنين. تذكر أعياد بعشيقة. بهجتها وفرحها. والشوارع تكتظ بالسكان والألوان وقرع الطبل و"الزرنة". تذكرها أيضاً في فصل الربيع كيف ترتدي بعشيقة حلتها وزينتها وجمالها ومنظرها الجميل في الليل مثل عناقيد ثُريَّة معلقة في السماء. كيف كانت تبدو منازلها الأفقية بإضاءة شرفاتها. مثل جوهرة تتلألأ في السماء. تذكر جلسات الخمر الحميمة وحفلات مدرجات الجبل تجوبها سيارات تصدح بالأغاني التراثية.

بدت الآن خالية خاوية من ناسها، مثل جنة خالية من البشر. قررا

النزول بسرعة من أعلى الجبل، في الطريق المؤدي إلى وسط المدينة. لكن نوبة خوف عصفت بهما فارتعش جسد زياد من القلق.

عندما وصلا وسط المدينة وجدا الضيعة فارغة تماماً. المقاهي مفتوحة من دون روادها. استكانات الشاي لم تزل على الطاولات، وقد تكاثف عليها الذباب. انعدمت فيها الحركة تماماً. ليس سوى الكلب الأسود ينظر لهما بشزر. البيوت ساكنة لا أحد فيها. الأبواب موصدة بسلاسل. عثرا على بعض أشخاص متفرقين يخرجون من هنا وهناك يحاولون الهرب أيضاً. ربما عادوا لأخذ بعض الحاجيات من منازلهم.

ثمة كلاب تجوب الشوارع وقطط منازل تقف على الأسطح تستفهم عن ما حصل. فمنذ قرون وهذه المدينة مأهولة على الرغم من الويلات والحروب والمآسي، لم يحدث أن هاجر الناس وتركها وحدها. استمرا بالتجوال حتى وصلا إلى موقع آخر من المدينة فوجدا بعض المسلمين وفي عيونهم أكثر من سؤال حول تقدم الدواعش. في طرف قصي من بحزاني عدد قليل من الرجال المسلحين. ألقى عليهم سليمان التحية، قال له أحدهم: "هل من رجال باقون في بعشيقة؟" أجابه على الفور بـ: " لا، عددهم لا يتجاوز الخمسة.

لقد وصلنا اتصال من الموصل الآن، يرد فيه بأن الدواعش سيدخلون مدينتنا غداً. ونحن في ظل شحة الرجال المدافعين والعتاد ومع انسحاب القوات العسكرية التي كانت تسيطر على مدينتنا قررنا الخروج اليوم عبر الجبل."

رد سليمان عليه: " الله كريم ونحن أيضاً."

عادا بسرعة إلى الشارع الرئيس، فوجداه فارغاً. حدق سليمان

طويلاً بتمثال "أيزيدي ميرزا"[1] وهو منتصب على صهوة حصانه. هذا الرجل المقدام الذي ذكره التاريخ بأنه دافع عن العثمانيين في حروبهم ضد الصفويين ولشجاعته عيّن والياً على الموصل في زمن العثمانيين، لكن الدولة العثمانية عزلته واستدعته إلى إسطنبول وقتل هناك. لا تثق السلطات بالأقليات منذ ذلك الزمن بل تضطهدهم. ماذا لو كان ميرزا الآن حيًّا بيننا، هل سيترك مدينته؟؟ أو يدافع عنها؟ كيف نترك أرضنا دون الدفاع عنها ؟

رد زياد: " لم نتركها حتماً. لكننا من غير سلاح. ألم تلحظ ما حدث في سنجار؟ أهلها دافعوا عنها ببسالة، ولكن دون جدوى. خسروا فكرة الدفاع. بسبب عدم التكافؤ في السلاح مع الدواعش. نحن لا أحد يساندنا. ليس لنا معين يذكر. لا في الداخل ولا في الخارج."

إلى جانب التمثال شاهد سليمان القباب والمعابد الأيزيدية وقد بدت خاوية. معابد عبارة عن أمكنة مهجورة. تنتصب القباب على هضبة في وسط بعشيقة وبحزاني. كان يزورها الناس فيما مضى يتبركون بها، ويحتفلون داخلها في مناسباتهم. دمعت عينا سليمان عندما هاله منظر المدينة الخاوية.

استمر في الشارع الرئيس ثم انعطف يمينًا للطريق المؤدي إلى جامع الفاروق. عثر على عدد من المسلمين مجتمعين أمام جامعهم القديم. أوقف السيارة وفتح شباك النافذة وألقى عليهم التحية فرد عليه العم بلال الصابونچي. رجل مسلم متعبد متقدم في السن من أهالي المنطقة القدماء وهو محب لأبناء منطقته، حيث عاش فيها طفولته وشبابه وشيخوخته. كان يمتهن صناعة الصابون وبيعه. له

---

(١) ميرزا باشا الداسني تولى ولاية الموصل ١٦٤٩ لشجاعته وجهوده في مساعدة الدولة العثمانية في حروبها ضد الصفويين اللذين قتلوا اخويه، ولكنها عزلته بعد فترة قصيرة وتم قتله بأمر من الباب العالي في الدولة العثمانية .

علاقات طيبة مع الجميع. قال لسليمان: "أهلاً ومرحباً بكما. تفضلا اشربا الشاي." ردَّ عليه: " شكراً عمُّو بلال. نوصيكم خيراً في بيوتنا. عمو بلال؛ المعادن الأصيلة تكشف في الشدائد، وأنت أصيل ومواقفك معروفة إذا ما دخل الدواعش المدينة."

رد العم بلال بصوت حزين بعدما كور مسبحته في كف يده، وكأن الحديث أربكه، فحاول السيطرة على نفسه بشحنات مسبحته الكهرب: " لم نرَ مثل هذا الزمن، لطالما كنا معاً. نعيش بمحبة وسلام. فكيف تعتقد بأن هؤلاء الأوباش سيجبروننا على سرقة بيوتكم التي أكلنا وشربنا فيها؟ لا توصِني على بيوتكم فهي بيوتنا."

رد زياد وهو يدخن سيجارته بتوتر وبنبرات بدا عليها صوت احتقان داخلي: " كلامك جميل كعادتك عمو بلال. لكن لماذا أنتم المسلمين الوحيدون الذين بقيتم في المنطقة؟ ولم تخرجوا مثل بقية الخلق؟."

حاول العم بلال الحديث فتدخل أحمد شاب معروف بنزعته الدينية المتشددة. يرتدي دشداشة بيضاء وحذاءً بُنياً: " نحن لا نخرج من ديارنا. ثم لماذا نخرج والشعارات التي نسمعها لا تشكل علينا خطراً ؟ فهم لا يتخاصمون مع أبناء ديانتهم. حتى أنتم في ظل الدولة الإسلامية ستنعمون بالأمان !؟

أزعج كلام أحمد المتشدد العم بلال الذي كان جالساً. رمقه بنظرات حادة تعبر عن إزعاجه من خطابه المتشدد. قال له: " ليس هذا وقت هكذا كلام ولا هو كلامنا يا أحمد."

مر سليمان من امام المزار فشاهد الباب موصداً لأول مرة، عرج في طريقه بالقرب من الكنيسة فوجدها موحشة هي الأخرى. خالية من المسيحيين لا تقرع فيها أجراس وهجرها حتى حراسها. في الطرف

الآخر من الكنيسة عثر على بعض رجال الأمن الذين كانوا يحرقون الأوراق في مديرية الأمن القريبة. وجدهم منغمسين في تفحص الأوراق والدخان يتطاير نحو السماء بمحرقة الوثائق. كان أحدهم يحمل قضيباً حديديّاً يقلب الأوراق لتزداد احتراقاً كي لا يكشف أسرارهم أحدٌ ما. تمنّى سليمان لو تنكشف الأوراق ذات يوم ويفتضح أمر المنافقين الذين يكون لهم الصدارة في كل زمن بسبب نفاقهم المغطى بعباءة الإخلاص المزيف.

عبر سليمان بسيارته إلى السوق العصري، صدفة عثر على أحدهم يجلس أمام بيته، توقف أمام البيت الذي كان جميل قد اقتطع منه غرفة، فأحالها لمحل يبيع فيه السجائر. سلم عليه فرد جميل السلام، فقال له سليمان: " جميل أما زلت هنا؟؟ لماذا لم تخرج؟"

رد جميل وكأس العرق ما زال في بدايته. رفعه إلى شفتيه وارتشف منه، ثم أخذ قليلاً من الحمص قال: "لا تعتقد بأن هناك أجمل من الموت في مدينتك يا سليمان. مثل هذه الويلات مرت علينا كثيراً ولم نترك مدينتنا. تعال اجلس ولا تخف. الدواعش يخافون من الخمارين أمثالنا." ابتسم سليمان وقال له: " سأعود لك انتظرني."

جميل وردية بعثي قديم عمل في جهاز الأمن في زمن صدام. طُرد من عمله بسبب مساعدته لأحد أبناء منطقته وتهريبه من السجن. جميل لا تخلو قيافته من شكل الموظف الأنيق. أناقة اكتسبها من سني عمله الأمني. رجل على قدر من الوسامة بشعره المصفوف وبشرته السمراء مع احتقان في شفتيه المائلتين للزرقة لكثرة التدخين وبكرش بارز دليل الشرب المفرط، والمثير للأمر أنه عمل مع مجيد سنين طويلة، لكنه يختلف عن مجيد هذا في نخوته وصدقه وتعاونه مع أبناء منطقته، اعتذر عن عمليات التصفيات الأمنية للكثيرين من أبناء المنطقة، حتى

التقارير الأمنية كان يمتنع عن كتابتها. الأمر الذي سبب له الكثير من العقوبات والتنقلات، إلى أن جاء اليوم الذي تمّ طرده من جهاز الأمن في سني النظام الأخيرة. لذلك افتتح محلاً لبيع السجائر بأنواعها. فلسفته في الحياة (الكأس هو الشعار لحل المشاكل كافة). كان لبشاعة إخوته وطمعهم حرمانه من الميراث ووفاة والديه المبكر، الأمر الذي حال دون زواجه ليبقى فحلاً هائجاً يرتمي في أحضان النساء. محله الصغير على الشارع العام والقريب من السوق العصري، لا يتجاوز خمسة أمتار وفي نهايته له مضجع مخصوص للنوم. حتى أصبح هذا المحل هو بيته ومصدر رزقه.

يشبه سليمان إلى حدٍّ ما، فهو دائم التعلق بمدينته، يعرف درابينها وأهلها وأسرارهم، يقترب منه في جلسات الخمر أو من خلال علاقاته النسائية المتعددة أو من عمله السابق.

يبدأ برنامجه يوميّاً في المساء وبالجلوس أمام دكانه، ومعه قنينة العرق والفستق يستمر لغاية الساعة الواحدة ليلاً، حيث تبدأ جولاته في تفقد المنطقة. أما لموعد غرامي مع إحدى عشيقاته أو للاستمتاع في أزقة المنطقة وشم الهواء النقي. على الرغم من عبثه، فقد كان إنساناً جميلَ المعشر مؤثراً في أصحابه كثيراً. سلوكه الغريب كان يفرض عليه نوعاً من الغموض الاجتماعي حول شخصيته الحقيقية التي كان لا يفصح عنها ولا يعرفها سوى المقربين من الأصدقاء.

هو الوحيد الذي شهد خروج الأهالي من المنطقة قبل دخول داعش بأيام. كان يجلس أمام المحل يلقون التحية والسلام عليه وهو لا يرد عليهم. كانوا يعتقدونه مجنوناً لبقائه في المدينة حارساً متطوعاً. الآخرون يرون فيه إنساناً مدمناً وعبثياً. لا يؤثر سواء هرب أم بقي في المدينة. على الرغم من كمية النصائح له بالهرب، فالدواعش سيحرقونه

ويقطّعونه أمام دكانه مثلما قال له أحدهم. في حين يرى آخرون أن علاقاته مع رجال الأمن والبعث قد تدفعه للبقاء مشككين في نواياه البريئة. يبتسم دائماً ولا يفصح عن ما في داخله. والحقيقة كان يرى أن الذل في الخروج لا يقل عنه في البقاء، وأن الدواعش في النتيجة سيقتلونه، أما طريقة القتل فسيكون الخمر كفيلاً بأن ينسيه عذاباتها. جميل أثبت أكثر من الذين هربوا أنه بعشيقي يحب المدينة أكثر من غيره. توقف سليمان عند فكرة هذا الرجل طويلاً.

٩

دخلت هدى وابنتاها منفذ الشيخان بصعوبة بالغة في تلك الليلة الملعونة. بكت هدى حظها العاثر وندبت مستقبلها المجهول مع ابنتيها. تسترجع ما حدث لسليمان وشجاره مع ضابط الحاجز الأخير. اتصل الضابط حينها ليستنجد بقوة عسكرية إضافية. عندما حضر رجال القوة بدأت على الفور باتخاذ إجراءات صارمة وألقت القبض على بعض الشباب.

وبعد ساعتين من الهرج والمرج جاءت الأوامر العليا في السماح لما تبقى من الهاربين والنازحين بالدخول ضمن حدود الإقليم وتسهيل الإجراءات إليهم للتخفيف من حالة الفوضى التي حدثت.

كانت بعض وسائل الإعلام قد وصلت إلى حاجز الشيخان. يصورون بلقطات عامة حركة السيارات المحملة بالبشر والأثاث. التقطت إحدى الكاميرات شخصاً يركض في العراء. ثم صورة أخرى لشاب يصرخ بهاتفه، ليحدد موقعه. آخر يصرخ على زوجته وأولاده ليحثهم للدخول من الحاجز. كذلك نقلت الكاميرا حالة امرأة عجوز تُحمل على سدية.

تجمع الأيزيديون من كل المناطق، ليس فقط من بعشيقة وبحزاني، إنما انضم إليهم من الشيخان ومهد وباعذرى. تسارعت وتيرة الأخبار الواردة بتقدم مقاتلي داعش ووصولهم إلى مشارف أربيل ودهوك،

فعمت الفوضى والخوف لدى الجميع. لذلك يحتشد الطريق الرابط من باعذرى إلى دهوك بالمهجرين القادمين من البراري ومن طرق ترابية أخرى متفرقة. هذا الطريق الذي تفصله عن المدن الكبرى جبال عالية وملتوية وأشجار كثيفة ميزتها أنها كانت تأتي بهواء بارد في ذلك المساء الحار والكئيب. اجتازت هدى وبنتاها بخطوات سريعة الحاجز. كانت تحمل على ظهرها في حقيبة قماشية قليلاً من الملابس وبعض الحقائب. أمل تدرك عمق هذه المأساة. البنت جميلة تلفت أنظار من حولها وهي تجمع ما بين جمال الأب والأم معاً. شعرها أسود طويل مع استدارة وجه حليبي وطول فارع وعينين عسليتين واسعتين ولمحة ذكاء خارق. تؤسر بطلّتها كل من يراها للوهلة الأولى.

تأثرت أمل كثيراً بمنظر النسوة الأيزيديات في سنجار حين شاهدتهن على التلفاز، وهن يتعرضن إلى كل هذا العنف والظلم. تسأل ولا من مجيب عن سبب ما يحدث لها ولرفيقاتها. لماذا المرأة تكون ضحية الحروب على مرّ التاريخ ؟ لم هذا الاغتصاب والسبي بحقهن؟.

أنهت أمل مرحلة الدراسة الإعدادية وتستعد للدخول إلى الجامعة، لكن أسئلتها غالباً ما تكون أكبر من مستواها العلمي.

لا تنسى تلك اللحظة التي ودّعها الأب سليمان في مفرق الشيخان. طبع قبلة على خدها مذكّراً إياها بكلمات قليلة الاعتناء بأختها وأمها.

استمرت عائلة سليمان بعد دخولهن المعبر بالمشي في الطريق مع جمع هائل من النازحين، حتى وقف أحد أصدقاء أبيها وطلب منهن أن يركبن في سيارته وصولاً إلى مفرق باعذرى. هناك اكتشفت أن أعداد النازحين من قومها أكثر من الموجودين على عتبة الحاجز. كانوا يأتون من مناطق "الجراحية ، بيبان ، مهد ، نصيرية ، دوغاتا ،

"بريفكا"[1] في الطريق المؤدي إلى دهوك المدينة. بدأت الشمس تختفي خلف هامات الجبال العالية، في حين أن بشائر ظلمة الليل تزحف لتغطي الوديان والجبال والأشجار بعباءة سوداء كالحة. كانت أمل تسمع صراخهم من عمق الوادي السحيق من شدة الخوف وغياب بارقة الأمل. قضت هدى وبنتاها ليلتهن في الشارع مع الآلاف من النازحين الهلعين من عتمة المصير، وفي ظل الخوف المستمر.

في تلك الليلة طلب منهم صاحب المطعم القريب في منطقة بريفكا الدخول إلى المطعم وأن يناموا فيه ليلتهم كبادرة نادرة في تلك الأجواء المحبطة. قال: "مطعمي وهذا الجامع كله تحت خدمتكم. أرجو منكم إدخال أطفالكم والنسوة أولاً، ثم كبار السن. تتوفر على قدر الإمكان بعض وسائل الراحة اللازمة."

سكت الجميع ولم يجب أحد منهم. ينظرون لبعضهم، حتى أمل منعت أمها من دخول المصلّى خوفاً مما يحدث. رفع صاحب المطعم صوته منادياً مرة أخرى لتقديم المساعدة لمن يطلبها. دخل بعضهم إلى المطعم والمصلَّى، لكن عدداً آخر رفض الدعوة، بل شتمه بعضهم في السر كرد فعل لما يعانونه باسم الدين.

دخلت هدى بعد أن اشتد ألم فقرات الظهر. أما أمل وأختها فامتنعتا من الدخول. افترشتا الأرض بعد أن وضعتا رأسيهما على صرَّة الملابس. جسماهما على الأرض مباشرة، وحولهما كان ضجيج النازحين لا يهدأ مع عويل النساء والأطفال، التي ما زال النوم لم يهجم على عيونها، سألتها أمل أختها الصغيرة:

- لماذا لم تدخلي إلى المصلَّى.

- بصراحة تذكرتُ ما يفعله الدواعش بنا. نحن في شرعهم مجرد

---

(١) قرى ومناطق أيزيدية حول قضاء الشيخان.

سبايا. مواطنون مجهولو الهوية. تبددت فكرة الوطن الآمن، عندما فتحوا كيس التاريخ، ليخرجوا منه الأفكار السوداء من بطن التاريخ الأسود ويجرِّبونها علينا. أكره أماكن العبادة كلها فهي شواخص لتاريخ الدم.

بدت متوترة. قد يكون ذلك بسبب وضعها في ذلك المساء. الصور المرعبة التي علقت بذاكرتها وما يصلها من أخبار الأيزيديات في جبل سنجار ومصير أهلها جعلها ناقمة على كل شيء. تركت بيتها وذكرياتها. تعرضت لانتهاك صارخ صدر من وحي التاريخ.

في الليل كانت أمل تشاهد العوائل التي افترشت الأرض والشوارع لتنام ليلتها هرباً من بطش داعش وهي تفكر في والدها سليمان. أين هو الآن؟ ما الذي حل به في هذه الساعات العصيبة؟ حاولت أن تغمض عينيها، لكنها لم تستطع. شاهدت رجلاً مسناً تجاوز السبعين عاماً. يضع رأسه على حجر كبير بغية النوم. الأمهات يحاولن هدهدة أطفالهن كي يناموا. لكن البكاء يعلو. سألت إحداهن:

- من أين جئتم؟

قالت لها المرأة وهي تحاول إرضاع طفلها:

- من القوش[1].

ردت أمل عليها:

- لماذا لم تذهبوا إلى الكنيسة هناك؟

ابتسمت المرأة ثم قالت:

- راعي الكنيسة لم يستقبلنا. أغلق الأبواب. أعلن عن عدم مسؤوليته عن أحد، وطلب منا الابتعاد عن الكنيسة.

استغربت أمل من إجابة هذه المرأة البريئة بردودها. قالت لها:

---

(١) ناحية في سهل نينوى ذات غالبية مسيحيَّة.

- هؤلاء رجال الدين في الشدائد يتناسون الرب، وفي الرخاء يذكروننا فيه.

في الجهة الأخرى كان يجتمع بعض الشباب على مذياع صغير. يصغون إلى الأخبار التي تبثها إحدى المحطات حول تقدم داعش السريع وسقوط المدن واحدة تلو الأخرى كقطع الدومينو. تتهاوى قطعة تلو أخرى. خبر آخر يصدح عن تقدم هذا التنظيم إلى أربيل. في الجهة الأخرى كان يغلب النعاس على عيني أمل في الساعة الرابعة فجراً. في ساعة الفجر هبَّ نسيم عليل على المكان. جعل الجميع يهمد إلى النوم مع أصوات سعال تأتي بين فترة وأخرى من هنا وهناك.

في الصباح ينهض النازحون الهاربون لتكملة المسيرة الراجلة نحو مدينة دهوك. ازدادت أعداد الراجلين، إذ وصلت ليلاً أفواجٌ إضافية أخرى من الهاربين. أسطول عظيم من السيارات بأنواعها والجرارات الزراعية تحمل شعب البرية هذا. ثمة رجل مقعد على عربة تسحبه زوجته بحبل مربوط على خصرها. يسيرون وهم لا يعرفون ما ينتظرهم في دهوك، التي ليس لهم فيها معارف أو أقارب. ليس سوى المدارس والحدائق يسكنون فيها. آخرون استقروا في هياكل المباني تحت الإنشاء. شعب قدَّر الله له التشرد والهجرة الدائمة، عبر تاريخه الطويل المحمل بالمآسي.

قضت عائلة سليمان ليلتها الثانية في أحد الهياكل، والتي أعدت كمشروع شقق. كانت هدى وأمل تعملان ستارة تفصلهما عن بقية العوائل.

في الصباح التالي لعائلة سليمان المنكوبة هبُّوا إلى فندق ديانا. كان إيجار الغرفة ١٠٠ ألف دينار. مبلغ مضاعف لأكثر من مرة. وفي الطابق الثالث استقرت العائلة في غرفة مكعبة صغيرة. حتى ممرات

الطوابق تكتظ بالنازحين بعد ترك الغرف للنساء والأطفال فقط.

استمر هذا الحال لمدة شهر. كانت مسألة الاستمرار للسكن في هذا الفندق غاية في الصعوبة. لأسباب عدة، منها نفاد المبالغ التي أودعها سليمان لزوجته، كما أن ضيق المكان أحدث كآبة لدى البنتين. في غرفة لا تتجاوز ثلاثة أمتار تخنق من فيها رويداً رويداً. حتى بدأت الحياة ترمي بظلها الأسود الداكن عليهن.

سمعت أمل من إحدى النساء في الفندق حديثاً متكرراً، بأن بعض الأهالي انتقلوا إلى المدارس وأن السكن في هذه المدارس بمساحاتها الرحبة من دون تكلفة مادية. هناك بعض المدارس فارغة خاصة بسبب موسم الصيف والعطلة الصيفية. على أمل أن تحل الأزمة أو تنتهي بانتحار جماعي. فقررت عائلة سليمان ترك فندق ديانا والبحث عن إحدى المدارس للعيش فيها.

١٠

في هـذه الأجـواء المشـحونة بالخـوف أكمل سـليمان وزيـاد جولتهما في بعشـيقة. جولـة انتهـت عنـد دكان جمـيل صديقهـما. ففـي صـباح يـوم ٨/ ٨/ ٢٠١٤ وفي تمـام السـاعة الخامسـة فجـراً، خيَّـم الهـدوء مـن جديد على شـوارع وأزقـة بعشـيقة وبحـزاني، مدينـة موحشـة لا حركـة فيها، لا صـوت يسـمع بـين أزقتهـا، خلـت تلـك المدينـة العامـرة من أهلهـا، بدت خالية حتى من الطيور والعصافير وكأنه الهدوء المرتقب قبيل العاصفة.

غـطّ الثلاثـة في نـوم عميـق، بعـد أن لعبت الخمرة لعبتهـا معهم طوال ليلـة البارحـة. جلسـة الخمـرة كانت ثقيلـة، مثقلة بالنقاشـات والأحداث ومـآل الوضـع المزري الذي لحـق بمدينتهم. أغلـق الدكان وتمـدد الثلاثة بحثـاً عـن سـاعة صحـو في النهـار. لكـن صـوت الرمـي بـدأ متقطعـاً ثـم تضاعـف ولعلـع صـوت الإطلاقات مـن كل الجهات في المدينـة الفارغة، الأمـر الـذي أزعجهـم وحـال دون النـوم. ثمـة لغـط وأصـوات وكلام بعيد وصياح بات يقترب منهم. تهشم زجاج صمت المدينة الفارغة.

فـز الثلاثـة مرعوبـين مـن تخالـط أصـوات الرمـي والهمهـمات، قفـز جميـل ورديـة إلى النافـذة المطلـة عـلى الشـارع العـام ليعـرف مـا يحـدث بالضبـط. حـدَّق في الشـارع، وقـد شـاهد قافلـة مـن السـيارات الرباعيـة الدفـع. سـيارات حديثـة بيضـاء اللـون نـوع بيـك آب تجـوب شـوارع بعشـيقة. قـال لهـما: "أكثـر مـن خمسـين سـيارة. تحمـل اثنـين أو أكثـر مـن

الرجال يرتدون الملابس السوداء ومدججين بالسلاح، وحاملين الرايات السود. رايات خُطّ عليها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وتحتها خُطّ (الدولة الإسلامية في العراق والشام)."

وقفت السيارات على طول الشارع حيث بدأت الصيحات ترتفع من مكبرات الصوت، صاح أحدهم: (الله أكبر، الله أكبر) مع إطلاقات نار كثيفة. بعد مدة من الوقت شرعت السيارات مسيرها للأمام متجهة الى الجامع وسط المدنية .

انتابت "جميل وردية" علامات الذعر. التفت إلى صديقيه اللذين بديا متسمِّرين في فراشهما وعيونهما مفتوحة بشكل لا يخلو من الخوف والتساؤل، وما زال تأثير السهر والخمر بادياً على وجيهيهما. هنا قال وردية: " إخوان انهضا بسرعة. خبر سيِّئ. داعش دخلت الضيعة والأمر أصبح جديّاً."

قال زياد الذي نهض من فراشه وكان أكثرهم خوفاً وتوتراً: "ماذا سنفعل يا سليمان؟"

رد سليمان الذي كان أكثرهم حكمة وهدوءاً: "سننتظر ما يحدث، من المؤكد أنهم لن يبقوا ولن يستمروا في المنطقة، لا بدَّ أن يكون هناك تحرك لإخراجهم أو هربهم"، واستدرك قائلاً: "لم نكن نتوقع جدية دخولهم" ولكن عاد وطمأنهم قائلاً: "إذا ما استمر الوضع على هذه الحال، فنحن نعرف بمنطقتنا وأزقتها وسنرتب خطة للنجاة والخروج من المنطقة. وعموماً فمن السابق لأوانه الحكم على ما سيكون عليه الوضع. ربما قد لا يستمر وجودهم كثيراً وتعود الأمور إلى ما كانت عليه سابقاً. وربما سيتم مقاومتهم من الجبل مع القوات العسكرية هناك".

تحدث بهدوء وتفاؤل عجيب على الرغم من فزع صديقيه، وعلى

الرغم من عدم قناعته بما قاله عن الجبل والقوات العسكرية. لكنه كان يرغب في إشاعة القوة والصبر فيهما. ردَّ جميل قائلاً في موقف مفاجئ: " أنا مع أن يبقى وضعنا على ما هو عليه الآن. لن نعلن عن وجودنا هنا. ولدينا من الطعام والشراب ما يكفي لمدة شهر تقريباً. بالإضافة إلى أن لدينا موبايلات نستطيع طمأنة عوائلنا. على أن يكون تحركنا محدوداً في الليل فقط. مع عدم الأفراط بالشراب. حتى نكون في حالة صحو ومتنبهين لكل طارئ."

اتفق الثلاثة على مقترحات سليمان ووردية واعتبروها قاعدة عمل يلتزمون بها لخلاصهم من هذه المحنة. مدَّ الثلاثة أكفهم لتتشابك للإيفاء بما اتفقوا عليه، على الرغم من اختلاف طبائعهم وتوجهاتهم، لكنهم ينتمون لجيل واحد عاصروا تقلبات المنطقة وأحداثها، ثم إنهم هضموا فكرة تاريخهم بإيحاء من ذاكرة واحدة. بالإضافة إلى صداقة عمر طويل تمتد من أيام الطفولة. فهم أولاد محلة واحدة في السوق القديم بالإضافة إلى أنهم في السنين الأخيرة كانوا دائمي الجلوس والشرب في نادي الجبل على مدارج جبل بعشيقة، على الرغم من اختلاف أفكارهم وانتماءاتهم فقد جمعتهم الأفكار التي تصب في نهر واحد.

استمر مكوثهم في دكان جميل المغلق في الأيام الأولى بهدوء، وفي أحد أيام الجمع التالية سمعوا صوتاً يعلو من مكبر الصوت في جامع الفاروق ينادي على الناس بالتجمع فوراً. كان الاعتقاد أن من بقي في المنطقة هم من المسلمين. لا سيما أن عدداً كبيراً منهم خرج من المدينة أسوة بالأيزيدية والمسيحيين. وهم يعرفون أن ثمة بشراً ما زالوا في المدينة. بقي عدد لا بأس به. امتثل بعضهم للنداء.

حضر الناس إلى خطبة الجمعة لتنظيم داعش الذي حرَّضهم فيها على محاربة الكفار والجهاد في سبيل الله. ذكر أيضاً في عرض خطبته

المجلجلة أنه يحمد الله كثيراً على مزيد من نعمائه بتطهير رجال الخليفة وجنود الدولة الإسلامية بعشيقةَ وبحزاني، بعدما كانت مدينة مشركين وكفار من نصارى وأيزيديين.

ثم عرج الخطيب على نقطة مثيرة لأصدقاء الدكان المغلق: "سيبدأ جنود التنظيم بتطهير المنطقة بيتاً بيتاً. وتطهير المنطقة من كل رموز الشرك والكفر من المعابد والكنائس من خلال تفجيرها وهدمها، أما البيوت فهي غنائم للمجاهدين ستمنح كل محلة إلى مجموعة من المجاهدين غنيمة من أموال وذهب وفضة وحاجيات أخرى."

كان العم بلال أحد الحاضرين لخطبة الجمعة، ولم تعجبه لغة الخطيب وحدَّتُها وتطرُّفُه القاتل. جلس العم بلال إلى جانبه أحمد الذي بدا كأنه يلقن الخطيب بتفاصيل عن المنطقة. وبعدها أخذ أحمد الكلمة وأكد ما قاله شرعي التنظيم في المنطقة: "إننا اليوم نحمد الله ونشكره، فقد تخلصنا من الكفار والمشركين. الآن يتوجَّب علينا إقامة مشروع دولتنا الإسلامية الكبرى."

تبدلت هيأة أحمد كثيراً. لحيته غدت كثيفة ومتدلية حتى أصبح كالخنفساء عندما حلق شاربه وارتدى ثيابهم واضعاً شعار التنظيم على صدره.

حاول العم بلال الصابونچي أن يدلي برأيه بعد انتهاء الخطبة. قائلاً: "غريب ما تتكلمون فيه. الإسلام لا يفتي بذلك. نحن في الضيعة عشنا مع الأيزيديين والمسيحيين من سنين طويلة. تربينا معاً وفي بيوتهم نزورهم ويزوروننا في الأفراح والأحزان. فكيف لنا أن نتعامل معهم وننظر إليهم بكل ما تقولون؟"

قاطعه أحمد قائلاً: "حجي بلال لا مجال للمناقشة. علاقاتك معهم كانت مبنية على المصالح فقط."

فردَّ عليه قائلاً: "أي مصالح تتحدث عنها؟ هؤلاء أهلنا على مد التاريخ."

صرخ أحمد بقوة بوجه العم بلال وأمام الحاضرين: "نحن هنا من يقرر. عليك الطاعة أو وللسيف الفصل بيننا."

صُدم الناس جميعاً من حدة الخطاب. من أحمد وسلوكه مع الرجل الوقور العم بلال. لكنهم تجرَّعوا الصمت، خاصة أن المسجد كان يحيطه عناصر من التنظيم مدججين بالسلاح. وقبل أن يختتم صلاة الجمعة تقدم أحمد من الميكروفون، قائلاً: "عليكم أن تبايعوا الخليفة أبا بكر البغدادي. وإذا ما عثرنا على أي مشرك يندس بينكم أو كافر أو مرتدٍّ في كل أرجاء المنطقة، فجزاؤه القتل أو ما يقرره الشرع والمحكمة الشرعية. عليكم التبليغ عن كل مندس بينكم. ومن الآن فصاعداً بيتوهم حلال لكم؛ هذا والسلام."

خرج العم بلال من الصلاة رافضاً كل ما قيل. سمع سليمان بعضاً من الخطبة من زاويته في أثناء ما كان يجلس على سطح بيت جميل منبطحاً على الأرض ومتوارياً. كان يحاول إجراء اتصال بالموبايل مع زوجته هدى.

نزل من السطح وقال لهم: "علينا يا رفاق استبدال المكان فوراً، لأن الدواعش سيبحثون عن من بقي من المنطقة. وسيكون البحث عن الأيزيدية والمسيحيين الموجودين في المنطقة. يبدو أنه لديهم معلومات واردة عن وجود عدد من غير المسلمين في المنطقة. هذا ما سمعته من خطيبهم."

جلس الثلاثة يتناولون الغداء يستذكرون أيام الجمّع التي كانت بالنسبة إليهم أيام أنس وفرح فيما مضى. يخرجون إلى البساتين الخضر أو يرتقون إلى قمة جبل بعشيقة. إذ تزدحم القمة والسفح بالناس. كان

زياد ذا عاطفة جياشة ومتسرعًا في تصرفاته. شرع في البكاء في أثناء تناول الطعام. هم يعرفون قدر الورطة التي وقعوا فيها. الخروج مسألة معقدة مع انتشار جنود التنظيم من العرب والأجانب.

حاول سليمان تهدئة زياد. قائلاً: "هي فترة مؤقتة وسنجتازها بعون الله. نستطيع الهرب من المنطقة في الليل عبر الجبل. لا تهتم فقط مسألة وقت واترك الأمور لترتيبي. علينا الآن أن نفكر بطريقة للخروج من هنا من دون أن يشعر أحد من عناصر التنظيم بنا، حتى الموجودين في المنطقة."

ثم استدرك سليمان قائلاً: "أقترح أن نخرج الساعة الثانية عشرة بعد منتصف هذه الليلة. سنذهب إلى أحد البيوت القريبة من الجبل. هناك سنكون في موقع استراتيجي؛ أولاً لقربنا من الجبل من جهة ومن المدينة من جهة أخرى. ثانياً سنكون قريبين من السوق العصري أيضاً، وهذا يسهل علينا التحرك عبر السراديب الأرضية، فالبيوت متلاصقة مع بعضها وتربطنا من وسط المدينة حتى الجبل في أزقتها وأسطح منازلها وسراديبها، ومن خلالها سيسهل علينا التحرك في عموم السوق القديم والتخفي في حالة الضرورة. كذلك سيسهل علينا الوصول إلى الأسواق في وسط المدينة التي ممكن أن تنفعنا في تلبية احتياجاتنا من الطعام والشراب. اقترح سليمان أن يكون مقرهم التالي بيت "راحيل أم يونان". هو بيت لأحد المسيحيين فوق نهاية السوق العصري. يتوسط المنطقة ما بين السوق وبالقرب من الطريق المؤدي إلى مزار "ملك ميران" حيث الجبل. يقع البيت الصغير في مقدمة زقاق طويل ينحدر إلى أسفل الطريق الذي يربط في مناطق تسهل الحركة سواء للجبل أو السوق. كان هذا البيت قد أوصى به "أبو يونان" لزوجته راحيل التي جاءت من بحزاني بسبب مشاكل مع

حميها. تعرضت لاضطهاد المسيحيين في بعشيقة بسبب خلافها مع عائلة زوجها، ولم يتقبَّلوا سكنها في محلاتهم قرب الكنيسة، مما اضطرها الحال للسكن قرب السوق العصري مع الأيزيديين، أخذت من طباعهم وصادقت نساءهم، فكانت قريبة لهم بكل شيء، حتى أنها لم تكن تأكل الخس تضامناً مع صديقتها الخالة حسنة، عاش ابنها يونان وتربَّى وسط الأيزيديين هو أيضاً.

كان لصداقة سليمان مع يونان السبب في وقوع اختياره على هذا البيت الذي كان يعرف كل تفاصيله وطرق التخفي فيه. يعده مكاناً آمناً لكثرة السراديب التي تنتهي بالأزقة، إذ استخدمها مع صديقه يونان في أيام هربهم من الخدمة العسكرية، حيث كانوا يتخفون داخل السراديب من دوريات الشرطة.

استعد الثلاثة للانتقال إلى المكان الجديد بعد أن جمعوا من علب الطعام والسجائر وقناني العرق والويسكي والخبز والصمون. قرروا الخروج في الساعة الثانية عشرة ليلاً، بعد التأكد من خلوِّ الشارع من دوريات داعش التي بدأت تنتشر في المنطقة كل مساء.

فتح جميل الباب وراح يتفقد الشارع من اليمين إلى اليسار. لم يجد ما يثيره. رجع وأغلق الباب وطلب منهم الاستعداد للخروج على أن يكون خروجهم بشكل انفرادي. فتح جميل الباب فسمع صوت سيارة تجوب الشارع ببطء. عاد وقفل الباب وانتظر غيابها. رسم سليمان خريطة الطريق إلى بيت راحيل أم يونان، قائلاً: "سيكون خروجنا من هنا إلى الزقاق المقابل لبيت العم جوري. ننعطف إلى جهة اليسار من السوق ونستمر فيه حتى نصل إلى ساحة ملك ميران القديمة. بعدها مباشرة نصعد إلى بيت راحيل."

اتفقوا على خريطة الطريق، ثم قام جميل بفتح باب الدكان. حمل

على كتفه المؤن وقفز إلى الشارع وتبعه سليمان وبعدها سار زياد في أثرهما. استمروا في السير وفق خريطة الطريق بكل هدوء، لا يعيقهم أي عائق. كان الظلام دامساً والشوارع فارغة والأزقة موحشة. حتى وصلوا سالمين إلى بيت أم يونان.

كان الباب مغلقاً بإحكام. حاولوا فتحه لكن من دون فائدة. تسلق زياد من الحائط المجاور ونزل إلى الحديقة حتى وصل إلى الباب الرئيس وفتحه. دخلوا إلى السرداب "الرهره"[1].

أوقدوا فتيلة الفانوس ليتفقدوا المكان. أنير المكان فبان المنزل والغرف والسرداب، وكأن المنزل تُرك للتو.

راح سليمان يتذكر ما حصل قبل عشرين سنة. هذه صورة "أبي يونان" بلباسه القديم وغطرته البيضاء المرقطة باللون الأزرق وعقاله الأسود وشاربه الكث. حليق اللحية بملامح صارمة وقاسية بدت على وجهه، وإلى جانبه في الصورة "خالي راحيل" واقفة بثقة بملابسها الآشورية القديمة تشد عصابة قماش ملون على رأسها وملابسها الملونة ومئزرها الأحمر الذي يغطي جسدها وكأنه وشاح تكريم وضع بأناقة على صدرها. في المكان ذاته ثمة صليب خشبي معلق تتدلى منه مسبحة صفراء كهرمان. هي ذاتها مسبحة العم أبي يونان - رحمه الله- . ثمة صورة أخرى عُلّقت لمريم العذراء بوجهها الجميل، وهي تنظر بحنان إلى الطفل يسوع في المهد.

***

استمرت الأيام السود، كما هي، ففي كل يوم جمعة يصعدون إلى سطح الدار للاستماع إلى خطبة الجمعة والتوجيهات التي يلقنها

---

(١) في اللغة العربية الرهره (المكان الواسع والقريب من الأرض) وهي عبارة عن سراديب كانت تبنى قديماً تحت البيوت للوقاية من حرارة الصيف وخزن المؤن.

الخطيب إلى الأهالي. يحاول بالشدة والعقاب إثارة الرعب فيهم. بعد كل خطبة تصلهم خطط الدواعش المقبلة. يزودون بالتيار الكهربائي ساعتين في اليوم الواحد. كانت كافية لشحن الهواتف والاستماع إلى مستجدات الأخبار، لكن الطعام والشراب بدأ بالتناقص. يتكفل سليمان وجميل بالذهاب ليلاً لأحد الدكاكين من أجل البحث والتزوّد بالطعام. قررا ذات يوم النزول عبر السراديب الأرضية، لكنهما تفاجآ من حجم الدمار والسرقات التي لحقت بمعظم المحال. قطط كثيرة وكلاب تجوب الأسواق بحثاً عن الطعام، بدت الضيعة كأنها قد أصيبت بالطاعون، فالشارع بدا ممتلئاً بالحاجيات التي تم إخراجها من المنازل والمحلات ووضعت في الشوارع لتسرق وتباع بعد حين. استمرا في البحث ليلاً عن الطعام في الأسواق. لم يعثرا سوى على فتات الأكل المتناثر. يقلّبان في أجواف الدكاكين المشرعة حتى عثرا على بعض المعلبات والمخللات فقط.

ذهب جميل إلى محله محاولاً أن يأخذ معه قليلاً من المشروب. تفاجأ أن دكانه محروق، لكنهما استطاعا العثور على قنينتين من الويسكي.

عاد سليمان وجميل إلى مقرهم الجديد. في الطريق سمعا صوت أقدام غريبة تأتي بالقرب من أحد الدكاكين القريبة من السوق وهمهمات هامسة. شعرا بالخوف. لاذا بالالتصاق مع الحيطان كي لا يراهما أحد. اقتربا أكثر من تلة نُفايات كانت قريبة، فإذا بـ "كمال المجنون" يفتش عن طعام بين النُّفايات تشاركه القطط والكلاب.

تألم سليمان لهول المنظر. كان "كمال برو" أحد خريجي التربية الرياضية. وهو أيضا ربّاع حصل على ميداليات وكؤوس. في الموصل تمَّ تكريمه من قبل المحافظ لمرات كُثر. وفي أيام غزو الكويت كان يخدم في قاطع السليمانية كجندي مكلف في مديرية الأمن، بعد قيام

الكرد بأنتفاضتهم على نظام صدام سنة ١٩٩١. ألقوا القبض على كل من عمل أو تعاون مع النظام وتعاملوا معهم بقسوة شديدة، وصلت لقتلهم ورميهم من فوق المباني العالية، ومن ضمنهم كمال. أشبعوه ضرباً على رأسه بأخمص البنادق. له جسم ضخم جعلهم يعتقدون بأنه في بادئ الأمر عميلٌ أو ضابطُ أمن. في نهاية المطاف أطلقوا سراحه وعاد إلى منزله في بعشيقة.

بعد سنوات بدأت تظهر عليه نوبات صرع تحولت إلى جنون مطبق. طلقته زوجته التي لم ينجب منها فاضطر العيش مع إخوته. يقضي أغلب أوقاته تائهاً في الشوارع، لكن أهالي المنطقة كانوا يتعاطفون معه ويقدمون له الطعام والشراب. وبعد دخول داعش تركه أهله وإخوته وحيداً في المنزل فلم يصحبوه معهم. تركوا له القليل من الزاد. وعندما نفد منه الطعام ذهب إلى المزابل في كل ليلة. لم يقتله التنظيم لجنونه، لكنهم تركوه تائهاً في الشوارع. وحذَّروا الأهالي من مساعدته بطعام أو شراب حتى أنهم علقوا على صدره لافتة كتب عليها: "من يساعده بطعام أو شراب يقتل. التوقيع تنظيم الدولة الإسلامية قاطع بعشيقة."

تألم جميل وسليمان لما شاهداه، وما وصل إليه حال كمال. فتقرَّبا منه ورميا له بعض المعلبات ثم تركاه وذهبا في طريقهما إلى بيتهم البديل في رهرهة أم يونان.

١١

كانت مدرسة كولستان التي بنيت حديثاً، والواقعة في أطراف مدينة دهوك، تتكون من عشر غرف مع ملحق بحمامين مشتركين، بالإضافة إلى قاعة اجتماعات، تلك التي تكدَّس فيها النازحون الهاربون من بطش داعش، ومن مناطق عراقية مختلفة، ومن دول أخرى. مثل عائلة بيت "محيو" وهي عائلة أيزيدية من منطقة عفرين في سوريا. قامت الجماعات المتطرفة بتهجيرها بعدما قتلوا أكثر من نصف أهالي القرية، كما قاموا بهدم معابدهم وحرق منازلهم بعد نهبها. هناك شجرة بلوط مباركة في عفرين يتبرك بها الأيزيديون قاموا بقطعها، بوصفها رمزاً من رموز الشرك، مثلما ورد في بيان التنظيم الإرهابي هناك. على إثر ذلك هاجرت العائلة مع عوائل كثيرة فدخلت إلى دهوك ثم سكنت في مدرسة كولستان.

كان السكن في المدارس مخصصا للنازحين والمهجرين. خطوة لا تحمّلهم أعباء دفع الإيجار، كما أنها تستوعب أي عدد ممكن.

انتقلت هدى وابنتاها إلى المدرسة حاملات معهن حاجياتهن الأساسية من أغطية وفرش نوم وملابس وطباخ ومذياع صغير. استطاعت نقل كل هذه الحاجيات على مراحل بمساعدة أحد الأقارب لديه سيارة حمل مخصصة لهذا الغرض.

يتطلب الوصول إلى المدرسة أن تمر ببستان الخوخ المحاذي للجبل،

ومجموعة من أشجار الجوز والسنديان ومنازل نحتت في عمق الجبل. تبعد المدرسة ما يقارب مسير نصف ساعة من السوق.

في أثناء اقترابهم من المدرسة محملين بالحاجيات الأساسية استوقفهم الأطفال الذين يلعبون الكرة في الباحة الأمامية للمدرسة. فبادرت أمل بسؤال أحد الأطفال. فجاء يلهث من الركض. تقرب إلى النافذة وسألته عن المسؤول عن السكن في المدرسة. أشار بيده إلى السيد (أوديشو زكا) مدير المدرسة. رجل آشوري من قضاء سميل في دهوك. قصير القامة أصلع الرأس بنظارة سميكة الزجاج، وله سالف طويل أشيب. كان الرجل واقفاً بين جمع من الناس متجمهرين حوله. وفي خضم هذه الفوضى وهو يحاول طمأنتهم وإرشادهم، وعلى ضرورة الاهتمام ببناية المدرسة الحديثة.

استقبل عائلة سليمان وكان ممتعضاً حانقاً لكثرة النازحين. قال:

- أهلاً وسهلاً تفضلوا.

تحدثت أمل معه بلباقة وهدوء:

- أستاذ نحن أيزيديون من بعشيقة. تهجّرنا كما ترى من مناطقنا، خوفاً من وحوش داعش. كنا نسكن في فندق وسط دهوك. واليوم لم يعد لدينا ما يعيلنا للاستمرار في السكن في هذا الفندق وتكاليفه باهظة علينا. هذه أمي امرأة متعبة وأبي ما زال مصيره معلقاً لدى تنظيم داعش. لم يعد إلى الآن. ونحن كما ترى من غير معيل. نلتمس منكم أن نبقى هنا فترة الصيف عسى أن تحل الأمور.

دهش المعلم أوديشو بجمال أمل وأسلوبها في الكلام وأسرَّه حديثُها. فتراجع عن القرار الذي كان من الممكن أن يتخذه في منعهم من السكن، لا سيما وأنه طرد قبلهم عائلتين بحجة امتلاء المدرسة. فقال لها:

- يا ابنتي أنا مسؤول عن هذه المدرسة صحيح ولكنها ليست مكاناً للسكن. إذا ما حلَّ موعد العام الدراسي المقبل، ماذا سيكون مصيركم؟ كما أن الكثير من الموجودين فيها الآن عاثوا فيها خراباً وقذارة. وهذه مسؤوليتي. أنا لا أستطيع ردعهم، فهم أهلنا ويذكرني مصيرهم بمذبحة الآشوريين وكيف هُجِّرنا من مناطقنا حيث كنا صغاراً حينها. سأسمح لكم بالبقاء في القاعة الكبيرة لأن بقية الغرف مأهولة بعوائل نازحة أخرى. عليكم الاهتمام بالتنظيف يومياً وهو شرط البقاء هنا.

ردت أمل عليه:

- شكرا لكم أستاذ. سنكون عند حسن ظنكم.

دخلت عائلة سليمان إلى المدرسة. توجهوا فوراً إلى القاعة الطويلة ببابين وأربعة شبابيك. عُلِّقت على حيطانها صورٌ لمناظر جميلة من كردستان. يتوسطها سبورة بيضاء وأمامها تكدست العديد من الكراسي.

كانت تسكن في تلك القاعة عشر عوائل. قطعت القاعة بحواجز من قماش تفصل بين عائلة وأخرى.

عملت أمل وأمها على إنزال حاجياتهم في القاعة. استطاعوا أن يحصلوا على فسحة مكان للمعيشة به. إذ كانت أغلب العوائل قد قدمت من مناطق أيزيدية مختلفة. كان أغلبها من سنجار وبعشيقة وبحزاني وعدد من العوائل القادمة من سوريا.

الحياة في المدرسة صعبة في بدايتها، فالنساء تستمر بالحديث لما بعد منتصف الليل، وفي النهار ينهض الصغار مبكراً، الحمامات مشتركة وقذرة. الأمر الذي يزيد من هيجان السيد أوديشو في صراخ يومي دائم. لعائلة سليمان مذياع صغير يستمعون منه إلى الأخبار.

في ساعة الفجر الأولى تدبُّ الحركة ويزداد الكلام. بعض الرجال كانوا يأتون في منتصف الليل كما كان يفعل ماجد زوج ساهرة؛ تلك المرأة الثرثارة، التي لم تكفَّ ساعة عن الحديث ليلاً ونهاراً. تبثُّ الإشاعات وتضخِّم من الأحداث. زوجها ماجد كثير الخروج من المنزل، يتخلَّص منها بالهرب من القاعة، لعدم قدرته على البقاء محصوراً بين جدران القماش التي صنعها لعائلته. حتى في أثناء الليل عندما يأتي متأخراً كان يستحين الفرصة ليختلي بزوجته في هذا الوضع المشين. يستغل نوم الأولاد ونوم سكان القاعة. يقترب منها ولكن ثرثرتها المعتادة كانت تنعكس في جماعها أيضاً. كان صوت الآهات والتنهُّدات والهمهمات تصل إلى سكان القاعة. تسمعها أمل وتبتسم لكلماته التي يتفوه بها وهو يعاشر زوجته بكلمات بذيئة من خياله الجنسي الشبق والممزوج بما فعلته الخمرة الرديئة التي يعبُّها في جوفه.

ساهرة وزوجها هاجروا من الضيعة قبل دخول داعش. كانت العائلة تسكن في تلك الأزقة القديمة. ساهرة لديها معرفة بهدى زوجة سليمان، ولكن غيرتها وثرثرتها كانت تجعلها تنسج الحكايات على كل من في المدرسة، أو التذمر من الوضع الحالي في الحديث عن داعش وتحليلاتها الساذجة ومبالغتها في مغادرتها منزلها وترك كل ما فيه، ولأن هدى وبناتها من النوع الذي لا يرغب في الاحتكاك داخل القاعة، لذا كانت ساهرة تعمل على بث الإشاعات على سليمان. إذ تقول عنه إنه أحد الذين اشتركوا مع داعش، بعدما اعتنق الإسلام!! وأحياناً كانت تؤكد بوجود معلومات على قتله من قبلهم بعد أيام من دخولهم للمنطقة!!

كان هذا الحديث يصل من خلال نساء القاعة إلى أمل ووالدتها، يثير فيهما الحزن والحسرة. ذات يوم دخلت أمل ورأت ساهرة تتحدث

بدات الموضوع عن أبيها وأمام نسوة نازحات في وسط القاعة: "هناك بعض من يسكنون معنا هنا يعتقدون أنفسهم نازحين يدّعون الهرب من داعش في حين، أن أزواجهنّ يعملون مع داعش. بل وصالني أنهم تخلّوا عن ديانتهم ونكروا أصلها."

أثارت هذه الحكايات الملفقة أمل فدبّ بها الغضب. ركضت باتجاه المرأة وضربتها على وجهها بكيس البطاطس. انهالت بالضرب عليها. مسكتها من شعرها الأشعث وقطعته بأيديها. حاولت بعض النساء أن يبعدوها فلم يستطعن، لأنها وضعتها تحتها، وانهالت عليها بالضرب المبرّح قائلة لها:

- أبي رجل يدافع عن أرضه ومدينته. أبي متمسك بهويته، وليس مثل زوجك السكير الذي يقفز عليك كل ليلة كالمراهقين. كل من في القاعة يعرف قذارتكما الجنسية.

استطاعت النساء أخيراً من تخليص ساهرة، كانت أمل على الرغم من رقتها وأنوثتها الطاغية، لكنها كاللبوة الجريحة.

لم تكن الحياة سهلة بالنسبة لعائلة سليمان داخل القاعة. فغسل الحمامات والمرافق وتنظيف القاعة كان بحسب برنامج أعده الأهالي ووافق عليه السيد أوديشو الذي كان يهدّدهم كعادته بأن وجودهم مؤقت مع بداية العام الدراسي.

١٢

في صباح أحد الأيام سمع سليمان وصاحباه أصواتًا قريبة منهم. بدا لهم أنه صوت جرَّار. صعدوا إلى السطح بهدوء فإذا بمجموعة من عناصر التنظيم يتقدمهم ستة أشخاص ملثمين بالسواد أحدهم يحمل رايتهم السوداء. كانوا مدججين بالسلاح. يتقدمهم شفل جرَّار وضع عليه راية داعش السوداء. صعدوا إلى أعلى المحلة بالقرب من مزار "ملك ميران". يقتادون معهم امرأة مسنة بملابس أيزيدية قديمة. أصيب سليمان بالدهشة لقساوتهم. قال لهما: " سأذهب لأعرف ماذا يفعلون؟ ومن هذه المرأة التي معهم؟" حاولوا منعه ولكنه أصرَّ فخرج متخفِّياً ما بين الأسطح والأزقة حتى وصل إلى بيت أبي سرحان. شاهد من فتحة الحائط القريب عناصر التنظيم.

في البداية جاء ستة منهم يقتادون امرأة عجوزاً لا تقوى على الحركة. تمعَّن سليمان بمن تكون هذه المرأة؟

إنها ذات الملامح التي يعرفها. ذات الزي الذي ترتديه يشعُّ بياضاً. كانت تسير بذات الخطوات المتثاقلة التي حفظها عنها. وإذا بها خالة حسنة. تألم كثيراً، حاول أن يصرخ، حاول أن يفعل أي شيء لنجدتها من قبضتهم. لكن الحكمة كانت مطلوبة في تلك الأوقات العصيبة، فتريث قليلاً. هي خياره الوحيد في تلك اللحظات.

أخذ عناصر التنظيم المرأة العجوز إلى الباحة وأمر أميرهم بربطها إلى أحد أعمدة المزار وأوثقوا من ربطها بالحبل. تقدم أحد رجالهم وكان قصير القامة فسحبها من شعرها المنفوش الأبيض بقوة إلى الأرض فخرت سريعاً. الخالة حسنة ترتبط بتاريخ من الذكريات مع سليمان لما تمثله من ذاكرة حية لتاريخ بعشيقة وبحزاني. حاولت النهوض فركلها أحدهم بقدمه.

صاح بصوت عال: "عجوز كافرة".

نظرت إليه، وقالت له:

- الله يسامحك يا ابني.
- أنا لست ابنك. ولا أتشرف بالانتساب لكم. تقولين الله يسامحك. وهل حضرتك تعرفين الله؟ أمثالكم كفرة مارقون. لا تعرفون الله. تلبَّسكم الكفر والضلالة.
- وهل يحتاج الله لأن نعرفه؟ هو عرَّف نفسه بنفسه. أترى السماء الجميلة التي فوقك؟ والأشجار الخضراء وهذا المزار الذي تتبرك به الناس كلها صورٌ مجسدة لله. الله الذي نعرفه موجود في كل شيء؛ في صدق كلامنا، في سلوكنا، تعاملنا مع الناس، في الرحمة بقلوبنا، ومحبتنا لله لا تحتاج لممارسات وأساليب لكي تعرفه. يكفي أن يكون لك قلب نظيف بعيداً عن كل دنس أو شرور.
- اسكتي يا..... صايرة مؤمنة براسنا. وأنتِ الكفر ملأ كل جسدك وعقلك.

في هذه الحالة كررت الخالة حسنة بهدوء:

- سامحك الله يا ابني.....

قال لها أحدهم بالزي الأفغاني، بلحية سوداء كثة. بدا أنه الأمير فيما بينهم:

- ماذا تعرفين عن هذا المزار؟
- إنه مزار الملك ميران. أخدم فيه منذ طفولتي، ونذرت نفسي للعمل فيه. نعرف فيه الرب ونقدسه وفيه نساعد الفقراء وفي حضرته نتلو كلمات الشكر لله.
- إنه حجر. هل يعبد الله بحجر؟ قالها الأمير:
- إننا نعرف هو من الأحجار، لكن الإيمان هو اليقين بالشيء، هنا فيه أرواح، وأرواح مقدسة يكفي من خلاله أن نؤمن بالله، ولا نشرك فيه مطلقاً. كما تقول. ثم ماذا يعني الشرك لديك؟ هكذا نحن ندرك الله في عقولنا. لولا عقولنا ما عرفنا الله، ولولا قلوبنا ما خشينا منه جلَّت قدرته. أنتم لا تعترفون بهذا المزار، لكن الكثير من المسلمين يؤمنون في هذا المزار يزورونه ويتبركون به.

رد عليها الأمير بغضب:

- الخرف واضح عليك يا امرأة يا كافرة. أنت خرفة. لا يوجد في شرعنا أي مسلم يعتقد بعلامات الشرك هذه.
- هناك مسلمون ليسوا مثل أفكارك ونحن متعايشون معهم هنا منذ مئات السنين ونعيش بسلام.

كانت قوية متماسكة. تجادلهم ولا تهابهم. لأنها سعيدة بموتها في المزار، الذي طالما كرَّست نفسها لخدمته واستدركت وقالت لهم بصوت هادئ فيه نغمه ثقة وتماسك " جاءت إلى هذا المزار في يوم ما امرأة عاقر وطلبت من هذا المزار أن يهبها طفلاً. كانت مسلمة جاءت من الموصل على وفق نصيحة من أحد أصدقاء عائلتها". كانت خالة حسنة شهدت هذه الحادثة، "عندما نذرت الموصلية المسلمة أنها ستزور المرقد حين تحمل. بعد مرور ستة أشهر عادت وهي حامل. أوفت بالنذر الذي نذرته، بل استمرت بزيارة المزار كل عام وتقدِّم له النذور ".

ضحك الأمير عندما روت له هذه الحادثة. وضحك بعده جماعته. ثم قال:

- هذه المرأة بدأت تخرف وتكذب تريد أن نصدق خرافتها. مجنونة!

كان سليمان يحاول الإصغاء لحوارها معهم وهو في مكانه فوق سطح الدار ينظر اليهم من احدى زواياه المخفية. حتى قالت لهم:

- إن الحيوانات وحدها من لا تعرف حقيقة الله. لكن الله يعرف الذين يقتلون الناس باسمه لا يعرفون الله ولكن الله يعرفهم. سيعاقبهم ذات يوم. فلا أحد يقتل باسم الله ونيابة عنه. لأنه لا يرضى بقتل البشر باسمه ففي الله الخير كله والسلام كله.

كانت تتكلم بصوت قاطع أدحض حجتهم في طريقة الحكم. عجوز أميَّة بسيطة جعلتهم في حيرة من الرد عليها. مما أثار كلامها الجماعة. فضربها أحدهم ونزف الدم من أنفها. سالت الدماء على خديها ثم على قميصها الأبيض. لكنها بقيت متماسكة برأس مرفوع وغضب مما يحدث أمامها.

في كل هذا الحديث كان يترجم لهم أحدهم لغتها البسيطة من لهجة بعشيقة وبحزاني.

حيث نادى الأمير على "أبي عمر" قائلاً:

- ترجم لنا ما تقول.

فتح أبو عمر لثامه ليقوم بالمهمة بالقرب منها. فوجئت الخالة حسنة به:

- مجيد ابن بدرية. أنت صرت معهم. مع الأسف على أصلك. خنت أهلك ومدينتك ودينك.

حاول إسكاتها بالقوة. لكنه تباطأ قليلاً منتظرًا أمر الأمير. طلب

منه أن يترجم فقط.

ثم بادرها الأمير بالقول:

- هل يوجد أي خزائن داخل هذا المزار؟

- لا شيء مطلقاً. إنه مزار الفقراء من أصحاب الله. فلا يوجد مبالغ مالية أو ذهب. فقط ما ذكرته لكم. أنت ابن بدرية، ترجم هذا الكلام بدقة.

شعر سليمان بنقصان رجولته، بانعدام غيرته. تمنَّى لو كان معه سلاحٌ ليقتلهم ويقتل نفسه في النهاية. كان ينتابه الحزن العميق، وهو يشهد ما تعانيه هذه العجوز المؤمنة، مع صدمة الخونة من أمثال مجيد ابن بدرية. لم يكن يتوقع يوماً ما مع كل سفالته أن يكون منحطًا إلى هذا الدرك الوضيع.

في تلك اللحظة فقدت الخالة العجوز الوعي. سقط طربوشها (الفيز) بعد أن تدلى رأسها. لم يبق سوى يشارب أبيض نزل على كتفيها وانكشف شعرها الأبيض. أحاط بها رجال داعش وألغموها والمكان بالمتفجرات.

عندما شاهد سليمان هذا المنظر انسحب ببطء يحمل العزيمة والخذلان معاً. كأنه لا يرغب بمواصلة هذا المشهد المروِّع. قرر أن يبحث في أحد البيوت عن سلاح ليقتل مجيدًا أولاً. ذلك الخائن جرَّاء فعلته القذرة. كان يتوارى بين أسطح البيوت. يتنقل بخفة كي لا يكشف أمره، حتى وصل إلى بيت خالة راحيل وطرق الباب ففتح له زياد الباب.

كان وجهه مصفراً، ركض بسرعة إلى المغسلة وبدأ يتقيَّأ وهو يبكي بحرقة. قال لهما:

- افتحوا الشبابيك فوراً. سيتم تفجير المزار.

وفي أثناء حديثه هذا دوى صوت انفجار قوي. هزّ المكان وامتلأت الغرفة بالغبار والدخان. تهشم زجاج الشبابيك. ارتمى الثلاثة إلى الأرض. ازداد بكاء سليمان الذي تخيل صورة العجوز التي تناثرت أشلاؤها مع بقايا المزار.

بعدما هدأت العاصفة راح سليمان يسألهما:

- أريد سلاحاً الآن. أخذت على نفسي عهدا بقتل مجيد. نذل وخائن وجبان.

لم يستغرب جميل وزياد من حديث سليمان عن مجيد وما شاهده لكونه - أي مجيد - كان معروفاً في المنطقة بسلوكه وطباعه وكانوا يتوقعون منه ذلك، وربما أكثر.

مرت الأيام ثقيلة وكئيبة عليهم. مضى أكثر من شهر على وجودهم في هذا السجن. كان من الصعوبة بمكان أن يتخذوا أية فرصة للهرب، بسبب كثرة السيطرات التي أحكم طوقها الدواعش على المنطقة. المؤنة بدأت تشح. حتى تحركاتهم تقلصت كي لا يكشف أمرهم. دوريات الدواعش الراجلة وبالمركبات تجوب الشوارع وأحياء الضيعة كلها بشكل يومي. يفتشون ويسرقون منازل النازحين. بل كانوا يضعون ما يسرقونه في الساحات لبيعه للقادمين من تجار الخردة من الموصل.

ذات يوم خرج سليمان ليلاً متخفياً كالعادة للبحث في البيوت القريبة عن أي شيء يتم أكله. حتى وصل إلى السوق فشاهد جثة بدت عليها علامات التفسخ. كانت تنهش فيها الكلاب. من بقايا ملبسه عرف أنه كمال. المجنون الذي حاصروه ومنعوا عنه الطعام. ازداد قلقه مفكراً بمصيره. بعض البيوت تخرج منها روائح العفن والجثث المتفسخة. يتصاعد العفن من تفسخ جثث لرجال كبار ومعاقين

تركهم ذووهم وهربوا، كما حدث مع العم منير الذي تجاوز الثمانين عاماً. أقسم على البقاء ولم يخرج مع أولاده مصمماً على عدم ترك المدينة. وعندما علم فيه الدواعش منعوا عنه الطعام، كطريقة مبتكرة للقتل. كان يقوم العم بلال الصابونجي بالذهاب إليه ليلاً ليسقيه الماء البارد ويعطيه بعض الطعام. يجلس معه قليلاً ثم يغادر عائداً لمنزله، استدلّ الدواعش بخبر المساعدات التي يقدمها العم بلال إلى بعض المسنين والعجزة والمعتوهين من الأيزيدية والمسيحية. إذ قام المدعو أحمد بتبليغ أمير الجماعة في المنطقة، وجاءت الفتوى في أثناء صلاة الجمعة حذر فيها الأمير من التعامل مع المتروكين، قائلاً: "تصلنا معلومات إن بعضاً من المشركين والكفار من الأيزيديين والنصارى ما زالوا في الولاية الإسلامية، ولم يغادروها بسبب عجزهم وأعمارهم. كما وصل إلى مسمعي بأن هناك من يقدم لهم المساعدة ليلاً." كان يدير نظره نحو العم بلال الذي كان يجلس في الصف الأمامي، ولم ينفع حضوره أو دشداشته البيضاء والمسبحة. استدرك الأمير قائلاً: "نحذر المندسّين بيننا من فعل ذلك. لأننا سنحاسب من يقدم لهم العون. كانت فتوانا منذ البدء ترك العجائز والمعاقين والمجانين من دون طعام أو شراب، ليتعفّنوا في بيوتهم."

الأمر الذي أحرج "العم بلال" وخرج من المسجد مسرعاً وغاضباً من بعض المنافقين.

***

عاد سليمان إلى بيت راحيل وفي الليل حكى لرفيقيه ما حصل إلى كمال المجنون. قال لهما: " نحن يجب أن نفكر بطريقة ما للهرب من هنا. فالوضع لم يعد يطاق. سيتم إلقاء القبض علينا عاجلاً أم آجلاً،

او ربما نموت جوعاً." أثار كلامه خوفها. احتسى زياد كمية كبيرة من العرق في تلك الليلة تحت هاجس أخبار سليمان. ثم قضم بعض زيتونات من العلب التي جلبها سليمان. لم يستطع تمالك نفسه، حتى انهار في البكاء المر. صعد إلى السطح. شاتماً بصوت عال. يصرخ بهستيرية ليلعن الدواعش وجيشهم. حاول جميل وسليمان منعه ولكنهما أخفقا. السكر كان بادياً عليه. الأمر الذي جعل جميلاً يضربه بقوة حتى أوقعه أرضاً وكتم فمه. سمعت بعض الدوريات القريبة للدواعش تلك الصرخات وسارعت إلى تطويق المنزل. بعد ساعة من الوقت شعر جميل بأن الوضع أصبح خطيراً. خاصة عندما شاهد من شباك المنزل المطل على الشارع الفرعي عدداً من مركباتهم تتجمع لتحيط المنزل. ثم تناهى إلى سمعه وقع أقدام متسارعة. هنا علم جميل بأن أمرهم انكشف. حاول أن يرفع زياداً ويطلب منه التحرك للهرب. لكن الأخير كان يهذي ولعابه يسيل من فمه. قال زياد: "خليني هنا دعني أموت. كس أخت داعش، إذا ما يقتلوني. هؤلاء جبناء."

تركا زياداً مستلقياً ومستمتعاً بثمالته. أما جميل وسليمان فقد تسلقا إلى السطح يناوران بين الأسطح القريبة بغية الهرب. اقتحم الدواعش بيت راحيل أم يونان وشاهدوا المنزل المأهول، فجنَّ جنونهم. دخلوا الغرفة التي كانت مليئة ببقايا الطعام والشراب ورائحة العرق تضوع وتملأ المكان. عثروا على زياد ممدَّداً في الغرفة الأخرى. ينظر إليهم ويبتسم قال لهم:" كس خواتكم أنتم أكبر جبناء. انعل مذهبكم ودينكم إذا عندكم دين." رشَّ قنينة العرق على وجوههم واستمر بالضحك. أفرغ الأمير الداعشي عدة رصاصات في صدره. خرَّ زياد قتيلاً في الحال. امتلأت الغرفة وحيطانها بخيوط ترسم خرائط مقاومته بالطريقة التي وجدها مناسبة لهؤلاء.

سمع جميل وسليمان صوت الرصاص، لكنهما سارعا الهرب، أخذا يقفزان من سطح إلى آخر. صعدت عناصر الشر تتعقبهما، للحاق بهما، لكن الظلام حال بينهم. الدواعش لا يفقهون بجغرافية المنطقة وأسطح بيوتها. ذلك ما ساعد جميلًا وسليمان للنجاة. وإذ كانت قبلتهما نحو الجبل القريب. وصلا إلى ملك ميران سالمين. قفز جميل من أحد البيوت، كانت المسافة كبيرة، وقع فكسرت ساقه. أطلق صيحة "آخخخخخ" عالية، عاد إليه سليمان مسرعاً لمساعدته. حاول حمله فرفض. قال له: " اتركني واهرب."

كان يتصبَّب عرقاً ويمسك بساقه المكسورة التي تبين أنها تؤلمه. حاول الزحف من دون جدوى، فقال لسليمان:

- اهرب أنت سليمان ودعني لقدري. رد سليمان وهو جالس أمامه:
- كيف أتركك وأنت بهذه الحال؟ هذا مستحيل أعوفك.
- اهرب هذه قسمتي وقدري. أنت لديك عائلة تنتظرك. يجب أن تعيش لأجلهم. أما أنا لا أحد ينتظرني. هذا قدري، لكن عندما تنجو وتعيش، أرجوك باسم الصداقة وطاووس ملك اذكر حكايتنا مع الدواعش إلى الأيزيديين كلهم. الآن أستطيع الموت على نفقتي. هذا يكفيني. اهرب من هذا المكان فهم بالأثر. اسلك طريق الجبل.

وضع سليمان يده على كتف جميل. ثم أردف قائلاً:

- أتمنى أن نلتقي مرة أخرى. ابتسم جميل ثم قال:
- لا أظن ذلك.

لم يكتف الدواعش بقتل زياد. شرعوا بملاحقتهما. اقتربت أصوات عدة ووقع الأقدام وأصوات الرصاص تنتشر في المكان. قفز سليمان

إلى البيت المجاور، ثم عبر الممرات الضيقة. اقترب أكثر إلى الجانب الثاني من الضيعة وقريباً من بيته، فوق مزار ملك ميران واختبأ في أحد البيوت.

مكث الدواعش في تفتيش المنطقة القريبة من السوق، بحثاً عن الهاربين. وفي الصباح جاءت قوة أكبر من الموصل لدعمهم. وراحت تمشّط المكان. تدخل كل المنازل بحثاً عن الهاربين. في المنطقة التي تقع فوق السوق العصري[1] حتى عثرت على جميل الذي أُغمي عليه في أحد الأسطح. صعد أحدهم وضغط بقوة على قدمه المكسورة فأطلق جميل صرخة عالية هزّت المنطقة كلها. أفاق من الغيبوبة. راح يحدق في وجوه الوحوش الكاسرة، بملابسهم الغريبة. مدججين بالبنادق والسيوف. خضع إلى استجواب ميداني عاجل، والسؤال هو " أين كان؟ ومن يوجد معه؟ وهل هناك عناصر أخرى؟".

لم يجبهم مطلقاً. ظل صامتاً صمت الحجر. أخبرهم أبو عمر ابن بدرية عن طباع جميل التي يعرف عنها في المنطقة، بأنه صاحب مواقف ثابتة. رجل لا ينافق أبداً. بعد محاولات عدة للتحقيق معه، لم يحصلوا على شيء يذكر. هنا رفع الأمير يده وهم ينتظرون فتواه التي وصلته من شرعيّ تنظيم المنطقة. " يقطع رأس هذا الكافر الزنديق، وفي وسط السوق. حالاً "

سُحل إلى حيث مكان وسط السوق. وضع في ساحة الفرن وتمّ تصوير كيف يقطع رأسه بكل بشاعة التاريخ القديم. يتدحرج الرأس كالكرة الساخنة أمام أقدام السياف المنتشي بفعله هذا. ينفجر شلال الدماء على وجه السياف ومن كان قريباً. تتصاعد صيحات التشفي لهذه الجريمة التاريخية بـ "الله أكبررررر".

---

(١) سوق في وسط بعشيقة.

***

سمع سليمان صراخا مدوياً في الأفق، لكنه لا يعرف مصدره ومن أية جهة يصدر. لقد استقر به الحال في أحد البيوتات القديمة قريباً من الجبل، بعد هربه من بيت "خالة راحيل"، وقد نسي هاتفه وملابسه وطعامه.

غدت الأوضاع مزرية وأشد عتمة. تكاثفت الدوريات القريبة من بداية الجبل، حتى أصبح الهرب أكثر صعوبة، والبقاء أيضاً أشدَّ خطورة. في الحالتين هو ميت سواء بإلقاء القبض عليه، أو بسبب الجوع في هذا المكان.

مكث لثلاثة أيام اعتمد فيها على ما عثر عليه في المنزل. فكان ينزل في الليل كاللص، للبحث عن أي شيء يسد رمقه. يشرب من الماء الذي يوجد في الخزان العلوي فقط.

كانت دوريات الدواعش تفتش في كل مكان. يزداد نشاطها ليلاً. على الرغم من أنها لا تدخل إلى الأزقة القديمة والضيقة القريبة من الجبل تحديداً.

ذات يوم نزل كعادته يبحث عن ما يسد رمقه، يفتش بالدواليب وفجأة يجد أمامه بندقية كلاشينكوف بمخزن في الظلام. انتشى فرحاً، بدا أنه سوف يحقق وعده الذي قطعه على نفسه للانتقام من الخونة. إذا ما حاصره داعش سيقتل نفسه قبل أن يقطع رأسه، لكن مبدأ الانتقام هو الأفضل. ينتقم من أي داعشي قبل الهرب. وما هي إلا ساعة من هزيع الليل حتى خفَّت الحركة قليلاً. ترقب من الأسطح ليرصد مواقع حركتهم. كان يشاهد أضواءً تنبعث من القوات النظامية على الجبل. وهي لم تتهيَّأ بعد لاقتحام وتحرير المدينة ونجدة المواطنين فيها. الجبل القريب منه يعد منطقة آمنة. تسيطر عليه القوات الأمنية

النظامية والكردية وبدعم جوي أمريكي.

ذات ليلة أخذ وضعاً مناسباً في مكان قريب على السطح. كان المساء معتماً وإذ تقف دورية فيها أربعة دواعش. حاول التعرف إليهم. تمنى لو كان أبا عمر، أو الأمير من بينهم، ليأخذ ثأر خالة حسنة. فكر قليلاً بالانتقام من الأربعة برشقة واحدة. لكنه تراجع مفترضاً نجاة أحدهم ليطاردوه، ثم يلقون القبض عليه.

أسرع في الانتقال لسطح آخر يؤمن له إطلالة أقرب للدورية. كان الأربعة على بعد مائة متر أو في موقع أدنى من وسط الساحة. حسم القرار في داخله. أخذ موقعاً مناسباً من زاوية يراهم فيها ولا يرونه. في تلك اللحظة لمح من بينهم مجيدًا "أبا عمر" واقفاً. كان يسمع صوته وهو يشرح لهم الخريطة الجغرافية للأزقة.

صعد سليمان، فتح بهدوء ومن دون جلبة صمام أمان البندقية وسحب أقسامها وأعادها بكل هدوء. رشقهم بصلية متوالية من الرصاص. شقت إطلاقاته صمت الليل. لم يرتجف قلبه بل ازداد غضباً ونشوة معاً. سقطوا على الأرض من دون حراك. بدا له أن خطته نجحت. انطلق يركض نحو طريق الجبل بين الأزقة والبيوت حتى وصل أسفل الوادي، وهو المنطقة الفاصلة بين الجيشين. ومن ثم انطلق إلى رأس العين بداية الجبل. كان يركض ويقفز من حجر إلى آخر. قتل مجيدًا ومساعد الأمير، هاجت المنطقة بالرصاصات عاليةً في كل الاتجاهات، تم قتل مساعد الأمير وثلاثة آخرين. استمر بتسلق الجبل وصخوره الوعرة. بدأ عناصر داعش يطلقون النار على الوادي. يحاولون الصعود لأنهم علموا بأنه سلك هذا الطريق. وصل الى طريق "ويس القريني" ذاك المزار في أعلى الجبل مزار لرجل متصوف - رحمه الله - وقد اختلفت عليه القصص التاريخية. واصل الجري تلاحقه

رصاصاتهم، حتى وصل المزار فخفّت لعلعة إطلاقاتهم. تراجعوا خوفا من القوات النظامية وكمائنها على سفح الجبل.

عندما وصل الطريق المعبد شعر بنوع من الأمان. مع بزوغ أشعة الشمس شاهد المجاميع العسكرية، رفع يديه إلى الأعلى، مستسلما، كي لا يتم قتله. ثم نزع قميصه ملوحاً به كلما تقرب منهم. صاح عليهم: "أنا أيزيدي.. أنا أيزيدي.. أنا أيزيدي"

طلبوا منه التوقف، فأقترب منه أحد العساكر بحذر، ولكن أحد الموجودين صاح من بعيد: " هذا سليمان من أهالي بعشيقة إنه أيزيدي. ليس داعشياً." أغمي على سليمان وفقد الوعي بعدما استلمته قوات الإنقاذ التي كانت موجودة على الجبل.

١٣

انقطعت اتصالات سليمان عن عائلته بعد أكثر من شهر من دخول داعش لمدينتهم. حتى أن زوجته وابنته أمل يجدان هاتفه مغلقاً على الدوام. أثار ذلك فيهما الخوف والحزن لاحتمالات أن تصبح ثرثرة ساهرة وإشاعاتها حقيقية، لكنهما كانتا تتظاهران بعكس ذلك. إذ غالباً ما تؤكد هدى إلى نساء السكن في القاعة أنها على اتصال دائم مع سليمان.

وفي صباح يوم الجمعة وبعد أشهر رنَّ هاتف أمل من رقم غريب. ترددت في الردّ بادئ الأمر، لكن إحساساً غريباً دفعها لفتح الاتصال، حتى جاء صوت مرتعش وبعيد.

- من؟؟ أنت أمل؟؟
- من أنت؟؟؟

ترددت في ثوانٍ معدودة كأنها العمر كله، حتى تيقنت من أن هذا الصوت قد سمعته كثيراً. صوت. ثم ارتجف الصوت المخنوق بعبرته.......

- بابا الحمد لله على السلامة.... أين أنت؟
- ابنتي أنا بخير.. أنا في أربيل حالياً. يجرى لي تحقيق بسيط. سأخرج قريباً. سأتصل بكم لاحقاً. أحببت أن أطمئنكم على وضعي.

انتهت المكالمة وسقط الهاتف من يدها في ذهول عجيب. في هذه

الأثناء كانت والدتها إلى جانبها تحاول سحب الهاتف من يدها قبل أن يقع إلى الأرض. صدمتا من هول الفرحة بخبر من سليمان.

- بابا حي يرزق يا ماما. هو الآن في أربيل كما أخبرني تواً.

دمعت عينا هدى. بكت بحرقة لما عانته من هول المصائب التي حلت بهم.

انتشر خبر نجاة سليمان في القاعة والمدرسة. استعدت هدى وابنتاها لاستقبال سليمان بترتيب مكانهم وتنظيفه.

استقبلت أفواج النسوة من قاعات أخرى. يباركن لها بسلامة زوجها. وزعت بعض الحلوى والعصائر على نسوة يثرثرن كثيراً. وأخريات يتحدثن سرًّا عن جدية الخبر كون سليمان يعمل مع داعش. تقود الثرثرة ساهرة التي لم يشفَ وجهها من لكمات البطاطس.

***

في أربيل عملت سلطات الأمن على إجراء التحقيق الأمني الموسَّع مع سليمان للتأكد من هويته وصدق روايته. كانت لحيته كثيفة يعلوها الشيب وشعره الذي طال كثيراً. بدا نحيفاً بشكل هزيل وهو يجلس قبالة ضابط التحقيق بملابس ممزقة. يرتدي شروالاً أسود وقميصاً مهلهلاً، كما ينتعل نعالاً بلون التراب أخذه من قوات الجبل، بعدما وصلهم حافي القدمين. وجَّه له الضابط الشاب العديد من الأسئلة حول تنظيم داعش. وسؤالاً آخر عن السبب في البقاء بالمنطقة وعدم خروجه منها. وعن عديد الأشخاص الأيزيديين الذين معه. استفاض الضابط بمعلومات عن سكان المنطقة وطبيعة تمركز العدو.

حكى له سليمان القصة بشكل كامل، من دون مبالغة أو كذب في الرواية. أظهرت المعلومات لدى الضابط أن سليمان سبق أن تجاوز

على ضابط الأمن في نقطة العبور في الشيخان، في أثناء الهرب من داعش. قال له المحقق:

- عليك مؤشرات سلبية في ذلك اليوم. بالإضافة إلى مؤشرات أخرى تدل على عملك مع الدواعش. ماذا تقول؟
- لدى داعش؟؟.... مستحيل!
- أنت قمت بالاعتداء على ضابط في سيطرة الشيخان في أثناء محاولة عبوركم. هل تنفي هذه الحادثة؟ فرد سليمان بهدوء قائلاً:
- سيدي أنا لم أعمل مع داعش مطلقاً. هذا عار عليَّ. لا أقبل لا أنا ولا عائلتي وأهلي أن أخون تاريخي ومعتقدي. كنت متعلقا في بعشيقة. لا أستطيع مغادرتها وعشت فيها سنين طويلة وارتبط بها ارتباطاً روحّياً واجتماعياً. كنت أظن أني سوف أستطيع مقاومة الدواعش، في حال كانت هناك مقاومة، ولكن تبين - مع الأسف - أن بعضهم خذلوا مدينتنا. لم يدافعوا عنها وتركونا فريسة وصيداً لهم.

امتعض الضابط من كلامه، وقال له:

- من تقصد بكلامك؟
- أقصد من كان يدافع ويسيطر على أرضنا. ربما قواتكم أو حتى القوات العسكرية الحكومية لا فرق، فالخطأ يتحمله الجميع معاً. كان لنا أمل أن نبقى ونقاوم. نحن مجموعة من الشباب. لم يتوفر لنا السلاح. ولو قدمت لنا جهة ما لقاتلنا حتى النهاية. مع ذلك بقيت هناك اعتقاداً بأن داعش سيبقى لفترة قصيرة. لم يكن في مخيلتي أبداً البقاء في مدينتي والأعداء الوحوش يجوبون في شوارعها ومنازلها ويعبثون بها. لم يحدث مطلقاً هجرة أهالي بعشيقة وبحزاني بهذا الشكل. ولكي تكون متأكداً من صدق ما

أقول. لقد قمت بقتل أربعة دواعش ومنهم نائب الأمير وخائن يعمل معهم. ثم هربت إلى الجبل ووصلت إلى القوات الموجودة هناك. صديقاي زياد وجميل وقعا في قبضتهم، وعلى ما أظن تمَّ قتلهما. أما بخصوص ضربي إلى ضابط حاجز الشيخان، فكلامك صحيح جداً. ولو عاد ووقف أمامي الآن لأشبعته ضرباً، لأنه بصراحة مطلقة أساء التصرف. لم يقدّر الظروف التي نحن فيها. لا يجوز أن يبتز النازحين المساكين من العوائل. وربما أنت حضرتك لا تقبل بتصرفه. إن منظر الأهالي في تلك اللحظات العصيبة منظرٌ بائسٌ ومبكٍ للجميع. لم أقبل بما فعله من إهانات متتالية. كان منظره، وهو يتبختر أمام النساء، منظراً معيباً ومستفزاً لكل رجل وطني وغيور. ضربته ثم تركت المكان وعدت إلى بعشيقة.

كان سليمان يتحدث بكل هدوء وثقة ويسرد القصة بصدق المدافع عن عرضه. أنصت الضابط المحقق لحديث سليمان وقد بان صدق كلامه. اقتنع الضابط بما ورد في إفادته. قام بتوثيق كل المعلومات وعن كل الأماكن والأشخاص. ثم قال له:

- سيشفع لك أنك أيزيدي. نقدر معاناتكم وعمق مأساتكم. ربما نعترف ببعض الأخطاء التي حصلت في معبر الشيخان وهي تصرفات فردية وليست توجيهات رسمية. حقكم علينا وأنتم ضيوفنا. سأطلق سراحك.

كان الضابط يعرف دقائق الأمور وخلفياتها السياسية والأمنية. شاب ذو فراسة ودراية تامة بمهنة التحقيق. بعد ذلك طلب الضابط منه التوقيع على ورقة وضعت أمامه. وقَّع عليها سليمان وأمر بأن يطلق سراحه بعد يومين.

بعد شهر من التحقيق مع السلطات الأمنية خرج سليمان وكان بانتظاره بعضٌ من أقاربه الذين استقبلوه بفرح. نقلوه بسيارتهم في طريقه إلى دهوك للقاء عائلته أولاً. انتشر خبر إطلاق سراح سليمان لدى الأيزيديين، كما كتبت عنه بعض الصفحات تحت عنوان "الناجي من قبضة الدواعش"، مع نشر صورته بلحيته الكثة.

في الطريق بدا كلُّ شيء غريباً عنه. المناطق والأقارب من النازحين ومخيماتهم المصفوفة تملأ الساحات. كأنها وضعت لنزوح أبديٍّ واستقرار دائم. أزعجه كثرة الأسئلة التي وجهت إليه من أقاربه وإعادتها في كل مرة. أسئلة حول طبائع الدواعش وحال الضيعة وما جرى فيها، طلب منهم الصمت قليلاً وتركه ليدخن سيجارته ويتأمل شكل الحياة المقبلة. تساءل عن عائلته ومكانها. أجابوه: "إنهم بخير في دهوك. وكل أهالي بعشيقة وبحزاني والأيزيدية عموماً نازحون في دهوك." كان رقم هاتفه الجديد انتشر بسرعة. يرنُّ من دون انقطاع لكثرة الاتصالات التي انهالت عليه. من كل جهة.

وصل إلى دهوك في نحو الساعة الخامسة عصراً. أخذوه إلى المدرسة حيث عائلته. تجمهر بعض الناس لاستقباله، كانت النسوة يتهامسن والرجال تجمعوا كخلية نحل. وصل سليمان الناجي إلى مكان النزوح في المدرسة. لقد تغيرت ملامحه كثيراً وبان نحيفاً. لحية مسترسلة وعينان غائرتان. ليس بتلك الوسامة المعهودة عنه والجسم الضخم. ارتمت ابنتاه عليه وتقدمت هدى لتحضنه أمام الخلق. انفجر صنبور البكاء. ثم تحول إلى عويل مرٍّ ونشيج طويل أبكى كل من حضر ذلك المشهد الرهيب. حزن سليمان هو حزن الجميع هنا.

رحب الجميع بسليمان ومنهم ساهرة وزوجها. جلس إلى الأرض في المساحة المخصصة لهم وقدم إليه كأس الماء من زوجته وبعض

رجال القاعة جلسوا يتبادلون أطراف الحديث معه، لكن عينيه كانتا تبحثان في جميع زوايا القاعة، ودهشته للوضع البائس هذا. في الليل تحدث عما جرى له. وما فعله في مدينته وعن مصير الصديقين المجهول. قاطع أحد الحضور:

- ألف الحمد لله على سلامتك سليمان. نتمنى لك الصحة والعافية ونستأذن منك بالانصراف لتأخذ راحتك مع عائلتك. فهم أيضاً مشتاقون إليك.

غادر الجميع المكان الضيق. انفرد بعائلته. وضع رأسه على مخدة ومدَّد جسمه وراح يتحدث بهمس إلى بنتيه وزوجته. ثم أخذه التعب. طلب من زوجته كأسا من العرق إن كان متوفراً. لتهدئة أعصابه. كرع الكأس وظل صامتاً بمشاعر مرتبكة. ثم غفا على يد زوجته. نام بعمق كأنه لم ينم لسنين طويلة.

١٤

لم يستوعب سليمان بعدُ فكرة النزوح. وجوده في هذا المكان المغلق البائس، وبعده عن مدينته جعله أكثر كآبة من قبل. يرتبط مع بعشيقة بعلاقة عشق مثلى. بينما الحياة في مدرسة كولستان مملة وكئيبة.

مدرسة بنيت حديثاً. يتكدس فيها النازحون من مناطق سنجار وبعشيقة وبحزاني ومن عوائل سوريَّة أيزيدية، جاءت إليها أيضا عائلات مسيحية من برطلة وعائلتان من المسلمين الشبك، كلها تجتمع في مكان واحد لتمارس الحياة والطبخ والنوم مع الزوجات والذهاب إلى الحمامات في وقت واحد. كان وجوده في القاعة محاطاً بأقمشة على شكل مربع تبعث على الألم والملل والقرف.

النوم في غرفته الافتراضية معجزة بسبب حديث بناته وزوجته وأصوات خارجية تزيد من حالة النفور. اضطر لشراء جهاز تلفاز لعائلته بعد مطالبات عدة لمشاهدة الأخبار والتسلية، فالوقت ثقيل هنا في هذه القاعة.

كانت البطالة تتصادم مع كثرة الطلبات من عائلته. لا مجال للبحث عن عمل هنا. على أمل التحرير والعودة من جديد إلى مدينته. يخرج عصراً من الغرفة ليجلس في أحد أطراف المدرسة وأحياناً يتمشى في الطريق ليلاً بين الأشجار.

استطاع أحد النازحين أن يجرب حظه في العمل. وجد مساحة ما

بين الأشجار قريباً من المدرسة، ليجعل منها مقهى بسيطاً للنازحين ليطعنوا خاصرة الوقت والملل معاً وليقلّبوا وجوه الإشاعات والأخبار الطازجة. غرس أربعة أوتاد في الأرض، ثم فرش الأرض بحصيرة مربعة من خوص النخيل. وضع مصطبات مستعملة عدة مع كراسٍ بلاستيكية، بالإضافة إلى طاولة قديمة عثر عليه في إدارة المدرسة. علّق في الزاوية تلفازاً صغيراً لنقل الأخبار. مع زاوية أخرى وضع فيها طباخاً لصنع القهوة والشاي. استطاع شاب من سنجار اسمه عيدو أسمر البشرة بشعر أسود وضعيف البنية أن يصنع هذا المقهى البسيط.

كان أغلب الرجال يأتون إليه من العصر إلى منتصف الليل هرباً من ثرثرة نسائهم، فقد صار المقهى متنفَّساً لهم للاستماع إلى الأخبار واللهو بالنرد والدومينو ولعبة البوكر. كان سليمان من بين رواد المقهى بشكل مستمر، إذ يحضر في الصباح والمساء.

يجتمع في هذا المقهى النازحون من مختلف العقائد والأعراق ومن مناطق مختلفة. يتبادلون الحديث حول مصير داعش والجرائم التي يرتكبونها وفترة نزوحهم. يسخن الحديث في أثناء نشرات الأخبار ويبرد في نهاية الليل. الجميع تحولوا إلى ضحايا لسياسات دولية ومحلية قذرة. في أحد الأيام، قال عيدو وهو يجلب الشاي للجالسين بعدما انتهى المذيع من نقل أخبار تتحدث عن الأيزيدية وما وقع لهم في سنجار:

- صدقوني لم يعد لنا عيش في هذا البلد. كيف لنا أن نعيش مع خونة الزاد والملح في سنجار؟ هل تتصورون كيف كنا نعيش على حب الله والناس معاً؟ كنا نعيش مع بعض عرباً ومسلمينَ وكردًا وأيزيديين بمحبة وإخوَّة. قرى متراصة تفعم بالمحبة. نتبادل الزيارات ولدينا علاقات صداقة. في أعراسنا يشاركوننا

الدبكات، وفي الحصاد يساعدوننا. نتقاسم رغيف الخبز. ما الذي حلَّ بنا؟ ما الذي جعلهم في ليلة وضحاها ينقلبون كالضباع لينهشوا لحمنا؟ ينتهكون أعراضنا ويزهقون أرواحنا ويسرقون أموالنا، وكأننا غرباء عنهم. تشتَّتت عوائلنا، وضاعت أخبار بعضهم عنا. حتى أصبحنا فريسة سهلة لهذا التنظيم المتوحش. إن من وثقنا بهم قد باعونا.

رد عليه جاسم؛ وهو أحد المنتمين لحزب متنفذ في سنجار. تظهر عليه علامات الانتهازي. ترك المدينة قبل يومين من دخول داعش واحتلالها. تحدث بكلام أثار غيظ عيدو. كانت مداخلاته مثيرة. تحدث بكلام مستفز. فقاطعه عيدو:

- "جاسم أنت لا يحق لك الحديث. سجل تاريخك سبقك إلينا. إن ما حدث هو جزء من مؤامرة دولية، مع اتفاقات سرية مع دول مجاورة. باختصار نحن تمَّ بيعنا. أين هي القوات التي كانت موجودة في سنجار من البيشمركة والجيش، التي كان يفترض أن تدافع عن سنجار؟ بينما سنجار كانت الأرض الآمنة للجميع فيما سبق. ألم أقل لك هناك مؤامرة ضدنا؟ ردَّ جاسم:
- تركوا الأرض بانسحاب تكتيكي وهو ضرورة عسكرية.

وضع عيدو أكواب الشاي للزبائن. فيما جلاس المقهى يتابعون هذا النقاش الحاد. قال عيدو:

- أي انسحاب تكتيكي الذي تتحدث عنه ؟ لماذا لم يخبروا الأهالي قبل ليلة من حادثة الإبادة؟ لماذا لم يطالبوا الأهالي وخاصة النساء والأطفال بالخروج تحسُّباً لأي خطر محتسب؟ أقنعوا الناس في البقاء للدفاع عن سنجار. نحن شعب عاطفي نتأثر بما يقال. لم نتعظ من التاريخ الدموي الذي عشناه حتى حدثت هذه الإبادة.

مصيبتنا مصيبة كبيرة. لا تدافع يا جاسم عن أي جهة، حتى إن كنت منهم او مقرَّباً إليهم. يوميًّا أصغي لكلامك ولم أردَّ عليك. أعرف ما تريد الوصول إليه. كل ما تقوله وتشرحه لرواد المقهى هو كلام ملغوم وخبيث. يؤثر سلباً على قضيتنا. من الآن فصاعداً إما أن تصمت أو أن تقول الحقيقة، وإذا لم تستطع فلا تأتي إلى المقهى. فأنت مطرود. لا يحق لأي مواطن منا أن يقامر بالدماء وهتك الأعراض والسرقات وطعن التاريخ. لا تظن أنني صاحب مقهى فقط. ولا أعلم ببواطن الأمور وما يدور في الخفاء.

توقف عيدو وراح يرش وجهه بالماء بعد هيجان أعصابه. حاول جاسم أن يرد، لكن تدخَّلَ ثامر وهو أستاذ تاريخ من بحزاني؛ قائلاً:

- اتفق مع عيدو تماماً. نحن لا مكان لنا في هذا البلد. نحن دماء رخيصة الثمن. باعنا الجميع. في التاريخ القديم تذكر الحوادث، أنه لم يدافع عنا إخوتنا في الوطن. جبل سنجار هو الملاذ والحامي الأبدي لأهلها. تفحصوا التاريخ أولاً لتفهموا ما يحصل اليوم. من يستحق الشكر هي الجبال على كل ما قدمته لنا سابقاً وحاليّاً. لأن السياسيين والحكام وأصحاب القرار في بواطنهم وعقائدهم ومناهجهم نحن كفرة. يمكن أن يضحوا بنا في أي وقت ولأي سبب. نحن ملّة ضعيفة. يبيعونها متى ما شاؤوا. فسنجار بيعت لمكاسب دولية، أو ربما محلية، أو ربما لثأر سياسي. أصبحت نساؤنا وأموالنا وارواحنا قرباناً لطموحات قذرة. أنا أعتقد أيضا نحن السبب في أغلب مشاكلنا. نحن شعب نصفق لكل شخص ولكل حزب، بل نبالغ في الانتماء، مشتَّتين لا نعرف ماذا نريد، ننهش بلحم بعضنا، ثم نقع ضحية لمخططاتهم. فنحن

لسنا متفقين، ولن نتفق مطلقاً. مصيبتنا يا إخوتي، إننا لا نثق بعضنا أبداً فيستغل الآخر هذه الثغرة ويزيد الشقاق والنفاق بيننا. إخوتي لولا سنجار وما حدث لها من إبادة عظمى وما نقل من معاناة وصور أهلها في الجبال عبر شاشات العالم كله ولولا أيضا استيعاب الدرس، لكنا أيضا نحن في بحزاني وبعشيقة كمثل مصير سنجار. ولكننا تركنا مناطقنا للدواعش. تصوروا إخوتي أن مسؤول الحزب المتنفذ لدينا، كان يجتمع معنا في بيربوب[1] ويبلغنا دائماً بأن الوضع مسيطر عليه. وكنا نعلم أنه يكذب علينا، وذلك يتضح في عينيه. لكنه ورفاقه أخرجوا عوائلهم خارج بحزاني وبعشيقة...

عاد الهدوء إلى جلسة المقهى بحديث الأستاذ ثامر وهو العارف والمثقف في تاريخ الأيزيدية. استمع إليه جاسم وعيدو وسليمان بكل اهتمام. بعدما أنهى الرجل حديثه ردَّ عيدو:

- نحن ضحية الأحزاب باختصار. هي من أوصلتنا إلى هذا الخراب. لأنها سرقت النفوس والضمائر وأشاعت التفرقة والنفاق بيننا، فكانت النتيجة هي الإبادة.

لكن جاسماً عاد إلى المشهد من جديد. ليدافع عن الأحزاب التي كانت تغدق عليه الأموال ليتفوق ماديّاً على أقرانه قائلاً:

- إخوتي أقولها بصراحة تامة، إن الأحزاب قدمت لمناطقنا خدمات جيدة فيما مضى. قامت بتوظيف الكثير من الأبناء في وظائف حكومية. كما قامت بإعمار بنايات الدولة والمدارس. منْ قال لكم إن الأحزاب هي سبب كارثتنا؟

ردَّ عيدو معترضاً:

---

(١) مزار أيزيدي في قصبة بحزاني ويحتوي على قاعة اجتماعات كبرى للمناسبات.

- أخ جاسم نحن نحترمك، ولكن كلامك يستفزنا جميعاً. اترك النقاش. إن الذي فقدناه من تضحيات وأبرياء اعزُّ من كل الأحزاب.

رد جاسم محتدّاً:

- لا أسمح لك بهذا الكلام أبداً. سيكلفك الكثير.
- تسمح أو لا تسمح. أقول ما أؤمن به وما لمسته لمس اليد.

شاهد سليمان بأن الوضع سيزداد تعقيداً بين الطرفين، وربما سيكون سبباً لخصومة دائمة في حرب كلامية لا ناقة لهم فيها ولا جمل. وقال لهم:

- أرجو أن تتركوا هذا النقاش. فهو لن يقدم ويؤخر مما حدث في شيء. علينا أن نستفيد من هذا الدرس. معاناة الأيزيدية أصبحت واحدة، ربما تختلف من منطقة إلى أخرى أو من بيت إلى آخر في التفاصيل والتفكير، لكننا جميعاً نتساوى في سلة المأساة والإبادة. دعونا لا نتحدث عن الماضي. ربما أخطأنا في قراءة تاريخ ما حصل. لنتحدث عن مستقبلنا. نأمل أن يكون أفضل لأجيالنا، إذا رغبنا بالفعل في الأفضل فهذا يتطلب منا العمل بجدية والاستفادة من دروس الماضي السيِّئ.

على الرغم من أن سليمان لم ينحز إلى أي طرف بوضوح، لكنه بدأ مؤيداً لحديث عيدو. أولاً لبساطته واندفاعه وشجاعته وحرصه على مدينته ومعتقده بالاضافة الى انه بدا أكبر من حجمه ومهنته. ثانياً كان لسليمان معرفة بسلوك المنافقين من أمثال جاسم.

***

بدأت الحياة تضيق بجدرانها القماشية داخل القاعة على سليمان وعائلته. في الليل وفي أثناء النوم تداهمه أفكار غريبة. يتساءل مع

نفسه. إلى متى يبقى هذا الوضع التعيس بمأساته ومعاناته؟، حيث الطوابير على الحمامات القذرة. كل شيء هنا بطابور طويل وممل يستنزف الوقت كله. راح يفكر جديّاً للخروج من هذا الوضع. حتى المقهى غدا مملًّا بنقاشاتٍ عقيمة. أيضاً لم يعد أحد يسأل عنه من الأقارب والمعارف مطلقاً. ومتطلبات حياة العائلة بدأت تتعاظم مع الفاقة والعوز. سأل نفسه، لماذا تغيرت طبائع الناس؟ وما السبب الذي جعلهم بطبائع عدوانية شرسة في ظل النزوح أهو العوز؟ أم الأنانية؟

كان يستمع إلى قصص كثيرة عن أخٍ خاصم أخاه وطرده من منزله في ظل ظروف النزوح الصعبة. عن آخر طرد والدته بسبب صعوبة تحمله تكاليف معيشتها مع عائلته. عن فتاة عفيفة تعمل في نوادٍ لا تتناسب مع وضع عائلتها. قصص غريبة لم يكن سمعها في واقع المجتمع الأيزيدي. حتى خاف على ابنتيه، الأمر الذي جعله يفكر جديا للبحث عن عمل، وحالة النزوح ربما ستطول أكثر مما تصوره الجميع. على الرغم من أنه لا يجيد اللغة الكردية التي يتحدث بها أهالي دهوك وطبيعة المجتمع التي تختلف عن طبيعته. بالإضافة إلى سنِّه الكبيرة نسبيّاً. لا يوجد عمل سوى العودة مؤقتاً لمهنة الطلاسة. لبخ أو تبييض المنازل والواجهات، ولهذا كانت رحلة البحث عن العمل شاقة جداً، لو لا أن مدير المدرسة الأستاذ أوديشو، وفَّر له عملاً في اختصاصه، كان العمل الذي حصل عليه ترميم بيت لأحد الأشخاص من آهالي زاخو.

في الصباح الباكر نهض سليمان وأخذ سيارة إلى عنوان المنزل. كان صاحب العمل شخصاً كرديّاً طيبّاً وخلوقاً يدعى (أبا أمين) هو صاحب معرض للسيارات بحالة مادية جيدة. لديه منزل لزوجة ثانية

يحتاج إلى ترميم بعض حيطانه وطلاستها بالأسمنت ومن ثم نثرها.

احترم صاحب المنزل سليمان كثيراً لعمره الكبير، وظروف النزوح الصعبة. كان يتم عمله باحترافية عالية مع نخبة عمال من الأيزيديين أيضاً. كان صاحب المنزل كثير البذخ للعاملين في منزله، وشديد المحبة الخاصة للأيزيدية. قال لهم في أثناء فترة الطعام: " أنا أيزيدي ودمي أيزيدي مثلكم. أنتم من بقي على أصله ثابتاً. نحن من غيَّرْنا الإسلام على وفق هوانا."

ذات يوم تطلب العمل حضورهم يوم الجمعة كنصف يوم عمل، على الرغم من أن هذا اليوم هو عطلة ولا من أحد يعمل فيه تقريباً، ولكنَّ صاحب المنزل طلب منهم أن يأتوا لإكمال العمل المتبقي يوم الجمعة لارتباطه بمواعيد كثيرة في الأسبوع المقبل. في فترة الغداء افترش الجميع الأرض بشكل دائري. في أثناء تناول الطعام كان صوت خطيب الجامع القريب وعبر مكبر الصوت يصلهم ويصغون إليه مرغمين. بدأ حديثه بعد الصلاة عن مظاهر الكفر. كان الصوت يصلهم واضحاً ونقيّاً، لكن صوت الخطيب كان حادّاً ومزعجاً، يخطب بلغة كردية ولكنه كان يتلو بعض الآيات القرآنية بالعربية الركيكة. وعندما يصل إلى ذكر الكفار يرتفع صوته ويستشيط غضباً عليهم.

كان العاملون الأيزيديون يفهمون ما يقوله الخطيب باستثناء سليمان، الذي لم يكن يعرف ما يقوله الخطيب. تصل إليه كلمات العربية (كفر، كفار، زاد، أيزيدي ...الخ) والآيات التي يقولها الخطيب بين فترة وأخرى. لم يستطع تمييز أو تجميع ما يقوله. لكنه فهم انزعاج العمال من حوله. فطلب منهم سليمان توضيح الأمر وما يقوله الخطيب، بدأ الجميع ينظرون لبعض، حتى قال أحدهم: " ألا تعلم ما

قاله؟" رد عليه سليمان بتهكم: "أكيد لا. فأنا لا أفهم إلا بعض الكلمات العربية، وإلا لما سألتك عن ما يقول". فقال زميله الذي كانت ملابسه متربة " إنه يقول في خطبته إن الأمثلة على الكفار كثيرة ومنها الأيزيدية، والكفار لا يجوز التعامل معهم وطعامهم حرام ومصافحتهم لا تجوز. وإن عليكم كمؤمنين أن تهدوهم إلى الصراط المستقيم. أن ترشدوهم إلى طريق الحق، فهم ليسوا من أهل الذمة"

احتقن وجه سليمان، والعاملون لاذوا بالصمت والغضب. في هذه الأثناء انتبه إليهم صاحب العمل الذي كان منشغلاً بحديثه مع زوجته في هاتفه النقال. شاهد تذمر العاملين فأدرك انزعاجهم مما قاله خطيب الجامع. أنهى أبو أمين مكالمته وبادر قائلاً:

- نحن أيضا لا نرضى عما يقوله بعض رجال الدين والخطباء هنا ولا نؤمن به، ولكن تعلمون في كل دين هناك متشددون ومتطرفون ومحرِّضون.

لم يستطع العمال إجابة صاحب العمل لعدم معرفتهم وبساطة بعضهم لكنَّ سليمان رد قائلاً:

- نحن نحترمك يا أبا أمين. أنت إنسان محترم. تعاملنا بكل احترام. نحن نقدر ذلك، ونقدركم لأنكم استقبلتم الأيزيدية في أصعب الظروف، وهذه المواقف لا يمكن نسيانها ونكرانها أبداً ولكن هذا تحريض صريح علينا. والناس يستمعون إليه ويصمتون، وهكذا أصوات تشكل خطراً علينا وعليكم.

رد أبو أمين بشكل هادئ لإقناع سليمان:

- اتفق مع كل ما قلته، إن هكذا خُطب لا تخدم أحداً. سوف تكرس البغضاء ويرتفع منسوب الكراهية بين الناس ضد بعضهم، ولن نخلق مجتمعاً متجانساً ومتعايشاً. يكفي ما أصابنا

من داعش وما حل بكم، ولكني أعدكم سأمنع هذا من أن يتحدث ذلك مرة أخرى وسأبلغ السلطات المختصة بهذا الشأن.

رد سليمان مستكملاً وربما بمحاولة إقناع أبي أمين بكلامه:

- انظر لمن تعود كل هذه السيارات المنتشرة حول الجامع؟ وهل تشاهد الناس؟ الصلاة والتعبد حق ولكنَّ الكراهية والتشدد والتطرف خطأٌ وخطرٌ على الدين ذاته وليس على الأديان الأخرى فقط وفي ظل تنامي هؤلاء وعدم ردعهم قد تكون معنا أنت اليوم، ولكن بعد عشرين سنة، ربما يختفي أمثالك وينشأ جيل كبير على شاكلة الخطيب وتفكيره. هذه هي خطورة الموقف المتشدد الحالي.

تقبَّل أبو أمين حديث سليمان مؤيداً مخاوفه:

- اتفق معك سليمان. ربما ما ذكرته صحيح، أو ربما تستخدم الحكومات هذه الخطابات ضدكم كمحاولة للهيمنة. فالخوف أحياناً يجعل بعض الشعوب والمجتمعات تتعلق بالسلطة ليس حبّاً بها، إنما بغضٌ فيمن يخيفها. أنا شخصيّاً أتعاطف مع مأساتكم ومعي الكثيرون هنا أيضا يشعرون بمحبة واحترام لكم. ومتأكد من إخلاصكم في العمل والأمانة.

كان العاملون منبهرين بقوة شخصية سليمان، ففي طريق عودتهم أثنوا عليه، معترفين بشجاعته. ولكنهم أكدوا أن مثل هذه الخطابات المسمومة، ستدفع الكثيرين للهجرة.

١٥

في مقهى عيدو يجتمع الرجال كالعادة من أطياف شتى. يتداولون آخر ما ورد من أخبار، بين التأكيد والنفي من حوادث آخر ساعات الغزو الوحشي. في كل مرة يكون الحدث الساخن على طاولات وتخوت المقهى. كان الحديث في ذلك اليوم عن حياة النزوح والمساعدات التي تقدمها المنظمات وفساد بعضها.

عندما وصل سليمان إلى المقهى اختار مكاناً منتخباً اعتاد الجلوس فيه. ثم طلب عبوة بيبسي كولا ليخفف من حدة الأفكار التي راودته في المنزل.

جلس قرب جماعة يتحدثون عن الهجرة المتاحة في تلك الأيام خارج البلاد وعن طرق الهجرة عبر تركيا والتسهيلات المتاحة لسكنة مناطق النزوح. تدخل جاسم كالعادة ليحشر أنفه. ذلك المتملق الحزبي تحدث إلى أستاذ ثامر، عن سفر أحد أقاربه قبل أيام ومجموعة شباب من سنجار:

- اتصل بي أحد أقاربي وقد وصل إلى ألمانيا.

ردَّ عليه أستاذ ثامر مستفهماً:

- ومتى سافر إلى ألمانيا.
- أقل من شهر تقريباً.
- أقل من شهر!!

- نعم
- وكيف وصلها؟
- اتفق ومجموعة من الشباب على الهجرة، انتقل إلى تركيا وفي رحلة مغامرة عبر الغابات. كانت الرحلة مشياً على الأقدام استطاع عبور حدود دول أوروبية عدة ، وبعدها استقبله أحد أقاربنا في هولندا ومنها دخل ألمانيا. أخبرني أن الرحلة أسهل من شرب الشاي.

سأله أستاذ ثامر:

- وكم تكلفتها؟
- حقيقة لا أعرف، ولكن أعرف أنه مرتاح، وأرسل صوراً تدل على راحته. والصور موجودة في هاتفي. وتحسس هاتفه في جيبه.
- وكيف ينفق على نفسه؟
- هناك الدولة تتكفل براتب شهري لكل مهاجر، الأكل والمشروبات كثيرة ومتنوعة لديهم والبيرة رخيصة.
- يبدو أنه يعيش في الجنة إذا كان كل شيء متوفراً له ويمنح مرتباً من دون عمل والبيرة رخيصة فتلك هي الجنة!
- أنا أيضاً أقول ذلك، ولهذا فكرت بالهجرة، سأجمع الأموال اللازمة وبقايا الذهب وأغادر هذا البلد من دون رجعة.
- والحزب يا جاسم ربما يزعلون عليك.
- لا أكذب عليك أرغب في أخذ مبلغ من الحزب كتبرع أدَّعي فيه أني أرمِّم بيتي وأهاجر.

كان سليمان يسمع حديثهم عن الهجرة. حاول تقليب الفكرة لأكثر من مرة متخيلاً جمال الحياة أو الجنة كما وصفها الأستاذ ثامر. لماذا إذاً نحن هنا نعيش هذا العذاب؟ تذكر قطعة القماش التي تحولت إلى

غرفة معيشة بائسة، والمستقبل المجهول مع كل هذا الاضطهاد الديني وانعدام فرص العمل وإهمال الدول الكبرى ذات القرار لمأساتهم، ليس هناك سوى المواعيد والجنة المنتظرة. لماذا لا أتحرك وأهاجر؟ وحسب رواية جاسم فإن الرحلة سهلة فقط عبور الغابات ومن بعدها الوصول والاستقرار.

نهض عائداً لعائلته في القاعة، جلس ثم نادى على هدى التي كانت منشغلة بمسلسل تركي. حضرت بقربه:

- نعم. تفضل.
- أريد أن نتمشى معاً أنا وأنتِ فقط خارج القاعة.

استغربت لطلبه. تصورت أنها مقبلة على مشهد رومانسي لاستعادة ذكرى الحب التي كانا يتقاسمانها سابقاً في أزقة بعشيقة وبحزاني القديمة، لكنها تراجعت عنْ الفكرة لأن عيد ميلاد زواجهما لا يتطابق مع دعوة المشي.

تركا المدرسة خلفهما، متجهين بالاتجاه المعاكس لمقهى عيدو نحو طريق محاذٍ لأشجار كثيفة من التفاح والخوخ والسنديان وهي تخيم على الطريق:

- حبيبتي أم أمل هناك موضوع أرغب بمناقشته معك، ربما لا يعجبك وأنا أيضاً ولكن دعينا نفكر فيه ونناقشه معاً.

استغربت هدى لحديثه الغامض هذا؛ قالت له:

- تفضل ما هو الموضوع الذي ترغب به.
- كُنت قبل قليل في مقهى عيدو وكان البعض يتحدثون عن الهجرة والسفر. كان شخص من سنجار يتحدث عن وصول بعض أقاربه إلى ألمانيا بسهولة وهي تستقبل اللاجئين خاصة من مثلنا، هناك تصوري من دون عمل يعطى للاجئ مرتبٌ شهريٌّ!

كنت أسمعه يقول إنهم يعطون شقة مجانية تتولى الحكومة ببدل إيجارها، وفي فترة قصيرة يمنحون الإقامة وبعدها تستطيع أن تطالب بـ "لم الشمل" مع العائلة.

كانت هدى تستمع وهي تنظر إلى سفح الجبل وبعض الأنوار البعيدة التي تأتي من بعيد. وبعدما أنهى فكرته التي بدا متحمساً لها، قالت:

- سمعت عن ألمانيا، فيها أنجيلا ميركل العمَّة الرحيمة ذكرت لي صديقتي عن أحد أقاربها واسمه عزت، كان قد هاجر من سنين طويلة إلى ألمانيا، كان وضعه الاقتصادي جيدًا وبسبب سفره ومساعدته لأهله استطاعوا بناء بيت وشراء مزرعة، ولكن لماذا تتحدث عن هذا الموضوع الآن بالذات؟

- لا أعرف! أردت فقط مناقشتك، أنت تعرفين وضعنا الآن وصعوبة الاستمرار والعيش في قفص الدواجن داخل المدرسة، مضت أشهر كثيرة والحال لم يتغير ولا أمل منظورٌ في تغييره على المستقبل القريب، ربما الفترة القادمة سيتم طردنا بسبب دوام المدارس والطلبة. والعمل صعب في هذه المدينة أنا تجاوزت الخمسين عاماً ولا أتقن أية مهنة سوى الطلاسة واللبخ والتبييض، وهي مهنة متعبة لعمرنا هذا، ولا أستطيع فتح ساحة لبيع المواد الإنشائية، كما كنت في بعشيقة بسبب المنافسة وصعوبات اللغة هنا والزبائن، وبالإضافة لقضايا أخرى بدأت أحس بها هنا، فالتطرف الديني موجود في كل البلاد وهو خطر عليكم مستقبلاً، تزداد حدته أحياناً ليصل مدياته القصوى، الحكومة تحترمنا هنا وربما كانت مجبرة على محبتنا واحترامنا بوصفنا تحت رعايتها وهي بمثابة الأب الراعي للمكونات

الضعيفة، لكن مع الأسف هناك من يعتقد هنا بأننا من الكفار أو بدون دين، وربما يحترموننا الآن بسبب سلطة الدولة ونفوذها، ولكن في غياب الدولة ينقضُّون علينا كالضباع الجائعة، وأنت شاهدت ماذا فعلوا بالأيزيديين في سنجار، فغياب القانون وسلطة الدولة أحال الجيران إلى كلاب تنهش أبناء جلدتهم ووطنهم وجيرانهم، بل اغتصبوا نساءهم. القضية أن من حولنا لا يؤمنون بنهج الاختلاف، تذكرين قصة خطبة الجمعة التي حدثتك عنها في زاخو وما قاله خطيب الجمعة في ذلك اليوم؟.

- أنا لا أفهم بالسياسة، ولكن أعرف أنك ترغب بالقول بأنك تريد أن تهاجر. تمام؟؟
- نعم، على الرغم من صعوبة الموقف وفراقكم وفراق الضيعة، أنا متعب يا هدى. بعشيقة تحولت إلى مدينة وحوش وأشباح. كيف لي أن أعيش هنا، وفي هذا الوضع من دونك؟ ثم لا مال لدينا ليسد رمق عيشنا. فكيف لك أن تهاجر وتتركنا؟ وكم يكلف ذلك؟
- سأبيع البيت.
- أي بيت؟
- بيتنا في بعشيقة.
- وكيف تبيعه والمنطقة بأكملها تحت سيطرة داعش.
- هناك أصحاب عقارات ودلالون يشترون المنازل بأسعار أرخص من السعر الحقيقي لمن يرغب البيع فيعطون نصف الثمن وإذا كان البيت سالماً بعد التحرير يعطون الباقي، سمعت أن عدداً من أهالي بعشيقة وبحزاني باعوا بيوتهم بهذه الطريقة وقبضوا الثمن ومنهم من استخدمه للهجرة ومنهم من يتصرف

به في أزمة النزوح.

- لا أعرف ما أقول لك، فالقرار قرارك، لكن تذكر أن البيت ملاذنا وعانينا كثيراً ليكون لنا بيت في بعشيقة.

تباعدت أيديهما لا إرادياً، بعد قبضة قوية أحكمها على أصابعها شوقاً وألماً. انفرط عقد التشابك ليعودا إلى غرفتهما القماشية في قاعة مدرسة كولستان. في آخر الليل كانت هدى تبكي بدموع ساخنة يسمع نشيجها وأنينها الخافت اضطره الحال بلطع دموعها ليذهبا في إغفاءة محبين على أمل النجاة من هذا المأزق.

١٦

وليد أبو الچوب [1] مواطن من بعشيقة وبحزاني طويل القامة ضعيف البنية بشعر أصفر مجعد وعينين زرقاوين، كل هذا الوسامة لا تظهر ما تخفيه نفسه من شرور وجرائم، ومع هذا فهو صادق بوعده عندما يعد يفي بوعده يعمل في مجال التهريب البشري، لا يأخذ مبلغاً حتى يصل الشخص إلى ألمانيا، لذلك يُقبل عليه كل من يود الهجرة. المبلغ المدفوع إلى وليد لا يخضع إلى المساومة وهو متفاوت حسب طريقة التهريب. على أن يودع تكلفة التهريب عند طرف محايد عند وصول المهاجر إلى مبتغاه. لكن الموت ليس من ضمن الشروط، فهو من الأقدار غير المضمونة.

قرر سليمان التعامل معه، ذات يوم وصل سليمان لمكتب وليد، شاهد أمام المكتب العديد من الناس ومنهم امرأة سنجارية عجوز تجاوزت السبعين عاماً تبكي وهي جالسة وحدها على قارعة الطريق. بادرها سليمان القول:

- لماذا تبكين خالتي؟
- يقول وليد إن سفرنا غداً لألمانيا.
- ولماذا تبكين؟ ألا يعجبك ذلك؟

---

(١) الجوب، هو القارب المصنوع من المطاط.

- لا. أكيد لا يعجبني.

- لماذا؟ فهناك الحياة أجمل فأنتِ كما يبدو بصحة جيدة.

- وما فائدة الصحة لامرأة مثلي العمر شارف على نهايته. يا ولدي إن عمري ليس فيه بعد فسحة للهجرة والسفر عبر البحار وقطع الغابات والعيش في الغربة، هذا صعب على عجوز مثلي.

- كلامك صحيح، دعيه يهاجر وأنت ابقي هنا مع بقية عائلتك.

- هذا هو ابني الوحيد وزوجته تضغط عليه للهجرة. بسبب هجرة كل أقاربها وحديثهم اليومي معها بالهاتف للضغط عليه لمغادرة البلاد، لا أعرف ما يضمره الغيب له ولنا.

- هناك الحياة أفضل وأجمل من هنا يا خالة.

- هناك ليست الأرض أرضنا، لا الماء ولا الهواء لنا. كُنت صغيرة هاجرنا من تركيا إلى سنجار بسبب الفرمان[1]. جئنا ونحن صغار أنا وأخي الكبير فقط، عائلتي تمَّ قتلهم. عشت مع عشيرة زوجي. عملت لديهم راعية في مراعيهم، لم أخرج من سنجار إلى غاية يوم النزوح الأخير. سأموت إن عشت خارجها، حتى عندما دخل داعش مدينتنا طلبت من ابني أن يتركوني في المنزل، كي أخفِّف من حمل سيارته، لرغبتي بأن أموت في أرضي.

- كلامك صحيح خالتي، الأرض هي من مقدسات الحياة، التي يجب أن لا نفرط بها، ولكن مع الأسف نحن نفرط بها كل فترة، حتى باتت أرضنا مرتعاً للغرباء، ونحن أصبحنا غرباء في أراضي الغير، الذين لا يؤمنون بأرضهم، لن يكون لهم وجود وسيفقدون كرامتهم خارجها.

---

[1] يطلق بعض الإيزيدية كتسمية مجازية على حملات الإبادة التي ارتكبتها الدولة العثمانية بحقهم اسم الفرمان.

نهضت بتثاقل عندما جاء ولدها الذي خرج من مكتب "وليد أبو الجوب القچغچي" بادياً فرحته بالاتفاق النهائي للهجرة، ألقى السلام على سليمان وقالت هي بكل محبة: "مع السلامة يا بني."

ودعها سليمان ولكنها زرعت في داخله أسئلة كثيرة: " ماذا فعلت بي هذه العجوز السنجارية؟" دخل سليمان إلى مكتب وليد، وجده جالساً في مكانه، ثمة صورة لشلال ماء دافق خلفه وأمامه تتوزع مجموعة من هواتف تدق وترسل وتستقبل رسائل عدة كأي مسؤول عظيم في دولة ما.

ألقى سليمان التحية عليهم، فثمة زبائن آخرون ينتظمون في الجلوس. أشار وليد إلى صبي صغير كان يعمل بمعية مكتب وليد لجلب الشاي للزبون الجديد. تحدَّث وليد بهاتفه لأحد المهربين كما علم سليمان من حديثه أنه يسأل عن مصير شخص فُقد أثره في الغابات، بدا أيضاً أن بعض الجالسين من ذوي المفقود، كان وليد يتحدث بهدوء غريب كأنه يسأل عن نعجة تاهت من القطيع في غابة وليس إنساناً غدا مجرد ذاتٍ مجهولة.

أنهى مكالمته وراح يتفحص سليمان الذي يحتسي الشاي على مهل، بادر وليد بالحديث:

- الله بالخير سليمان.
- الله بالخير أخ وليد.
- أتفضل كيف أستطيع مساعدتك؟. من دون مقدمات بدأ وليد الحديث.
- تعرف لماذا أكون هنا في مكتبك.
- نعم أعرف. لا يوجد عندي مهرب لك، سوى البحر. هناك قارب جيد وجديد لملَّاح سوري. سيأخذك إلى اليونان ومن ثم

سينتظرك شخص آخر يوصلك إلى النمسا ثم تذهب أنت إلى ألمانيا وتنتهي مهمتي بعد اتصالك من مكانك الجديد ووطنك الجنة الموعودة استلم المبلغ.

- وكم يكلف ذلك؟

- ٩٠٠٠ دولار توضع كأمانة عند شخص أمين نتفق عليه إذا وصلت بسلام استلم المبلغ كما ذكرت لك، وإذا لم تصل لا حقَّ لي بأي شيء. إلا الموت أو الغرق، لا سمح الله، فالأقدار لا ألتزم بها.

- موافق ولكن لديَّ سؤال أخير. متى موعد السفر؟

- بعد أسبوع أو أسبوعين كما ترغب.

- هل يوجد مهاجرون معي من بعشيقة وبحزاني؟ هل هناك أيزيديُّون معي في السفرة؟

- كل الذين معك هم من بعشيقة وبحزاني وسنجار والشيخان، أغلبهم أيزيديُّون.

١٧

في ليلة ما قبل الرحيل، وبعد بكاء مرير لساعات مع هدى زوجته وابنتيه على الفراق المرتقب والهجرة القسرية، قرر سليمان فيها قراره التاريخي بعد إتمام كافة الأمور مع وليد وبكل التفاصيل، حتى ثمن الهجرة تم إبرام الاتفاق عليه كاملاً. قال له وليد: "ستكون أنت ومجموعة من أربعة عشر آخرين مستعدين يوم الجمعة القادم. تغادرون عبر مطار أربيل إلى تركيا سنلتقي في المطار. هناك نتفق على كل شيء، سيكون معك جماعتك الأيزيدية، لا تخف، ابتسم حتى لا تشعر بوحشة السفر. ها... نسيت أن أخبرك. لا تأتي بالشروال، البس بنطالاً، واستعد للحياة الجديدة."

غبطت سليمان رعشة الفرح. ابتسم وتركه مودعاً. كانت عدة أفكار تتصادم وتتصارع في مخيلته ثمة مشاهد لا تعد ولا تحصى لشكل الحياة المقبلة في بلاد الغربة. أسئلة من غير أجوبة تعصف في رأسه الأشيب.

لم يكن يعلم من أين يبدأ، كيف يتم الحوار مع زوجته من دون بكاء أو دموع، نادى على عائلته وطلب منهم الجلوس في غرفة القماش المكعبة. سألته زوجته: " ماذا بك سليمان؟" قال لها: " الجمعة القادم سيكون موعد السفر؟"

فاجأ زوجته وابنتيه، لم تكن هدى تعلم بأن الهجرة ستكون بهذه السرعة. مما عجَّل الخبر في انهمار دموع الأربعة معاً. حاول الحديث بهدوء مجدداً مع هدى كأنه يحدِّث نفسه قائلاً: " تذوقت مرارة الحياة وصعوبتها في هذه البلاد من شمالها إلى جنوبها، منذ سنين طويلة أقول، إن الغد قد يكون أفضل، سمعت هذا الكلام من والديَّ - الله يرحمهما- لكن هذا الغد ومع الأسف كان أسوأ، والمستقبل اليوم مجهول. خرجت من محن عظيمة ولم أمت، شاهدت بعشيقة الحبيبة تنهار وتُدنَّس أمام عينيَّ ولم أمت، شاهدت أهلي وأبناء مدينتي يتغيرون ويلبسون أثواباً جديدة بعد محنة النزوح ولم أمت، مشيئة الله كانت أقوى، وإلا كنت أنا أيضاً من ضمن الرؤوس المقطوعة، ديانتنا كانت ولم تزل مولد عذاباتنا، وهي أيضا ترسم أقدارنا.

إن حكاية داعش وسيطرته على مناطقنا قد تطول كثيراً، وربما الأزمات في مناطقنا بعد ذلك ستطول أيضا، وأنا رجل قارب من الشيخوخة، وليس لديكن أخٌ يحميكنَّ من غدر الزمن، الرحيل قدري من أجل بصيص أمل يلوح كقمر بين السحب، أمل بأن نجتمع في جنة الغرب ونمضي باقي الحياة هناك. في ألمانيا ستكون الحياة أفضل لمستقبلنا، على الرغم من أن شوقي لبعشيقة وبحزاني سيكون عظيماً."

كان يحاول أن يطمئن نفسه قبل أهله، وكأنها كلماته الأخيرة مع عائلته.

باع البيت في بعشيقة ووزع ثمنه بين المهرب ومصروف للعائلة. تألمت هدى كثيرا على تلك البيعة. حسرة كبيرة في النفس لازمتها طوال حياتها.

انتهى الحديث، خرجت ابنتاه لصديقات لهنَّ في خارج القاعة حيث يجلسن هناك، تمدد في فراشه إلى الأرض، استلقت هدى إلى

جانبه وضع يده على خدها وأبعد شعرها الخمري الجميل من وجهها، بدت حزينة حزن الطيور المهاجرة، بانت عليها علامات اليأس والرغبة في الانفجار بالبكاء، أشاحت بوجهها عنه كي لا تهبط عزيمته. همست له:

- سليمان.... سأشتاق إليك. المسؤولية كبيرة ولكنني سأكون مقتدرة على تحملها. لماذا لا نرحل معاً أو نبقى معاً ؟

مدَّ يده إلى وجهها، تحسس دفء الدموع الساخنة على خديها وضغط ببطء على وجهها وزفر بحسرة كبيرة وكان لا يقل حزناً عنها. وقال:

- إن المبلغ الذي ابتعت فيه الدار لا يكفي لنا جميعاً للرحيل معاً، كذلك يتحدث المهاجرون عن قصص مرعبة في البحار والغابات، لن أترككم فريسة لجحيم أقسى من هذا الجحيم.

***

في صباح يوم الجمعة المرتقب حمل سليمان حقيبته مودعاً عائلته بالبكاء والأحضان الساخنة. ثم ركب سيارة الأجرة بقلب راجف وألم يوخز وجدانه وانطلق في رحلته المجهولة. انتظر بعض الأصدقاء الذين سيرافقونه في رحلته الطويلة.

أشرقت الشمس على سفح جبل دهوك الجميل وانعكست على الأشجار والبيوت الصامتة بأحزانها. نسائم الفجر الأولى داعبت ذاكرته من تاريخ حياته وعذاباته التي لا تنتهي.

انعطف الطريق من دهوك مروراً بقرية باعذرى، فالشيخان ثم طريق أربيل وهو يشاهد من بعيد جبل بعشيقة وبحزاني، تذكر كيف عاد من هذا الطريق وصعد الجبل عند عودته إلى بعشيقة قبيل دخول

داعش بأيام فقط. أسند رأسه إلى زجاج نافذة السيارة ثم أغمض عينيه وخاطب الجبل الحزين: " هل يا ترى سأقف عليك مرة أخرى؟"

انتبه لصوت راديو السيارة يطلق بهدوء أغنية فيروز "يا جبل البعيد خلفك حبايبنا".

بلع ريقه بصعوبة، حاول أن يكتم نشيج البكاء المتصاعد عنده.، لذلك تظاهر بالنوم.

في مطار أربيل كان ينتظرهم وليد بشكل نشيط وبهمة عالية عند باب المطار يحمل كل لوازم سفرهم وجوازاتهم وبطاقات السفر، سلمها لهم قبل أن يدخلوا الصالة الأولى وقال لهم:" اتبعوني ولكن دون أن يحس أحدٌ بمعرفتنا ببعض، لا يجب أن نظهر بمظهر الجماعة المتفقة على أمر، افعلوا ما أقوله لكم بالضبط."

كان وليد يتلفت في كل الاتجاهات وبحزم، ملامح وجهه تغيرت ثم استدرك قائلاً:" سنلتقي بعدما نخرج من مطار إسطنبول."

استلم الجميع جوازاتهم، مع بطاقات السفر في أثناء وصولهم إلى صالة المطار. شاهد سليمان الكثير من العوائل أغلبهم من الأيزيدية. حضروا من مناطق مختلفة. لم يكلمهم لكنه عرفهم من أزياء النساء التراثية، وشوارب رجالهم، كان يردد مع نفسه: " الأيزيدي معروف شكله أينما كان فدماؤنا نقية، لأنها لا تختلط بدماء آخرين. هذا هو سر النقاء"

تفاجأ من ضخامة جسد الطائرة من الخارج من عظمة هاتين الجناحين العملاقين، كانت الطائرة تعج بصراخ الأطفال والعجائز، لكن صراخهم هو دعوة للاطمئنان، أقلعت الطائرة في هدير متصاعد وبسرعة فائقة تكاثفت الأحلام كغيوم الشتاء عليه ثم غط في نوم عميق.

شاهد في منامه خالة (حسنة) تبتسم في وجهه، هي بملابسها البيض تقف هناك في باحة مزار ملك ميران تنظر إلى الجبل والأشجار القريبة من بعشيقة، كأنها تقول له بلغتها. سليمان ((لين كنت غيح؟!))[1] جفل سليمان من غفوته على اهتزاز الطائرة، نظر من النافذة، شاهد سلسلة جبال صفراء ثم تتبعها مساحات خضر، توهم أنها بعشيقة وبحزاني فقال لشخص كان بجواره ومن مواطنيه أعتقد أننا فوق بعشيقة وبحزاني الآن.

(١) في اللهجة المحلية والتي تعني (إلى أين أنت ذاهب؟).

١٨

كانت مدينة إسطنبول بالنسبة لسليمان مدينةً ساحرةً، عالماً جديداً من الأناقة والجمال والقوانين والطبيعة المتصالحة مع البشر، أزقتها ومزارع الذرة الصفراء والبيوت بطرازها الغربي، ومطاعمها، نساء بيض يخطفن مسرعات.

سكن سليمان في منطقة أقسراي. بمجمع من ثلاث شقق متجاورة. استأجرها لهم وليد داخل عمارة، وسط هذه المنطقة التي تعج بالناس من مختلف الجنسيات، تصور للوهلة الأولى نفسه في أسواق الموصل. كانت المدينة محطة استراحة مؤقتة للمهاجرين يمكثون فيها لأيام ثم ينتقلون إلى مدينة أخرى استعداداً لمغامرة عبور البحر ، أو قطع الغابات حسب الاتفاق مع المهربين.

كانت الشقق التي استأجرها وليد تقع ضمن الاتفاق الكلي، معهم شقتان للعوائل وواحدة لهم. وهي قريبة من الشارع الرئيس الذي يربط أقسراي بالبحر. واجهة العمارة التي تضم الشقق كانت مائلة إلى اللون الأحمر بخدمات متواضعة، حيطانها جرداء بمدفئة بيضاء قديمة تعمل على الكهرباء وضعت في زاوية الغرفة، وسجاد أحمر قديم أنهكه الزبائن مع تلفاز صغير وثلاثة كراسٍ وطاولة طعام بسيطة وثلاثة أسرة خشبية بالإضافة إلى ثلاجة، الشقق صممت أو خصصت لتكون مقرّاً مؤقتاً لمن يسكنها من مهاجرين ومهربين

وزبائن تقطعت بهم السبل.

تحدث بعض من التقاهم سليمان في الشارع المحاذي عن محاولات فاشلة للهجرة. فشلوا في عبور البحر من جانب اليونان. جلس الشباب حتى الفجر يتحدثون عن تطلعاتهم في الحياة الآمنة المرتقبة.

بعد يومين فقط خرج سليمان إلى اكتشاف زوايا أخرى من المدينة، شعر باختناق بعدما رفض عرض أصدقائه للخروج معاً، المدينة فسيحة. تمر السفن على البحر برهبة لتجتاز جسر البسفور، كان الهواء عليلاً بارداً منعشاً يذكره بهواء مدينته عندما يغسلها المطر في الربيع. وقتها كان يذهب إلى أعلى الجبل مع نخبة من الأصدقاء ليرتقي قمة كُسرقي[1] فتنبسط أمامه سهول بعشيقة وما حولها الغيوم التي لم تفقد حمولتها بعد من الأمطار تتعلق وتقترب من بساتين الزيتون.

في إسطنبول تشاهد كافة الأجناس جاؤوا إليها لأسباب عديدة: للسياحة أو التجارة، جاؤوا للمتعة بالحياة الحرة، أو مهاجرون تركوا بلدانهم يبحثون عن بلاد بعيدة آمنة عن هاجس الحروب، منفيُّون بسبب سياسات بلدانهم القمعية والاضطهاد.

في المساء تزداد إسطنبول جمالاً، فالأضواء تنعكس على الشواطئ التي تزدحم بالناس والأغاني والعشاق، كل شيء جميل في هذه المدينة التي سرقها العثمانيون من المسيحيين، هكذا كان يقول لهم أستاذ أبلحد أفرام عندما كان يحدِّثهم على الدولة العثمانية، وقتها لم يكن يعلم كيف سرقت وماذا كان يقصد بكلمة سرقة، ولكنه عندما علم بقصتها وجمالها أدرك فكرة السرقة.

ذات يوم عاد إلى شقته وجلس مع أصدقائه حيث كانوا يلعبون الدومينو وأصواتهم تتعالى. ابتعد عنهم قليلاً وبالقرب من باب الشقة

---

(١) قمة في جبل بعشيقة.

اتصل بهدى. تكلم معها عن وضعهم وعن حال البنتين. أخبرته بأنها تبحث الآن عن بيت مناسب لتنتقل إليه مع بدء العام الدراسي. فهناك توجيهات وردت من الحكومة بأن يتم إفراغ المدارس استعداداً للعام الدراسي الجديد. شجعها على هذه الفكرة طالما أن المال متوفر، ريثما يصل إلى ألمانيا، قال لها: إنه سيذهب غداً أو بعد غد إلى أزمير القريبة من البحر. سينتظرهم قارب السعادة وسينقلهم إلى الطرف الآخر حيث الأمل بحياة جديدة.

عندما عاد إلى جماعته داخل الشقة لمح شيخ بركات وزوجته هوري خارجين من إحدى الشقق المجاورة تفاجأ وفرح لرؤيتهما، فلم يلمحهما في الطائرة التي أقلتهم من أربيل إلى تركيا، شعر بالارتياح لوجودهما، يشعر بالارتياح عندما يرى أحداً من أبناء منطقته، تقدم نحوهما وقال بصوت تعلوه الابتسامة:

- مرحباً؛ كيف حالكم؟

كانت شيخة هوري ما زالت في ملابسها التراثية القديمة تعتلي في رأسها طربوشاً[1] ملفوفاً بقماش سميك أسود ووشاح أبيض ومئزر أحمر مع سترة تلمع بلونها الأسود. ثم ربطت على خصرها حزاماً رمادياً مرقشاً بورود بيضاء صغيرة وقميص يصل إلى أخمص رجليها. هذه الأزياء التي تشعره بسعادة غامرة، تقدم نحوها وقبل اليد اليمنى فقبلت رأسه[2].

قالت له:

- ها سليمان. أهذا أنت ايش جابك لهوني؟

---

(١) يسمى النيز باللهجة المحلية، وهو من الملابس التراثية القديمة الذي ترتديه النساء في بعشيقة وبحزاني وبعض مناطق الأيزيدية.

(٢) تقبيل اليد من العادات والتقاليد المتبعة في الأيزيدية مع الشيوخ وهي تعبير عن الاحترام للنسل الديني للشيخ.

ابتسم ثم أردف قائلاً:

- اللي جابك لهنا هو الذي أتى بي. قالها بلغته البعشيقية. ابتسمت وقالت له بصوت واثق:

- ما اعرف لماذا هذه المعاناة "البهدلي" التي وضعنا أنفسنا فيها. أجبرني أولادي وأحفادي الذين هاجروا قبلنا أقنعونا أنا وعمك الشيخ بالهجرة إلى ألمانيا أو أية دولة أوروبية. يقولون إن الحياة هناك أجمل، والعلاج لنا نحن كبار السن مجاني وأنا لدي السكري وذبحة صدرية، وشيخك ما شاء الله يعاني أيضاً من ضغط وسكري ونحتاج لرعاية خاصة. وأنت تعرف أنه لم يبق لنا أحد في بعشيقة، بيتنا هناك كبير وموحش بدون أولادنا وأحفادنا. أنا وشيخك - وأشارت بيدها إلى الشيخ بركات الذي كان واقفاً أمام الباب يقلب بهاتفه النقال ليبحث عن رقم ما ليتصل به.

كان الشيخ معلماً قديماً طويل القامة ضعيف البنية صارماً منذ عرفناه. معلم قليل الكلام. كان وجهاً معروفاً في الضيعة، شاءت الأقدار أن يهاجر الأبناء والبنات ويبقى وحيداً مع هوري في بيت كبير بطراز شرقي وسط بعشيقة، لم تغلق أبوابه ليلاً، يصدح بالأصوات والأغاني بسبب الحركة الدائمة فيه من أولاده وأصدقائهم وأحفادهم قبل هجرتهم.

في أثناء وقوف سليمان معهما كان باب الشقة مفتوحاً، لذلك لمح من بعيد إيمان، تلك الفتاة الجميلة التي استغرب لرؤيتها فقال للشيخة هوري مستفهماً.

- اعتقد شيختي هناك الكثير من أبناء الضيعة معكم؟

فقالت الشيخة بصوت عالٍ وكلمة ممدودة

- لم يبقى أحد في الضيعة.

كانت إيمان التي لمحها سليمان على باب الشقة، فتاة في غاية الجمال تتحدث الضيعة عن جمالها تقارب من عمر الأربعين، أنوثة طاغية، بشعر خمري كثيف، تجمع خصلاته بطريقة ساحرة كذيل حصان جامح، على وجهها شامة، وضعت على خدها الأيمن، مثيرة كعلامة جذب خارقة. شفتان مثيرتان مثل حبتي لوز، ناعمتان ورقيقتان. سليمان يعرفها مذ كانت شابة يافعة كغزالة ضيعة هاربة، فبيت أبيها قريب من بيته القديم في محلة السوق في بعشيقة، سبق أن هاجر زوجها هلال إلى ألمانيا في ٢٠٠٧. في الوقت الذي أقدم تنظيم القاعدة في ربيع ذلك العام على قتل ٢٤ أيزيديًا، كانوا يعملون في معمل الخياطة والنسيج في الموصل. إذ أجبرهم المتطرفون على أن يتجه الباص إلى احد احياء الموصل حيث قاموا بقتلهم برصاص وسط صيحات (الله أكبر). لذلك بدأ موسم هجرة الايزيديين بالجملة. هاجر زوجها، وهو من عائلة شيوعية معروفة، أما إيمان ابنة البعثي المتشدد عطا الله التي أحبت هلالاً، فالحب فوق الانتماءات الحزبية، حاول والدها مراراً وتكراراً منعها منه، لكنها ذات ليلة هربت معه وعلى أثر ذلك اعتقلت الشرطة عائلة هلال، وحُوصر منزلهم ثم اقتحمته القوات للبحث عن هلال وإيمان. تدخل أهالي المنطقة ورجال الدين لإعادة الصلح بين العائلتين. كان شرط والدها أن لا تدخل المنزل أبداً، وأن تبتعد عن بعشيقة وبحزاني، قبلت بهذا الشرط وبقيت في عين سفني (قضاء الشيخان) إلى أن هوى تمثال صدام في ٩/ ٤/ ٢٠٠٣، أمام عيني أبيها، تأثر كثيراً فأصابته جلطة دماغية أفقدته وعيه. يتذكر سليمان قصتها الشهيرة بكل ألمها وهوس الحب فيها.

عاد بعد ذلك إلى الغرفة يجالس أصدقاءه الذين كانوا منهكين

بلعب الورق والدومينو، إلى أن جاءهم اتصال من القجقجي وإليا.
يخبرهم بأن يستعدوا لموعد سفرهم غداً فتغيرت الأحوال في الشقة
استعداداً للسفر.

١٩

في صباح اليوم التالي نقلت المجموعةَ سياراتٌ خاصةٌ من أقسراي إلى أزمير، وبعد طريق طويل ومتعب وصلوا أزمير بعد الظهر، مدينة شاطئية هادئة عبارة عن غابات خضر. أشار أحدهم بيده إلى البحر الذي سيعبرونه إلى الجانب الآخر من اليونان في الطريق إلى الجنة. الجميع يترقبون بحذر وخوف من المفاجآت.

في أثناء لحظة الوصول والنزول من السيارات في تلك الظهيرة الدافئة، كان عليهم وحسب التعليمات الانتقال المباشر إلى منطقة محاذية إلى شاطئ البحر، استعداداً للإبحار غير الشرعي بقوارب مطاطية ليلاً، وربما فجراً.

الحشد كبير من رجال ونساء وأطفال ومرضى ومعاقين. شاهد سليمان عدداً من الوجوه التي لم تكن معه في الشقة، ربما كان وليد يوزع زبائنه على أمكنة عدة!

طلب وليد من الجميع أن يتبعوه، أخذهم إلى مكان داخل إحدى الغابات المحاذية للشاطئ. شاهد سليمان بناية تشبه بتصميمها مخفرَ شرطة مهجوراً. فيها العديد من الغرف. يتم الدخول إليها من باب واسع مطل على الغابة.

طلب منهم وليد الذي فتح الباب الرئيس بيديه وأدخلهم إلى داخل هذه البناية، قام بتوزيعهم على الغرف ما بين العوائل والشباب، أخذ

سليمان غرفة مع عدد من شباب المنطقة الذين كانوا من ضمن الذين سيدخلون مغامرة عبور البحر معه؛ "فراس الشيخ"، هذا الشاب الوسيم الممشوق القوام ذو الشعر الأسود. فراس من أشهر عازفي البزق في بحزاني، لا يكاد أحد من الضيعة لا يعرف "فراس الشيخ". كان فراس ينتمي لعائلة فقيرة ومحافظة وكان معروفاً في الضيعة بعزفه الجميل بالاضافة الى علاقة الحب التي جمعته مع فتاة من بعشيقة تختلف عن طبقته وفق الشرع الأيزيدي[1] ومع ذلك فقد كانت هائمة بحبه، وكانت قصة حبه يعرفها الكثير من أبناء جيله. ذات يوم هاجمه أهلها وأشبعوه ضرباً، في النهاية تزوجت حبيبته أو أجبرت على الزواج من شخص يسمح لها الشرع بالزواج منه. أما فراس فراح ينزوي وحيداً مع طنبورته (البزق) رافضاً الزواج على الرغم من كل محاولات عائلته بتزويجه. غدا شاباً مكسور القلب، مثل بلبل أصيب بمرض في حنجرته. قرر فراس الهجرة في آخر المطاف للخلاص من معاناته بالاضافة الى عوز و فقر عائلته والحاحهم عليه للسفر لمساعدتهم ولعل قرار سفره هذا يكون علاجاً لجُرح قلبه الذي لم يندمل، فجمعته في أزمير الغرفة مع سليمان، وفي الغرفة المجاورة بقيت شيخة هوري مع شيخ بركات وإيمان، أما في الغرفة الأخرى فقد خصصت لعوائل أخرى من مناطق أيزيدية مختلفة، مع غرفة كبيرة لعوائل سوريَّة وجنسيات أخرى.

تنقَّل وليد بين الغرف، وأبلغهم بأن موعد سفرهم سيكون الساعة السادسة مساءً. نقطة التجمع عند الشاطئ المقابل استعداداً لعبور البحر باتجاه اليونان، أبلغ الجميع بعدم الأكل كثيراً كي لا يتأثروا بدوار البحر، وأن يلبسوا ملابس ثقيلة ضد الرطوبة والماء تقيهم البرد والرذاذ. وأن يستغنوا عن الحاجيات غير اللازمة.

---

(١) تنقسم الأيزيدية إلى طبقات دينية هي (شيخ وبير ومريد) يمنع التزاوج فيما بينها.

في تمام الساعة السادسة دخل وليد البناية، وصاح بالجميع على التهيئة لمغادرة المبنى فوراً. قال وليد: "سنذهب الآن إلى الشاطئ. هناك ستركبون البحر، العوائل ستعطي أطفالها مادة المنوّم. والحقائب الزائدة سترمى في البحر، فوزن القارب لا يحتمل كل حقائبكم، ليكن معكم فقط ما تحتاجون إليه. ما هي إلا سويعات وتكونون في أوروبا، ربّان القارب اوالكابتن شاب سوري لا تدخلوا معه في نقاشات هو يعرف عمله ووجهته وطريق البحر. هناك هاتف واحد فقط لدى فراس وهو سيتواصل بينكم وبين الجانب الآخر ومعنا. بمجرد دخولكم البحر سأستلم بقية المبلغ. هل لديكم أسئلة؟"

أول المتحدِّثين كانت إيمان. تحدثت بصوت خافت وخجول قائلة: "لدي أغراض كثيرة جلبتها ولا أرغب في تركها هل يمكن إعادتها إلى بعشيقة ؟ أجابها وليد: "نعم؛ ضعيها هنا وسيتم إرجاعها". كان يكذب عليها طبعاً، ولكنه لم يكن يستطيع أن يرفض طلبها لحدة جمالها الباذخ.

صدح صوت الشيخ بركات عالياً واثقاً: " وكيف لي أن أطمئنَ أولادي عنّا؟" رد عليه وليد: "الذي يرغب بالاتصال مع أهله يتصل الآن، بعدها سيكون ممنوعاً."

***

ركب الجميع في باص قديم يعمل على الشاطئ. ومع آخر غروب للشمس على أرض تركيا، حلَّ الظلام بكثافة، مما زاد في عتمة الغابات وصادف هبوب نسيم بارد على الوجوه الخائفة، وليد يتحدث بهمس مع سائق الباص بلغة تركية وكلمات عربية مع إشارات اليدين. ما هي إلا دقائق وبدأت رياح البحر ورائحته الزفرة ورطوبته العالية

تقترب منهم، تكاثفت عليهم العتمة، وهدير الأمواج العالية تضرب وجه البحر بقوة.

نزل الجميع من الباص على الساحل، مشوا في طريق غير معبد، فيه صخور صغيرة وأحجار مبعثرة مع رمال وحصى، وبعد مسير قليل تحت بقايا ضوء شحيح للقمر تضخَّم صوت الأمواج الصاخبة بجنون.

وقف وليد على صخرة عالية نسبيّاً ومن خلفه يقف المركب الأبيض يتهادى مع حركة الأمواج. تحدث وليد بكلام قاطع وواثق: "هذا المركب الذي ورائي سينقلكم بعد ساعة تقريباً إلى الجانب اليوناني، كما قلت لكم سابقاً، البحار سوري ولا حاجة للحديث معه، دعوه يركز في ضبط مسارات الرحلة، أنتم وسط البحر الذي لا يؤتمن، أما الأغراض الزائدة عليكم بوضعها هنا سأنتظر اتصالاً منكم وتخبرون أهاليكم لإعطائي بقية المبلغ."

استسلم الجميع للأوامر الصارمة من وليد، صعدوا صاغرين كالقطيع واحداً تلو الآخر إلى بطن القارب. كان سليمان أول من ركب وراح يساعد الآخرين في القفز.

فسليمان كما هو معروف عنه رجلٌ شهم، فمسك بيد شيخ بركات وشيخة هوري وأصعدهما بعد ذلك ساعد إيمان في صعودها المركب، وصل العدد الكلي إلى ٢٥ شخصاً يقود المركب جان السوري، لم يتكلم بشيء، سوى أنه قال لهم: "لقد خضت المغامرة لأكثر من مرة". قام بتوزيعهم حسب عملية توازن كفتي القارب واضعين أمتعتهم أمامهم.

ترك الخوف أثره على الجميع، وكأنهم يصعدون إلى دكة الإعدام طواعية.

جلس سليمان في نهاية القارب قريباً من المحرك وصوته العالي،

ثم جلس إلى جواره فراس الشيخ، فيما جلست إيمان الجميلة في الجانب الآخر، بجانبها يجلس شاب سوري، يتوزع البقية على جانبي القارب بالتساوي كي لا يحدث ميل كفة على أخرى، والأمتعة تتوسط بطن القارب المطاط الأبيض.

شق القارب طريقه في عباب البحر المظلم، تعكس الأمواج التي تضرب القارب برقاً يغشي النظر وتخفق له القلوب، زاد جان الربان من سرعة الانطلاق فازدادت القلوب إخفاقاً، ثمة التماعات لأضواء بعيدة يتطلع إليها سليمان، يظنها السواحل اليونانية، لكنها سرعان ما تختفي مع دوران القارب، الرجال يترقبون، والنساء عيونهن ترنو نحو مستقبل تعبث به الأمواج والريح فيما فعل المخدِّر فعلته فنام الأطفال نوماً طويلاً.

يعلو صوت شجي من طرف القارب البعيد يغني بصوت خافت كي يطرد الخوف ووحشة البحر وغدره، كان صوت المغني متذبذباً في العلو والخفوت، متناغماً مع مويجات مرحة تضرب قفا القارب بموال من أغنية كردية. لم يفهم سليمان كلمات الأغنية، ولكن الشجن تفتق بتلك اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت.

عاد الهدوء من جديد وصمت المغني. بعدما نشطت الأمواج العالية تهزهز القارب صعوداً ونزولاً. كل موجة تتبع أخرى أعتى من الأولى. اختفى القمر من السماء متوارياً خلف السحب الراكضة إلى حتفها. لم تعد تلتمع النجوم في صفحة السماء السوداء. مع كل موجة تشهق الأرواح اللائبة من خوف رهيب. لا يسمع سوى أدعية وصلوات تقرباً إلى الله كي يحفظهم بتلك اللحظات الرهيبة قال لهم جان السوري: " لا تخافوا ليست سوى دقائق ونكون على الساحل" ربما كان يكذب، لكن الأمواج تعمل بقوة وهي ترفع القارب بضعة أمتار عن مستوى البحر ثم

تهبط به إلى الأسفل، بدا القارب كلعبة صغيرة بيد طفل مشاغب، يرتفع عالياً ويهبط بقوة للأسفل، دخلت مياه البحر إلى بطن القارب، بدا جان مرتبكاً، ربما كان متسرعاً في قيادة القارب أو دخل منطقة الخطر، لذلك حاول أن يخفف من سرعته، لم يستطع مقاومة الأمواج الهائجة.

في تلك اللحظة فقط امتدت يد من السماء لتمسح على قلوب تلك الثلة المعذبة من البشر. لمح جان من بعيد حزمة أضواء تقترب من القارب، فظن أنهم حرس سواحل تركية، حتما ستنهي فرصتهم في العبور، لذلك ضغط على مكبس المحرك ليزيد من سرعة القارب، مال قليلاً منطلقاً بشكل مائل لتجنب الأمواج مبتعداً عن مصدر الأضواء المجهولة، لكن الأمواج العالية ضربته هذه المرة بشكلٍ أرعب قلوب الجميع بما فيهم سليمان.

تمدد الشيخ بركات على أرض القارب بسبب الامواج القوية، فساعدته الشيخة هوري بأنها ربطت يديهما بقطعة قماش من "غطرة" بيضاء كانت في يديها. اندهش الشيخ لفعلها هذا، لكنها أقنعته بأنهما يعيشان مع بعض ويموتان مع بعض كقطعة واحدة من الحياة، وكأنها في سرها تخاف الضياع في قارب التيه هذا. اقتربت الأضواء هذه المرة من الساحل، زاد إرباك جان، لكن القارب ارتفع بقوة هذه المرة عالياً ثم هوى إلى الأسفل، انطلق صوت قوي أوقعهم في حيرة مع تصاعد صراخ النساء وعويل الرجال وكأنهم يدخلون في نفق قاتل، حاول سليمان تهدئة الجميع، لكن من دون فائدة بعدما تسربت المياه إلى بطن القارب صاح جان بالجميع: " انثقب القارب، سيغرق القارب"، ورفع صوته بشكل أعلى: "لا تخافوا الشاطئ قريب جداً. توجد حبال طويلة ملفوفة ببعض على جانبي القارب علينا أن نرمي أنفسنا ونستمر بالسباحة بهذه الحبال قبل الغرق."

نثر كلام جان السوري الفزع في القلوب، "ما الذي يقوله هذا المجنون؟!، أين نرمي أنفسنا؟".

قال الشيخ بركات بصوت عالٍ. راح بعض الرجال يتخلصون من حقائب والحاجيات برميها في البحر. كان أول من ألقى نفسه في البحر هو جان الربان يعوم بشكل محترف بعيداً ويرفع صوته: "ارموا أنفسكم. ارموا أنفسكم" كانت المياه تضرب القارب المثقوب وتدخل فيه.

قفز سليمان أول المهاجرين المعذبين، ماسكاً الحبل بيديه. بعدما أدرك أن الشاطئ ليس بعيداً. فثمة أضواء تستقطب سليمان كدليل للنجاة. وما أن رمى نفسه حتى ابتلعته مياه البحر وسحبه تيار دائري إلى الأعماق السحيقة، في تلك اللحظات الفاصلة، كان يعتقد أن سرواله هو السبب الذي رفض استبداله بالبنطرون اثناء رحلة السفر، كان يجيد السباحة بشكل جيد، المياه كانت باردة والملح البحري يملأ صدره. حرك قدميه بشكل متعاقب وفاج بكلتا يديه كي يتخلص من الأعماق. الحياة وشغفها وعائلته تدفعه للتشبث بطوق نجاة، ثمة رهبة من غول الموت تدفعه للتصرف بما تبقى له من زمن على قيد الحياة، هدى وابنتاه وأزقة بعشيقة وبحزاني الجميلة، خالة حسنة، وصورة أوروبا الحلم، صور تتصارع في رأسه، رفس المياه بقوة فنط إلى الأعالي. استنشق الهواء مرة أخرى، عندما بان رأسه فوق مستوى المياه نظر حوله، كان الظلام يعم المكان، ومياه البحر وأمواجه تدفعه بقوة إلى الشاطئ.

لم يرَ أحداً من حوله، حتى القارب لم يرَ له أثراً. تساءل مع نفسه؛ أين غاب الجميع؟ أين القارب؟ أين شيخ بركات وزوجته هوري؟ لا أحد يجيب أحداً في البحار المظلمة.

راح يسبح باتجاه الشاطئ بعد أن تخلص من شرواله. ليكون أكثر رشاقة في العوم. لكن إحساسه بالموت من الحياة كان أقرب له في تلك

اللحظة، واصل السباحة بكل ما يستطيع أن يثبت لنفسه أنه مصر على الحياة بكل ثمن، في تلك اللحظة الفاصلة طفت أمامه كتلٌ سود أكثر قتامة من البحر والليل، كان يخيل إليه أنها أسماك قرش أو ما شابه من غيلان البحار. الأمواج تدفع تلك الكتل نحوه، ضرب إحداها، فكانت جثة الشيخ بركات، الذي فقد عقال رأسه، جثة على قفاها ملقاة في عرض البحر ووثاق الغطرة ما زال بيده موثوقاً مع الشيخة هوري. لكن البحر الغامض اختطف طربوشها وقذفه بعيداً عن الجثتين.

ما زال سليمان يقاوم الموت بالسباحة، لكن هول الفاجعة كسر حدته. مشهد درامي جعل دموعه تتمازج مع مياه البحر، كلما تقدم نحو الشاطئ تتضح صور الجثث الطافية لأطفال ونساء ورجال ببقايا الأزياء الأيزيدية الملونة، إيمان ذات الجسد الجميل، وجهها يسرق من القمر طلته وجماله تطفو على ظهرها بملابسها التي تعبث بها الريح والأمواج، فراس الشيخ ما زال يصارع الموت وهو يمسك بجثة شاب سوري مات غرقاً. اقترب منه سليمان وقال له : " لا تمت أرجوك اصبر سأبحث عن شيء ينقذنا معاً". عثر على خشبة طافية، سحبها نحو فراس. طلب منه أن يحرك قدميه، ووضع سليمان يدي فراس عليها وراحا معاً يجذفان بأقدامهما، وما هي إلا دقائق حتى سطع ضوء قوي في عيونهما. إنه قارب خفر السواحل اليوناني. يتحدثان بلغة غير مفهومة، رمى لهما أحدهم طوق نجاة مربوطاً إلى قاربهم، تعلقا به بقوة كحبل نجاة أخير، بدأ خفر السواحل بسحبهما إلى القارب وما أن صعدا إلى متن القارب اليوناني بدأ فراس يتحدث ويبكي بشكل هستيري: " أنا أيزيدي. أيزيدي". أما سليمان فبكى بحرقة كبيرة والمياه تنساب من كل جسده. كان يرتجف من الخوف

والبرد معاً، انطلق بهما خفر السواحل إلى الشاطئ، بعدما سلم كل واحد منهما بطانية ليتغطيا من البرد بعد أن أجبروهما على التقيؤ لإزالة ملوحة البحر من الرئتين.

بدأ سليمان يسعل بقوة، وضع يده على فمه، رأى مع لعابه بقع دم حمراء، تصور أنها من فعل الإبحار المفاجئ، مشاعر غريبة لم يألفها سليمان في كل تقلبات حياته، مشاعر لا تحمل فرحاً ولا حزناً إنها مشاعر من النوع الغريب تجتاحه في تلك الساعة. بين النجاة والموت شعرة لا ترى بالعين المجردة.

٢٠

سلّمت شرطة خفر السواحل المهاجرين الناجين من الغرق إلى إدارة منظمة الهجرة العالمية، والتي بدورها غطّت بعض حاجاتهم من ملبس ومأكل، ثم جمعتهم مع آلاف آخرين من اللاجئين الأيزيديين والسوريين الفارين من لظى الحرب الدائرة، ثم أركبتهم في سفينة كبيرة نحو اليونان.

في اليونان وبعد يومين فقط استطاع الاتصال بزوجته هدى وأخيه في ألمانيا، مطمئناً الجميع لوصوله إلى اليونان. غير أن فراس الشيخ رفيقه فشل في الاتصال بأخته في ألمانيا لسبب يجهله، فخطها لم يفتح. ظن أنها لا ترد على رقم غريب، أو ربما مشغولة بأمر ما.

انتقل سليمان وفراس بعد ذلك في سيارة رتبت لهم إلى هنغاريا ومنها إلى النمسا. من هناك اتصل فراس بأحد أصدقاء عائلته، من الموجودين هناك. رتب لهما شخص من الشيخان كان قد هاجر إلى النمسا منذ سنين طويلة واستقر فيها سكناً يأويهما مؤقتاً.

في هذه الأثناء ازدادت حالة السعال المتواصل لسليمان. تزعجه الحالة وتحرجه أمام من يلتقي بهم. تحدث فراس عن معاناة المهاجرين وما حصل في أثناء الهجرة. كان سليمان يسعل بشكل متقطع، وأحياناً يخرج مع لعابه دمٌ متقطعٌ. اقترح عليه صاحب المنزل بعد انتهاء الغداء أن يراجع الطبيب في النمسا، لكنه قال له، إنه بصحة جيدة، وإذ

تطلب الأمر سيذهب إلى الطبيب عند وصوله إلى ألمانيا، ثم شكره لاهتمامه بذلك.

لم ينم سليمان ليلتها، فقد بقي يتقلب في فراشه إلى جوار فراس الذي كان يشخر في نوم عميق. يظهر فيه مدى التعب والإرهاق الذي صاحبه. حاول أن يغمض عينيه، ولكنه لم يستطع. تداهمه صور حادثة الغرق وانثقاب القارب مع صور الجثث الطافية وآخرين يقاومون الغرق. حالة من اغتراب وكوابيس حين يغمض عينيه. تذكر إيمان الجميلة وشعرها المبعثر مع الموج. تذكر "الغطرة" التي تربط بين بركات وهوري. تذكر الأطفال وجثثهم الطافية. صور لم تبرح مخيلته. ظل يتساءل مع نفسه. لماذا الله والأولياء الصالحون لم يدافعوا عنا أمام هجمة داعش هذه؟ أين كانت مزاراتنا من هدم داعش لها؟ لماذا لم يدافعوا عن أنفسهم؟ لماذا الله يسهل الأمور إلى الدواعش؟ يمكث الدواعش في الوطن ونحن نهرب إلى بلدان الله الواسعة بحثاً عن ملاذ آمن ؟ لماذا لم يعانوا من ألم الفراق والبعد والموت في البحار؟ لماذا لا يموت الدواعش والأشرار يقابلها موت مجحف لإيمان وبركات وهوري؟؟ أين هو الله من الأيزيدية؟ حدَّق كثيراً في صورة لقباب لالش[1] كانت معلقة في الغرفة أمام ناظريه. كأنه أحسَّ بخطأ أفكاره وتأثير ما شاهده من رحلته.

لم ينم ليلته حتى بانت أولى خيوط الفجر من نافذة غرفته. كانت الأفكار تتصارع في رأسه. في هذه الأثناء تمغَّط فراس وكأنه استيقظ بعد ليلة الشخير هذه، قال سليمان: "يبدو أنك استيقظت. فقد عذبني شخيرك كثيراً. رد فراس: " كنت متعباً جداً. يبدو أنك لم تنم؟" قال

(١) معبد لالش المعبد الرئيس للأيزيدية في العراق والعالم يحج إليه الأيزيديون من كل بقاع العالم، يقع في قضاء الشيخان ما بين محافظة نينوى ودهوك.

سليمان: " لم أستطع النوم مطلقاً."

نهض فراس من فراشه متثائباً ثم قال:

- لا تفكر كثيراً يا سليمان، الله منحنا حياة أخرى بعد حادثة الغرق ومنحنا فرصة في النجاة. لا أرغب أن أكون متشائماً. في كل الأحوال تفكيرنا سابق لأوانه. الأهم نحن قريباً سنكون في ألمانيا. وهذه البداية، لا يجب أن ترهق تفكيرك بما سيأتي، فنحن أولاد اليوم.

رد عليه سليمان

- فراس عزيزي أنت شاب وفي مقتبل العمر، والحياة أمامك، أما أنا فقد ضحيت بعائلتي ومدينتي وتاريخي وعملي والحياة السعيدة التي عشتها هناك على أمل أن أصنع لي حياة جديدة أحلم بها. المستقبل لك، أما أنا ربما قد أخطأت بالهجرة أو ربما تكون بداية جديدة.

حاول فراس أن يرد عليه، ولكن الباب طرق مرتين. دخل صاحب الدار الذي نادى صباح الخير حاملاً في يده طبق الفطور من لبن وجبن وعسل ومقليات وخبز حار. قال لهما: "أتمنى أن لا تخجلوا فهذا بيتكم." تناول سليمان وفراس الفطور وبعد الانتهاء كانت بانتظارهم سيارة لنقلهم إلى ألمانيا.

استقلّا السيارة مودّعَين من صاحب الدار. يرفع سليمان يده شاكراً للرجل على كرم ضيافته. انطلقت السيارة بين ممرات الحقول. كانت المناظر الخلابة والأشجار الخضر تمسح على روحيهما الهدوء والاسترخاء. كأنها لوحات مرسومة، والبيوت بسقوف هرمية من القرميد تنتشر في المزارع الشاسعة، ثمة أبقار سمينة تأكل الحشيش بهدوء. تنتشر في أماكن متفرقة من المزارع. كل شيء منظم وهادئ

وجميل. تمضي السيارة إلى مدن مجهولة، فيما سليمان وفراس ينتابهما المزيد من الشكوك في الأمان. شقت السيارة الغابات وعبرت الأنهار ودخلت القرى والمدن من دون استئذان. راح سليمان ينظر من النافذة إلى المناظر التي تمر من أمامه، قاطعه فراس بشكل مفاجئ:

- هل تعلم يا سليمان أني مصدوم من أختي؟

فقال له سليمان ووجهه ما زال إلى النافذة:

- كيف؟

- اتصلت بها أكثر من مرة، ولكن في آخر اتصال ردَّت على اتصالي. لكن حفاوتها بي كانت عادية، وشعرت في حديثها ببرود قاتل، خاصة عندما علمتْ بوصولي إلى أوروبا وأخبرتها بذلك.

رد سليمان عليه، على الرغم من تركيزه على اسم المحطة المقبلة:

- ابعد عنك هذه الحساسية المفرطة. هي أختك في النهاية. ربما كانت مشغولة. ربما لديها ظرف خاص. ما هي إلا سويعات وستكون أنت في بيتها. ستستقبلك حال معرفتها بوجودك. وكذلك أخي سيأتي إليَّ من مدينته وهي تبعد ساعة ونصف الساعة عن كولن وسأذهب معه.

***

بعد مسير تسع ساعات تخللتها محطات استراحة، بدأت سرعة السيارة تخف. توقفت ونزل سليمان يتبعه فراس الشيخ مودعين السائق في المحطة الرئيسة في كولن، لكن ليس في بالهما أين يتجهان. مشيا مع حشد الناس. أخذتهما الموجة الكبيرة للمغادرين إلى البوابة الرئيسة للمغادرين من المبنى الرئيس (البانوف) الذي كان يكتظ بالناس من وجوه وجنسيات عديدة. ثمة أسواق بسيطة على جانبي المبنى تستقبل زبائنها. في نهاية المبنى كانت البوابة الأخيرة. دفع فراس

الباب بيده اليمين فانفتحت أمامهم باحة كبيرة تطل عليها كنيسة عظيمة. ينتشر السواد في لون حجارتها أكثر من البياض. إلى أين سيذهبان؟ الساعة تشير إلى الخامسة عصراً. هناك فرقة صغيرة تعزف موسيقى شعبية ينحني أفرادها إلى المارة. جلس بعض الأفراد وفي أيديهم قناني البيرة على الدرج الذي أمام الكنيسة. حاول فراس الاتصال بأخته مراراً. فلم ترد عليه. لعنها بصوت عال ولعن زوجها. أما سليمان فاتصل بأخيه فرحان. أخبره أخوه أنه سيتدبر الأمر. إن أحد الأقارب في كولن يستطيع استقبالكما في منزله. ثمة كشك كمطعم صغير يقدم الهامبرغر إلى الناس. تقدم فراس وكان في جعبته آخر مبلغ فطلب منه قطعتين مع علبة كوكا كولا ليتقاسمها مع سليمان. لكن الأخير لا يأكل الخس[1]، الذي تحرِّمه ديانته. أزال ورق الخس بيده. ابتسم فراس لسلوكه وقال له:

- الأديان أحياناً لديها إجازة خاصة في ظروفنا هذه، فالله لا يحاسب الفقراء. إنما سيحاسب الأغنياء فقط. لأن الفقراء لا يقدمون على ارتكاب الأخطاء، إلا للحاجة الملحة.

ابتسم سليمان وكان لا يدرك فحوى كلام المثقفين هذا. انتظر سليمان اتصالاً آخر من أخيه ليعلمه اسم الشخص، بينما عجز فراس من الاتصال بأخته التي رفضت الاتصال به أو تجاهلته. وما هي إلا سويعة واحدة، حتى اتصل أخو سليمان قائلاً له: " أعطيت رقمك لابن عمنا عبد الله. سيتصل بك، وينقلك إلى بيته: بعد قليل اتصل عبد الله:

- مرحباً. أنا عبد الله. كيف الصحة؟ "أهلاً وسهلاً" ردَّ سليمان.
- اتصل بي الأخ فرحان. أبلغني أنك في كولن، الحمد لله على

---

(١) يحرم الأيزيدية أكل الخس.

السلامة، فقال له سليمان:

- الله يسلمك. انتظرك في المحطة مقابل الكنيسة.
- الحمد لله على سلامتك سليمان، ولكنني حاليًا في العمل، سأبقى إلى الساعة الخامسة فجرًا. لا يسمح الوقت بالقدوم في الليل، فأنا خجل منك. الظروف هنا مختلفة. لا يمكننا ترك العمل، ولا أستطيع الإجازة المؤقتة من عملي.

كان كلام عبد الله بالنسبة لسليمان كالصاعقة التي ضربته في الغربة. لا مكان بعد الآن يأويه. أغلقت كل السبل والأبواب أمامه.

جلس سليمان على الدرج وظهره للكنيسة الكبيرة السوداء العالية. كان متعبًا نفسيًا بعدما أنهى المكالمة. المشاعر والأحاسيس تصارع الخيبات. جلس فراس إلى جانبه واضعًا يديه على ظهر سليمان، قائلاً له: "لا تعجز ولا تقهر، لأن الله في الأفق البعيد سينقذنا حتمًا." وبدأ يحكي فراس له قصة أخته التي لا ترد على اتصالاته.

- تزوجت أختي سوزان عن عمر تسع عشرة سنة. لم تكمل جامعتها على الرغم من تفوقها في الدراسة، بسبب زوجها الذي كان أحد شروطه أن تترك دراستها، وتتفرغ له، نحن الشيوخ زواجنا نادر وصعب، وكثير من النساء منا يبقين من دون زواج بسبب نظام الطبقات الأيزيدية الذي يفرض علينا. عمتي عانس وخالتي عانس مما أخافت العنوسة أمي وعجلت بزواج سوزان إلى زيد. وهو رجل يكبرها باثنتي عشرة سنة من الشيخان ترك المدرسة وهو صغير لا يجيد القراءة والكتابة. يعمل في تربية العجول كمهنة ورثها عن والده وقد أخذ من العجول صفات كثيرة. تشبَّع في جيناته وطبائعها. فهو مثلاً لا يفرق عن العجول بشيء سوى أنه ليس لديه ذيل. لا أعرف كيف أصفه سوى أنه

ثور. ضخم الجثة برأس مربع وأصلع. لا يستطيع ارتداء البنطلون لفرط كرشه المتدلي. يحب جمع المال بشكل لا يوصف. وهو شره في تناول الطعام والشراب. يدخن بشكل مفرط. تفوح منه رائحة كريهة، أذكر عندما كان يأتي لمنزلنا في بحزاني نبتعد عن مكان جلوسه.

بعدما حكى قصتها قال لسليمان: اعتقد هو من يمنع أختي بالإجابة على اتصالاتي فهو لم يكن محباً أبدا لعائلتنا ولي تحديداً لكوني كنت أعرف طباعه المزعجة.

٢١

تـأتي وتذهـب النـاس في السـاحة المطلـة عـلى الكنيسـة. كانـوا مـن جنسـيات مختلفـة. ثمـة نسـاء جميـلات بملابس تكشـف المزيد مـن مفاتن أجسـادهن شـبه العاريـة. "لمـاذا لا نذهـب خلـف الكنيسـة؟ عـلى الأقـل نكتشـف المدينـة، هـذا مـا قالـه سـليمان لفـراس. وافقـه عـلى الفـور وذهبا يستطلعان المكان.

تسـاءل فـراس وهـو ينظـر إلى الكنيسـة: " فـرق كبير بين هذه الكنيسـة ومزاراتنـا، فهـم يهتمـون بهـا كـما يبـدو" صمت سـليمان والـذي كان يغط في شرود عميـق، وكأنـه لم يسـمع حديـث رفيقـه. اسـتمرا في اسـتطلاعهما لأزقـة جميلـة ونظيفـة تحيطهـا الحدائـق المنظمة واليانعـة. اكتشـفا بالصدفة سلّما ينزلهما إلى ساحة واسعة تطل على نهر جميل. قال فراس:

- كـم جميـل وعظيـم هـذا النهـر الهـادئ؟ يـا تـرى مـن أين ينبـع وأين ينتهـي ؟ الأنهـار تبعـث في المـدن الـروح والحيـاة. لولاهـا لكانـت المدينة كئيبة.
- مـاذا سـنفعل الآن يـا فـراس؟ الليـل بـدأ يقترب. لا نعـرف إلى أين نذهب.
- ...... لا جواب من فراس

كان عـلى يسـارهما جسـر كبـير يربـط جانبـي النهـر. تمـر مـن تحـت مقترباتـه العديـد مـن المـارة، بالإضافـة إلى القطـارات التـي تعـبره. وجدا

تحت الجسر مكاناً أليفاً بدا لهما آمناً بعيداً عن أعين المارة. جلسا على مصطبة خشبية أنيقة. يجلس إلى جوارهما رجل أشعث ذو لحية كثيفة، كان منشغلاً بنفسه. يقرفص أمامه كلب هادئ. كان منظر الرجل بائساً حين خلد إلى النوم وهو جالس. وعندما تكاثف ظلام الليل تجمع حوله أربعة أصدقاء على شاكلته. الأفكار المتضادة تتصارع في رأس سليمان. أسند جذعه إلى متكأ المصطبة وغطّ في موجة تفكير عميق. حاول فراس أن يعيده من تلك الحالة فقال له: " النفوس المتعبة لا تشعر بجمال الأشياء الجميلة التي حولها ".

ثم راح فراس يفيض بالحديث. تحدث عن مشاعره في حضرة النهر الذي يزيد المكان جمالاً ومهابة. فزَّ سليمان من إغفاءة نوم خاطفة فقال:

- فراس ماذا نفعل الآن؟ فلا أختك ترد علينا، ولا ابن عمي قدَّر الوضع وترك عمله ليأوينا في منزله لليلة فقط، فما عسانا أن نفعل؟؟
- رد فراس متحمساً: "اعتقد أن المهاجرين في لحظة وصولهم الهدف يقومون بتسليم أنفسهم للشرطة. فلماذا لا نقوم نحن أيضا بذلك؟"

رد سليمان: الشرطة!؟

- نعم الشرطة.
- وأين نعثر على الشرطة؟
- نرتاح قليلاً الآن وننام، وفي الصباح نجد حلًا. على الأقل نجد مركزاً للشرطة ونسلم أنفسنا.
- أين ننام؟
- هنا، حالنا حال المغتربين والهاربين في ليلتهم الأولى.

أشار إلى الرجل المسن. فوجده سليمان يغط في نوم عميق وكأنه في فندق مريح، اقتربا من بعض ثم أسندا ظهريهما على الحائط. غلبهما النعاس فغفيا. ما هي إلا ساعة أو أكثر حتى وقف شخص أمامهما. رجل بظل طويل وجثة ضخمة، كان هو ذاته الرجل الأشعث الذي كان بجوارهما مع كلبه. قدم لهما بطانية عتيقة. عادا مجدداً إلى النوم بأمان مصطنع.

في الفجر وعندما تراقصت خيوط الصباح على جفونهما. وجدا أمامهما سيارة شرطة. تحدث الشرطي مع الرجل الأشعث يجادله بحديث غاضب. كان الأشعث منبطحاً في فراشه وهو يتحدث مع الشرطي. بدا أن فراساً غير مبال لما يحدث، أما سليمان فتظاهر بأنه نائم.

أنهت الشرطة مهمتها مع الأشعث. وضعته في السيارة مع كلبه. انتقل الشرطيان إلى فراس وسليمان وتحدث أحدهما بلغة ألمانية. لم يجيبا عليه. اكتفيا بتعابير من لغة الجسد. لم يعثر الشرطيان على أية وثيقة معهما بعد التفتيش، فأدركا أنهما لاجئان. فاركبوهما إلى جوار الرجل الأشعث في السيارة. في الطريق توقفت السيارة فانزلوا منها الرجل الأشعث إلى بناية بدت حكومية، أما هما فبقيا في السيارة لا يعرفان إلى أين ذاهبان. بعد وقت ليس بالقصير توقفت السيارة. أومأ لهما الشرطي بالنزول. إنها دار إيواء اللاجئين (Flüsterndes Heim) أو التي يطلق عليها اسم الهايم.

٢٢

بعد مسافة مشي على الأقدام، فُتِح لهما الباب للنزول، نحو مكان واسع، كأنه منزل رحب يطلُّ على غابة بأشجار سامقة وكثيفة. منزل أحلام عظمى. لم يكن بعيداً عن مركز المدينة على ما يبدو، يطل المنزل أيضاً من جهته الأخرى على نهر الراين في أطراف كولن.

تم تسليمهما إلى مركز للإيواء المؤقت للاجئين (الهايم). مركز الإيواء هذا عبارة عن بناء يشبه مدرسة كبيرة بطابقين، مع ساحة واسعة وغرف متعدِّدة متراصة. ثمة مطبخ مشترك مع حمامات صحية للرجال والنساء وغرفة استعلامات وأخرى غرفة رحبة لاستقبال المهاجرين الجدد، تنتهي الغرفة بأخرى ملحقة خصصت لموظفي المركز.

في هذا المكان لا يمكن تخمين عدد المهاجرين. هناك أفواج كبيرة تدخل وأخرى تغادر إلى أمكنة أخرى. تُستحدث الأعداد في كل أسبوع. شكَّل الأيزيديون نسبة كبيرة منهم، مع نسبة أخرى من العرب والكرد، وأعداد أخرى من آسيا وأفريقيا وأقوام مضطهدة أخرى هاربة من أتون الحروب ومناطق ساخنة أو من اضطهاد ديني أو عرقي أو حتى شح الطعام والجوع. كل يوم يقوم الموظف صاحب السترة الزرقاء باستقبال الأفواج الوافدة بكل أدب واحترام، ومعها طيف من ابتسامة رضا على محياه. يشعر فيها المهاجر بالآدمية للمرة

الأولى. قال لهما الموظف الذي يجيد العربية:

- أهلا بكما. من أين حضرتكما؟
- نحن من العراق.
- عرب أم كرد؟
- نحن أيزيديون.
- نعم أعرف، يعني كرد ام عرب ؟؟.
- لالا.. أيزيديون فقط.

امتعض فراس من إلحاح سليمان لإثبات هويته وجدلها العقيم في هذا الوقت الحرج. فضرب سليمان بكوعه كي لا يطيل النقاش مع الموظف، والذي بدا منشغلاً في تدوين المعلومات باستمارة بيضاء لكل واحد منهما. صمت سليمان وابتسم الموظف. ثم أنهى التدوين وقال لهما: "اتبعاني". فجاء بهما إلى غرفة نظيفة ورحبة برقم ١٧. فيها مكتب بلون بني وعلى سطحه حاسوب أسود اللون وبجانبه أوراق بيض ودولاب من ذات اللون فيه ملفات سود. هاتف أرضي على المكتب يرن على الدوام. في المكتب قدموا لهما الماء والقهوة. ثمة إجراءات ملحقة قبيل مغادرة الموظف عن الاسم والديانة ومكان الولادة وسبب الهجرة وجواز السفر وأسئلة تقليدية أخرى ثم ينحني الموظف مودعاً لهما.

هناك ورقة تعليمات كتبت بالعربية سلمت إليهما، تتحدث عن النظافة والالتزام. تذكر سليمان زوجته بعد أن تمدد على سريره. مرّت فترة طويلة ولم يتحدث معها. تذكر أنها أخبرته في آخر مكالمة بمراجعتها للطبيب، حيث كانت تعاني من ألم في الصدر موجع وحاد. أخبرته أيضا أن الطبيب تحدث عن مشكلة بخفقان القلب. ومع استمرار الوضع من دون تحسن مع العلاج، قد يتطلب منها إجراء

عملية لفتح الشرايين القلبية بالقسطرة. تذكر سليمان أنه قال لها لا تخافي. سنعمل العملية هنا في ألمانيا بعد أن تأتي العائلة بلم شملنا جميعاً في ألمانيا. ومنذ ذلك اليوم إلى هذه اللحظة لا يعرف عن تطورات قلبها المتهافت، فهو يحتاج إلى شريحة اتصال ألمانية.

***

الحياة في مركز الإيواء جنة أرضية مصغرة، بعد معاناة من اجتياز البحر وشبح الموت، حتى النوم تحت الجسر، لكن ما حصل لاحقاً أن الله منَّ بنعمته عليهما. فالطعام متوفر والكهرباء والماء وساحات لممارسة الرياضة. بشر من جنسيات مختلفة. سلمت لهما بطاقات فيها حساب مالي يوفر ٣٠٠ يورو تستخدم متى يشاء اللاجئ.

كل شيء متوفر هنا؛ يقول فراس لسليمان، وكل شيء، هنا أجمل من بلادنا إلا الأرواح، فهي مغتربة. لا يوجد روح للأشياء الهائمة هنا. هذه الطبيعة الجميلة المتناغمة مع جمال النساء الشقراوات لا طعم لها ولا روح تستقطب جمال هذه الطبيعة. أما هناك فالأشجار في الضيعة أقل خضرة، ولكنها تعطي روحاً.

يتساءل سليمان قائلاً: ولماذا برأيك؟ ما السبب؟

صمت فراس وقال "لا أعرف، ربما الروح هي التي تعرف قيمة الجمال ومكانه، فالأرواح المغتربة لا تشعر بالجمال حتى إن كان حولها، فالحياة كالموسيقى لا تطرب الأرواح المتعبة دائماً".

فراس ذو رؤى فلسفية ذكية فيها جمالية من الفن، فهو خريج معهد الفنون والموسيقى قسم الموسيقى. درس في المعهد وتعلم وشارك في الحفلات والمناسبات الرسمية ضمن فرقة بعشيقة بقيادة الأستاذ أديب السمعاني. الإنسان البديع ذو الحس الفني المميز، والذي نشر

الغناء في المنطقة. على يديه تعلم الكثير من شباب المنطقة العزف على الآلات الموسيقية الغربية والشرقية. الأمر الذي دفع فراساً لمحاولة العودة لممارسة العزف في هذا المكان. اشترى له "بزق" من محل تركي وراح يعزف في أوقات الفراغ.

٢٣

"انقطعت أخباره" هذه الجملة التي تردُّ بها عندما يسأل عليه أحد من معارفها. لم تعلم هدى شيئاً عن أخبار سليمان، سوى بضعة أخبار مشتتة من أخيه فرحان، الذي كانت تتصل به بين فترة وأخرى لتطمئن عليه. كان الأخ شحيحاً بكل شيء. لا يتكلم إلا حينما يُسأل. يقول لها إنه "لا بأس عليه" ثم ينهي الاتصال ببرود.

مضى ما يقارب الشهر على آخر اتصال مباشر مع سليمان. حكى لها بألم بالغ عن الأوضاع المأساوية، ولكنه حاول زرع بذرة أمل في وصوله إلى جنة ألمانيا. في هذه المكالمة شعرت بسعاله المتواصل. ينقطع الحديث بينهما كي يسعل مرات عدة بقوة. سألته عن سبب هذا السعال. أخبرها بأنها نزلة برد بسيطة بتأثيرات البحر والعوم فيه بعكس التيار. لكنه طمأنها بأنه سيتعافى منها قريباً.

تتراكم المآسي على هدى من كل صوب، وكان عليها أن تتحمل وتصبر. كانت هدى الفتاة الصغيرة التي عانت كثيراً من زوجة أبيها. وكان الأب مشغولاً بعمله في المزرعة. يمتلك الكثير من البساتين والأراضي التي تبعده عن تفقد أطفاله. رجل ذو مكانة اجتماعية ومالية كبيرة. لكنها لم تلتمس منه عاطفة أبوية، بالإضافة إلى معاملته أطفاله معاملة سلبية. تزوج أبوها من أمها وهي فتاة لم تبلغ الرابعة عشرة. عندما خطفها من قرية بحزاني ودخل في خصام طويل مع عائلتها.

اضطر بضغط من الأهالي ترك القرية واللجوء إلى بعشيقة كحل اختارته له عائلة "أم هدى". اشترى بيتاً في وسط السوق القديم وأسكنها في الطابق الثاني. أما الطابق الأرضي فكانت تسكنه زوجته الأولى هناري التي كانت كجنرال متسلط تفرض سيطرتها بالقوة والتجبُّر، ليس على زوجها فقط، إنما على العائلة بشطريها. تذكرت هدى كيف كان صراخ امرأة الأب يوقظها صباحاً وهم نائمون على السطح. وعندما يأتي الزوج ليلاً كانت تخشى الحديث له خوفاً من أن يضربها. فجأة توفي الأب بسكتة دماغية عن عمر لا يتجاوز الستين. لم يخلّف إلى هدى وأمها شيئاً من تركته الثقيلة. فقد استولت هناري وأبناؤها على كل شيء.

كانت هدى تذهب إلى بستان الزيتون مع أخواتها والعاملات هناك. ثمة علاقة ودية بين هدى وأشجار الزيتون. هذه العلاقة التي تمنحها حبّاً إضافيّاً إلى الطبيعة والأرض. يوما ما وقعت عيناها على سليمان بطلته الجميلة وعينيه الزرقاوين قرب إحدى أشجار الزيتون التي كانت ترعاها. ارتبطت به روحيّاً وهي الصبية الصهباء الفاتنة التي لم تشبع بعد من الحنان. وهبها سليمان من حنانه الكثير. فوجدت به المعوِّض عن ما فقدته من الدفء والعطش العاطفي. تزوجها بعد موت هناري بالسكتة القلبية بأشهر قليلة. لتجد فيه الأب والأم والحبيب والزوج. عاشت معه أجمل حياتها، لذا كانت تقول دائماً مع نفسها: " حرمني الله من حنان والدي، فوهبني سليمان بحضنه الدافئ كل ما فقدته".

أثَّرت هجرة سليمان عليها بشكل كبير واختل ميزان الحنان حين بعثرت الريح العاصفة أعمدة الخيمة التي جمعتها معه تحت سقفها. عانت من صعوبة الحياة في المدرسة التي تسكنها إلى درجة لاقت فيها

ضنك العيش والفاقة والظلم والتعسف. لذلك تلجأ إلى العمل في مهنة الخياطة لدى أحد المحلات كحل أخير للتخلص من أعباء الحياة والنزوح. عندما حكت يوماً ضائقتها إلى المدرس الآشوري، فوجد لها الرجل هذه الفرصة بعد حين. أخبرها بوجود فرصة وحيدة في محل يقبل بأن تدير عمل الخياطة من مكانها، بعد تزويدها بماكينة الخياطة. وافقت على الفور لسد حاجتها وخاصة ابنتها أمل التي دخلت الكلية وازدادت مصاريفها بعد النزوح.

تمر أيام النزوح العسيرة بصعوبة بالغة. أمرت السلطات في دهوك وفي تلك الأيام بالذات أن يتم إخلاء المدارس والمؤسسات من قبل النازحين بعد توفير خيام لهم في مخيمات على تخوم المدن. لكن هدى اضطرت إلى استئجار شقة لتعيش تحت سقفها مع بنتيها. كانت شقة متواضعة في منطقة "نزاركي". تستقر فيها وتحمد الله على الرغم من الصعوبات المالية التي عانت منها في الأشهر الأولى بسبب الأعباء المالية الإضافية، لكن ابنتها الكبرى أمل انبرت للدفاع عن كيان هذه العائلة المهددة بالشتات. ذهبت إلى فكرة العمل مع الشاب السنجاري جارهم عندما اقترح على والدتها العمل فأجبرت أمها على الموافقة. كانت فرصة العمل هذه هي المنقذ الوحيد المُتاح للعائلة، فكل الأحلام التي كانت تبنيها هدى على سفر سليمان، من أنه سيقوم بتحويل المبالغ بالعملة الصعبة إليهم أصبحت ضرباً من المستحيل.

خمسة أشهر انقضت ولم يرسل سليمان لهم أي مبلغ. على الرغم من أن العمل بالنسبة للبنت أمل متعة خاصة، إذ كانت تعمل على مساعدة الأيزيديين النازحين من سنجار. كانت مهمتها تنحصر في العمل مع المنظمة على تسجيل العوائل النازحة والتعرف إلى أسمائهم والمفقودين منهم، ثم تسجيل عناوينهم ومن أية قرية نزحوا. كانت

المسكينة تتألم لما تشاهده لاستمرار هذا الظلم. وعندما تعود كل مساء كانت تبكي بصمت على حجم المأساة. في آخر الليل تحكي لأمها المنشغلة بالخياطة، عن كل تفاصيل وعذابات النزوح وقضايا الهجرة والمهجرين. والأم ليس لها غير أن تهز رأسها. لتختتم أمل كلامها: "الأيزيديون عاشوا كل أعمارهم مهاجرين من بلد إلى بلد. هل يحدث هذا بسبب ديانتهم أم أمور أخرى؟ لا تجيب الأم مطلقاً. تتعسر الإجابة عليها: "لا نعرف إلى أي زمن سنبقى مطاردين ومهجَّرين هكذا."

٢٤

اعتـاد سـليمان شـيئاً فشيئاً عـلى حيـاة المخيـم (الكمـب أو الهايـم). تعايش مجبراً مع هـذه الحيـاة، وفي تلـك الغرفـة الصغـيرة المطلـة على حديقة المخيم الفارهة والمخططة بنظام هندسي باذخ.

كان سـليمان ينهـض باكـراً كل صبـاح لتنـاول فطـوره مـع المهاجرين الذيـن نزحـوا مـن جنسـيات مختلفـة. ثمـة ألفـة وحـب ومشـتركات وطموحـات تجمعهـم. تعـرف إلى عـدد مـن الشـباب الأيزيديـين الجـدد والواصلـين تـواً. يتلقـف أخبـار الضيعـة بشـغف طفـولي. يتبادلـون الحديـث والقصص وأسـباب الهجـرة وطرق الوصول وآخـر أخبار البلد المبتلى.

بعـد الفطـور مبـاشرة يتمشـى في باحـة المخيـم، أحيانـاً يلعـب كـرة السـلة. وبعـد تنـاول وجبـة الغـداء يرتحـل نحو نهـر الراين القريـب لتأمل الطبيعـة الخرسـاء. يفتـح منجـم الذاكـرة ليستحمَّ مـن فيضـه. بعـد حـين مـن الاسـتقرار على هـذا الوضـع الجديد استطاع أن يشـتري هاتفـاً نقالاً وشريحة المانيـة بعدمـا كان يجري اتصالاتـه من هواتف اصدقـاءه. ليعاود الاتصـال مـن جديـد بعائلتـه متعرفـاً إلى أوضاعهـم. كل شيء يتحسَّـن بمرور الوقت إلّا السعال الذي لازمه ويزداد ضراوة.

اقـترح عليـه أصدقـاء الكمـب المقربـون منـه لمراجعة طبيـب مختص.

وهو يصر غالباً بالإجابة ذاتها: " أيام قليلة وينتهي السعال. ربما هي حساسية من تغيرات الأجواء. ربما التغييرات المناخية والبيئة الصقيعية".

ففي صباح ذات يوم، وفي أثناء ذهابه إلى المغاسل، وفي يديه منشفته البيضاء. فتح صنبور الماء، بدء يغسل وجهه ثم وضع يده على فمه وسعل. شعر بدفء ورطوبة في جوف فمه عندما داهمه السعال مجدداً، كانت حرقة بالغة في بلعومه كأنه يتجرح منها. تغرغر بالماء الدافئ وقذفه بسرعة. كان لون الدم ورديّاً. تفاجأ بلون البصاق المحمر في المغسلة. هنا استذكر لحظة غرقه تلك، ففي لحظة خروجه من المياه المالحة، شعر بموجة ألم حاد في رئتيه، كان يعتقدها هي السبب فيما شاهده من خريطة الدماء في المغسلة؛ إنها لحظة مرعبة مدعاة للانهيار الكلي. لكنه أغلق صنبور الماء محدقاً إلى نفسه في المرآة. هناك شحوب واضح على وجهه المحتقن بفعل السعال.

عاد إلى غرفته فشاهد فراساً منبطحاً على بطنه محتضناً الوسادة ويغط في نوم عميق. كان هاتفه يهتز صامتاً باتصال من رقم مجهول. أراد أن يوقظه، لكنه تراجع وتركه يكمل أحلام نوم الصباح. فالنوم رزق من الله - كما كان يقول لهم معلمهم أبلحد أفرام. لم يدرك لماذا خطر على باله في هذه اللحظة ذلك المعلم الشيوعي الوديع والرجل الموسوعي والذي كان يضخ لهم بالمعرفة الحياتية كل صباح.

تمدد سليمان في فراشه مسترجعاً شريط الذكريات مع صور معلمه أبلحد أفرام. يساوره بين لحظة وأخرى ما حدث على المغسلة خوفاً من شيء مخيف. حاول طرد شبح الفكرة من دماغه، فراح يقلب واجهات من هاتفه الجديد. فتح موقعه على الفيسبوك، كانت الصفحات تنشر أخباراً متضاربة يجمعها خيط الحزن بقلادة من مأساة

بلون واحد، عن المهاجرين عبر البحر اللعين والمقبرة العميقة لكل من ينشد الحرية. في إحدى هذه الصور لاحت له صورة أحد معارفه مكتوباً تحت الصورة ((الحمد لله على السلامة بعد وصولك إلى ألمانيا بلد الأم والأمان والحرية)). ثم استمر في تصفح صفحات أخرى، ليسجل انضماماً إلى مجموعة أخرى من طائفته في الشتات. عثر داخل المجموعة على منشور لصورة قارب محطم ومكتوب عليه " البارحة سجلت حالة غرق لعائلة سورية في بحر إيجة قبيل الشاطئ بخمسين متراً وتستمر تحت الصورة مئات التعليقات التي تندب الحظ العاثر لها ".

كأن الهجرة وقصص ومعاناة الناس فيها تعاقدت مع الفيس بوك في منشورات اليتم والموت والمآسي الكبيرة. لذلك جفاه النوم. حاول الاتصال بهدى زوجته. لكنه تراجع عن الفكرة، فالوقت ما زال مبكراً. كان يفكر جدّياً بنوبات السعال المصحوب بالدماء. كيف يطلب من المترجم الذهاب إلى الطبيب؟ إنها فكرة سيئة تحمل المزيد من المتاعب وتزيد من هوس التفكير السلبي. فالأطباء يبالغون كثيراً بالحفاظ على الصحة. لذلك قرر الاستعانة بفراس. سوف ينتظر حتى يستيقظ ليشرح له حالته الصحية. ليتولى عملية الترجمة، فهو أفضل منه باللغة الجديدة. لاختلاطه بالأجانب وخاصة تلك الفتاة الأفغانية عائشة التي دائماً ما يشاهدهما معاً. يتكلمان بكلمات ألمانية، بلغة إشارات اليد. غلبه النعاس فوضع رأسه وغط في نوم عميق باغته مرة أخرى حلم عمر وهبي باشا الذي يطارده بين فترة وأخرى. لم يستيقظ إلّا على جلبة أصوات أحدثها فراس في نهوضه، فقد كانت الساعة تشير إلى منتصف الساعة الحادية عشرة صباحاً.

قال فراس مبتسماً:

- "ها سليمان خيرك اليوم نائم للظُّهر".
- والله يا شيخ ما أعرف. اليوم لست على ما يرام.
- "خير ماذا بك؟" قالها فراس بجدية.

جلس سليمان في مقعده. تغيرت سحنته وكذلك بحَّ صوته فبان أكثر حزناً:

- اليوم كالعادة صباحاً حين ذهبت إلى المغاسل. عندما تغرغرت سال بصاق أحمر من فمي. هذه الحالة تكررت كثيراً من بعد مجيئنا هنا. السعال مستمر منذ ساعة الغرق إلى يومنا هذا. أنا خائف يا فراس.
- سنذهب اليوم إلى الطبيب. ما رأيك؟
- نعم لازم. لدي إحساس غير مريح.
- لا تهتم لا يوجد شيء. إن شاء الله خير. ربما نزلة برد صاحبها التهاب حاد فقط. نحن في دولة متقدمة طبياً يا سليمان تذكر هذا دائماً.
- إن شاء الله................
- هيا لنذهب ونأكل شيئاً.
- نعم أنا أيضاً جائع جداً.

كانت قاعة الطعام تضم قليلاً من الناس، فساعات الفطور قد مضى زمنها. حاول فراس الحصول على قطعة خبز بالإضافة إلى الجبن. لمح عائشة فتبادلاً الابتسام والسلام. حدث نوع من كيمياء غريبة على وجهه. مما زاد من بريق عينيه. بادر سليمان إلى القول:

- شيخ ما القصة؟ أشار برأسه إلى جهة عائشة. ثم قال:
- لا يوجد شيء. هذه عائشة تدرس معي في كورس اللغة. نتعلم أحياناً اللغة معاً عبر الهاتف والمحادثات. وهي صديقة لا أكثر.

- لا أظن أن نظراتكما المتبادلة تحمل شوقاً خفياً يفتضح سره ويدركه العارف من أمثالي، فأنا الخبير في تلك الأمور. لكن تذكر جيداً يا شيخ فراس. حاول أن تضبط مشاعرك. هي ليست أيزيدية، بل ليست عراقية.

أجابه فراس بلغة تهكمية، فيها سخرية عالية مع ابتسامه.

- نحن في ألمانيا ولسنا في الضيعة يا سليمان العجوز.

٢٥

في اليوم ذاته ذهبا إلى عيادة الطبيب بعد استحصال الموافقة الإدارية من إدارة المخيم. كان الطبيب شاباً مقبلاً على الحياة بقوة وإصرار، وهو القادم من مدينة حلب السورية. حملته الأوضاع الدائرة في سوريا إلى الهجرة. استطاع بإصرار من معادلة شهادته الطبية في المهجر. ثم اجتهد أن يكون طبيباً خاصاً بالمخيم. الطبيب ذو ملامح دقيقة وجميلة. يتكلم العربية والألمانية والإنكليزية. ولأنه مهاجر لذلك كان قريباً من هؤلاء المهاجرين من أمثاله. كذلك كان يدرك حيل المهاجرين في مراجعته من أجل الإجازة للخروج من المخيم. حضر سليمان وفراس إلى المستشفى الأنيق والمبالغ جداً بنظافة أروقته وغرفه. حتى أرشدتهما الممرضة الملائكية إلى القسم الخاص بحالة سليمان.

رحَّب بهما باللغة الألمانية في البداية، لكنه استدرك مستبدلاً اللغة إلى العربية. قال:

- يبدو أن الشباب يتحدثون العربية! من أين إن شاء الله؟
- من العراق. ردَّ فراس.
- أهلاً وسهلاً بكما. تفضلا.

تحدث فراس بشيء مختصر لحالة زميله. يشير بيده نحو سليمان، الذي كان واقفاً كتلميذ مطيع على الرغم من كبر سنه. بدا خائفاً كمن

ينظر إلى معلمه:

- جئنا إليك دكتور بخصوص صديقي سليمان. يشكو من وضعه الصحي المتدهور. لديه حالة من سعال حاد ومزمن.

استدار الطبيب السوري صوب سليمان، وقال له:

- خير سليمان ما الذي تشكو منه بالضبط. حدثني عن ما يرافق السعال من مضاعفات. إن شكلك يبدو جيداً. ولكن ما هي علتك؟

تحدث سليمان للطبيب بصوت هادئ فيه نوع من الخوف والقلق على وضعه الصحي ولكن قبل الدخول في تفاصيل مرضه، حاول التمهيد منذ البدء لمسببات الحالة. فقال:

- هاجرت من العراق مثل جميع المهاجرين. ركبت قارباً بحريّاً. بالاتفاق مع المهرب. ليقطع المسافة من تركيا إلى اليونان. لكن المؤسف أن القارب في أثناء الرحلة غرق قبل أن نصل الضفاف. سقطت أنا ومن معي في البحر. حتى لامست الأعماق السحيقة للقاع. بسبب سروالي الذي امتلأ بالماء فأنزلني. مع العلم أني أجيد السباحة. لكني نجوت كما ترى. كنت أسبح نحو مصدر الضوء القادم من الضفاف الأخرى. حتى جاءت قوة إنقاذ يونانية وأنقذتنا. بعد خروجي من البحر بقليل شعرت بألم في تنفُّسي وكذلك معدتي. ربما كنت منهكاً من العوم ومقاومة الأمواج فأصابني التعب والإنهاك. على الساحل بدأت نوبة سعال حاد صاحبها خروج كتلة من دم أسود. ولكن اعتقدت في حينها أنه أمر طبيعي نتيجة البرد والماء والجهد واختلال الوزن. ومن كمية ماء البحر المالح الذي دخل إلى الرئتين. الدم يأتي بشكل متقطع لكن السعال يستمر بشكل يومي.

جلس الطبيب إلى مكتبه الأبيض الأنيق. بدا أنه يصغي جيدا لكلام سليمان. ثم راح يسجل ما يقوله على صفحة حاسوبه. بعدما أنهى سليمان حديثه كأي مجرم يعترف بجريمة أمام القاضي.

سأل الطبيب سليمان:

- هل تدخن؟ فأجابه:

- أحياناً. لكنني أشرب الخمر أحياناً دكتور. ولكن في بلدي كنت أشرب كثيراً العرق. وفي أثناء تناول الخمر أدخن قليلاً.

- لا يضر كثيراً. ولكنني أسأل عن التدخين. فكرر سليمان الإجابة:

- أحياناً أدخن في أثناء جلسات الشرب، وليس بشكل دائمي.

نهض الطبيب من مكتبه ووضع السماعة في أذنيه وقال:

- انهض واستلقِ على هذه الكنبة.

وضع الطبيب السماعة على صدره وطلب منه الشهيق والزفير لأكثر من مرة. راح يمرر سماعته على جوانب صدره، ثم قال له: "انهض".

طلب الطبيب من سليمان إجراء فحوصات وتحاليل سريعة ودقيقة. سلّمه ورقة فيها تفاصيل الفحص المختبري المطلوب. تخوف سليمان من طلب الطبيب لإجراء الفحوصات بشكل سريع. فقال مرتبكاً وهو ينهض من سرير الفصح: "هل هناك شيء دكتور؟"

أجابه الطبيب:

- لا . ولكن احتاج التأكد من بعض الفحوصات وبعدها أقول لك ما هي النتائج.

أثار كلام الدكتور انتباه فراس الذي كان مشغولاً بهاتفه. فوضعه في جيبه وقال للطبيب:

- دكتور أكو شي خطر؟؟

فأجاب الدكتور:

- لا. إن شاء الله. الفحوصات المختبرية هي من تعطي الإجابة القاطعة.

أدرك فراس أن هذه إجابة دبلوماسية طبية. يستخدمها الأطباء عادة للتخفيف من خطورة وضع المريض. فالأطباء يتطلب منهم أن يكونوا صادقين. لذلك يستخدمون دبلوماسية طبية مهذبة ومتحفظة، لكن سرعان ما تكذبها ملامحهم لقول الحقيقة بشكل يتقبله المريض.

نهض سليمان وأخذ الورقة وذهب لإجراء الفحوصات، بعدما شكر الطبيب الذي أكد أنه سيكون بانتظاره اليوم.

زاد قلق سليمان بعد إصرار الطبيب على أن تأتي نتائج الفحص إليه اليوم، على الرغم من التطمينات التي كان يمنحها إليه فراس، ولكن في داخله استعرت مراجل الشك المرعب بحالته. من ملامح الطبيب وإصراره وتطمينات فراس الداعمة له. لم يكن الأمر باعثاً إلى الاطمئنان أبداً على صحته. كان يشعر بأن في داخله مرضاً عضالاً. مع ذلك ذهبا إلى المختبر فوراً. لإجراء التحاليل داخل مستشفى قريب من عيادة الطبيب السوري.

أجريت له كامل الفحوصات، لكنَّ أمراً ما قد حصل أثار الانتباه. الحوار المتقطع وملامح الاستغراب على وجه الفاحص مع زميلة له والنظر في عيني سليمان، عندما يمسح السونار على رقبته ثم يحركها على صدره. في غرفة أخرى أخذت منه عينة في أنبوبة من دمه للفحص. ثم طلبت منه الممرضة الشقراء الناعمة أن ينهض ويذهب خارجاً بانتظار النتائج.

في لحظات الانتظار يأتي اتصالٌ من زوجته، ذلك هو ما يدعى بالاستشعار عن بعد والتخاطب الروحي الذي قد حصل. لكنه لم

يخبرها عن التطورات الأخيرة التي جرت على صحته. ومن نبرة صوته شعرت هدى بأن شيئاً ما قد حصل له. كررت عليه السؤال: " سليمان هل تعاني من شيء؟" فكان جوابه بالنفي المطلق. ذلك ما جعله ينهي المكالمة بشكل مريب. راح إلى جهة فراس الذي كان يدير ظهره في مكالمة خاصة كما بدا من وضعه. حاول الحديث معه، أنهى مكالمته واستدار إلى سليمان، فكانت ملامح القلق بادية عليه. قال سليمان:

- فراس اترك الموبايل خلينا نتكلم. أنا لا أشعر بالاطمئنان إلى وضعي الصحي.
- لا تخف. إن شاء الله ماكو شي. كم أنت قلق؟ بعدك شباب فلا تخف. لا تنسَ نحن في ألمانيا، حتى لو كان هناك مرض فالعلاج هنا متوفر والطب متطور.

شاهد سليمان رد فعل فراس وبرودته. عاد فراس إلى هاتفه للانشغال مجدداً به. كنوع من إدمان عصري جُبل عليه الشباب للتخلص من اللحظات المحرجة. منذ أن تعرف إلى عائشة الأفغانية وهو يبعث وتبعث له الرسائل السريعة في كل لحظة كما بدا من سيماء وجهه.

فقال له سليمان:

- تمام شيخ. أكمل ما أنت فيه. والله يستر من عائشة وأفغانستان.

استشعر فراس انزعاج وقلق سليمان فأخذ كرسيّاً بجانبه وجلس. وضع يده على كتفه قائلاً له:

- سليمان بصراحة لا أعرف ماذا أقول. أنا وأنت في مركب واحد. الغربة وحدها هي مرض عضال لا دواء له. ننهي حياتنا فيها بالعدم. والإنسان الذي لا يكون له أهل وأصدقاء ووطن

وأطفال فهو مريض حتماً بمرض غير منظور بل ليس له علاج. نحن كشجرة الزيتون صعب أن تنبت في القطب الجنوبي والشمالي. هناك أشجار خلقت لبيئتها لا يمكن أن تعيش خارج مكانها، فلا تخف مهما كان مرضك فلن يكون كمرض الغربة والاغتراب والضياع الذي يمكن أن نكون فيه.

- كلامك كأنه إبرة تخدير يا فراس.
- الأشجار تنتحر بقطع النفس خارج أمكنتها. هكذا بعض البشر أيضاً. لقد عشنا حياتنا أكثر من نصفها في بلد ملعون مدمن على الأزمات. يطردوننا ويكفروننا أو ربما يتساهلون مع من يقتلنا. على الرغم من من هذه الاوجاع فيه الا أنه وطننا الذي تربينا فيه فهو لايغادر شعورنا نحبه رغم المه ولكن بعض من فيه لايحبنا وكل فترة يأتي من يرحلنا او يضطهدنا ، فأصبحنا مصابين بلعنة الحنين للوطن والخلاص منه. وطننا ليس العراق، إنما بحزاني أو بعشيقة يا صديقي فقط. عواطفي المبعثرة مع بحزاني هو شعوري لوطني. أنا أرى أن أي مرض نصاب فيه هنا سيكون له علاج، إلا مرض الغربة، فعلاجها صعب، حتى الأمراض المستعصية وإن أخذتنا للموت إلا أن الموت فيها بين أهلنا وأحبائنا وأرضنا ربما يكون أخف وطئاً وألماً.

تحدث فراس بأسلوبه الهادئ وبمشاعر صادقة. غابت مسحتا القلق والغضب من ملامح سليمان بهذا الحديث السحري. ثم تشجَّع فراس لإكمال حديثه مدعماً بالقصص. راح يسرد له قصصاً كثيرة لأشخاص كابدوا وعانوا المرض ولكن الآن صحتهم جيدة بعد رعايتهم هنا في ألمانيا.

- عموماً ليس هناك ما يدعو للقلق.

بعد أكثر من ساعتين خرجت الممرضة الجميلة، وعلى وجهها شبه ابتسامة غامضة. وكأنها تحاول أن تخبرهما بشيء من عينيها. غير أنها بدت صامتة كصخرة من جبل أجرد. نظرت إلى فراس بوصفه يجيد الترجمة. تنحّى بعيداً عن سليمان، الذي بقي جالساً في مكانه. قالت له: " يجب أخذ هذه الفحوصات للطبيب فوراً. "

لم يستطع سليمان فهم ما قالته بالألمانية في بادئ الأمر لكن لغة الإشارة لعبت دوراً في إيصال الفكرة. ربما كان ذلك بسبب ارتباكه. طلب منها أن تعيد الجملة عليه بهدوء. سلمت له نتائج الفحص مع طيف ابتسامة غامضة. لكنه استطاع ترجمة الجملة الأخيرة قبل مغادرتها: "الطبيب وحده من سيقوم بشرح الحالة. تحياتي"

أخذا الممر المؤدي إلى عيادة الطبيب. فوجداه منشغلاً بمريض آخر. بعد دقائق أذنَ لهما الطبيب بالدخول.

- هل اكتملت الفحوصات؟ سألهما الطبيب.

أجابه سليمان بصوت خافت بـ " نعم دكتور". سلّما الأوراق إليه وراحا يتأملان ملامح وجهه في أثناء معاينته إلى تقرير المختبر. يقرأ وهو واقف، وفي أثناء القراءة تغيرت ملامحه قليلاً. ثم جلس وهو يمعن النظر في الورقة. كأنه يعيد قراءتها مرة إثر أخرى. وضع الأوراق على الطاولة أمامه وطلب من فراس الذي كان واقفاً أن يجلس. سحب الطبيب نفساً عميق، ثم قال بسؤال تكرر سابقاً:

- سليمان هل تدخن؟

أجابه سليمان:

- لا دكتور، سبق أن قلت لك ربما أحياناً. أي في أثناء جلسات الخمر. سيجارة واحدة أو اثنتين. لماذا دكتور هذا السؤال المتكرر؟

كأنه يستعد لتقبل الصدمة. ينتظر الإجابة القاطعة حتى لو كانت مؤلمة. فراح يجيبه عن كل الأسئلة بصراحة متناهية.

- هل تعرضت في حياتك إلى نوبة تنفسية حادة مثلاً؟ هل عانيت من ضيق حاد في صدرك؟ هل عانيت من أمراض الإنفلونزا المزمنة مثلاً؟
- لا دكتور.

بدا الطبيب هادئاً يحسب حساب كل كلمة ينطقها خوفاً على تداعي نفسية سليمان.

- أقصد هل يوجد في العائلة أمراض وراثية تصيب الرئة؟
- لا دكتور. صحتي جيدة. وكذلك الرئتان. ليس سوى السعال المستمر فقط. يرافقه أحياناً قطرات من الدم.

غط الطبيب في موجة صمت يتأمل في وجه سليمان. ثم أحال نظره نحو فراس، الذي كان جالساً يصغي إلى الحديث على غير عادته. قال فراس مقاطعاً وأعاد قصته وسليمان مرة أخرى:

- دكتور. في أثناء رحلتنا من العراق إلى ألمانيا تعرضنا إلى حالة غرق مميت في البحر. غرق القارب الذي كان يقلنا ونجونا بقدرة الله. قاطع سليمان مؤكداً:
- نعم صحيح. أنا ومن معي غرق فينا القارب. في البداية نزلت إلى الأعماق. كدت أغرق بسبب الشروال الذي امتلأ بالماء وأنزلني إلى تحت. حبست أنفاس تحت الماء وكدت اختنق. وعندما تمَّ إنقاذي سعلت بشكل مستمر. ثم خرجت مع لعابي قطرات دم. ولكن لماذا تسألني عن الرئتين؟

أصغى الطبيب إلى القصة المكررة من كلام سليمان، ثم عاد مجدداً للتركيز في قراءة تقرير النتائج وضع التقرير جانباً واستعدل في جلسته

على الكرسي وقال:

- أنت تعلم أن الطب ليس فيه خجل أو عيب أو حتى مجاملة. ندرك نحن العرب أو الشعوب الشرقية قيمة المشاعر وكمية العواطف المصاحبة لحالات البوح. ربما لا نكون واقعيين بسبب عدم إثارة العواطف. علينا أن نتحدث بصدق في مثل حالتك هنا بالذات. بصراحة أنت مصاب بسرطان الرئة. لكن الأمل كبير خاصة أن المرض في مراحله الأولى. من الممكن علاجه والسيطرة على آفة التفشي المحتملة. تعتمد على دقة العلاج وإصرارك ثانياً. قد تشفى منه. لا تنسَ أنت في ألمانيا. هنا يتوفر علاج متقدم جداً لمثل حالتك. عليك أن تجري فحوصات متقدمة ودقيقة أخرى تحدد بالدقة موقع الإصابة الخبيثة. لنعمل أولاً على إدخالك المستشفى للفحص السريري والمختبري والمعاينة اليومية. قبل مرحلة العلاج الكيمياوي.

نظر سليمان إلى فراس ليتحقق من كلام الطبيب والصفعة القوية التي أخذها على رأسه من هول الصدمة. ظل صامتاً مردداً كلمة (يعني ماذا؟؟ يعنيييييي مااذ ا؟؟ دكتور). الكلمات والأسئلة والذهول تترادف منه من دون وعيه. تقهقر على الكرسي. (يعني سرطان. المرض الخبيث الذي يخافه الناس جميعاً). ميز الطبيب الكلمات وفهم القصد، فقال له:

- أرجوك سليمان الهدوء. الموضوع لا يعالج هكذا بالخوف والقلق. الإرادة والإصرار القويان مطلوبان في مثل حالتك. لست أول شخص ولا آخر شخص. هناك علاج إذا تابعته بشكل صحيح ومنظم وحافظت على نفسك قد يساعدك على الشفاء. قد تعيش بالإصرار على الحياة أكثر من صاحبك هذا.

- ماذا عن هدى وابنتيَّ؟ كيف سأعيش في ألمانيا ومن يرعاني هنا في الغربة؟

تدخل فراس الذي بدا مصدوماً بشكل أكبر أيضاً. فهو لا يقوى على الكلام. أدمعت عيناه وهو يحاول أن يداري قوة الصدمة. كتب الطبيب ورقة وسلم الورقة إلى فراس. تطلب منهما الدخول إلى الردهة الخاصة لهذه الأمراض. الطابق الثالث هو القسم الخاص للأمراض المستعصية.

الأرض تميد، وقدماه لم تعد تحمل ثقل جسمه. لم يستطع سليمان السير بانتظام. كانت المسافة بينه وبين الباب كأنها مسافة ألف متر. شعر بألم حاد في معدته. خرج بسرعة للبحث عن مكان الحمام. وجده إلى يمين غرفة الطبيب. دخل فيه وتقيَّأ بشكل كبير. اغتسل واضعاً الماء على وجهه. دقق في ملامحه وصورته في المرآة ثم انفجر في نوبة بكاء. كان حريصاً ألّا يصدر صوتاً. كان البكاء صامتاً كبوق معطوب. فقط فيه العينان الحمراوان تذرفان الدموع. متذكراً معاناته من أجل الظفر بحياة كريمة له ولعائلته. فجابهته آفة السرطان تنتظره هنا. خرج فوجد فراساً يدقق في وجهه باستغراب. لكن فراساً هاله منظر الشحوب المفاجئ على وجه سليمان، كأن السرطان انتشر في جسده. أمسك فراس سليمان بيديه، ثم في لحظة منفلتة من الزمن احتضنه بقوة وراحا يبكيان. لم يكن المرض ما يوجع سليمان، بقدر ما توجعه هذه الغربة وغربة المصير المجهول.

٢٦

شكلها وملامح وجهها كانت تشبه الأيزيديين، لكنها دائماً ما كانت تضع وشاحاً أبيض يغطي شعرها. تتدلى منه بضع خصلات سود تلصف تحت أشعة الشمس وهي منسابة بنعومة هائلة. لذلك هي جميلة بحقٍّ. امرأة رخامية بكل تقاسيم وجهها ولون بشرتها وعينيها وقوامها.

كل هذه الصفات الجمالية وضعت على رقبة مرمرية بيضاء وجسد ممشوق وصدر ناهد. كان الجميع في المخيم هائمين بعائشة الأفغانية. تمشي وتوزع ابتسامتها على من في المخيم. جاءت عائشة ذات الخمسة والعشرين ربيعاً من أفغانستان إلى ألمانيا ومعها أمها، وقد هربتا من حياة التطرف وجحيم المتطرفين هناك في بلادها.

في المخيم بمدينة كولن كانت كل صباح تأتي إلى قاعة الطعام تجلب الفطور لها ولأمها. تنتهي من ذلك ثم تذهب إلى دروس اللغة الألمانية بكل أصرار على الحياة. في المخيم تعرفت إلى فراس عندما أعطاهما معلم اللغة الألمانية واجباً مشتركاً منذ البداية. اعتقد فراس في بادئ الأمر أنها أيزيدية لتقارب ملامحها من أبناء جلدته. ففي أثناء ما كانا يقومان بالواجب كانت تصدر منه بضع ابتسامات لها. يجلسان على طاولة واحدة، ولاعتقاده المسبق بأنها من ملّته، فقال لها بلغة عربية: "

من أين أنت؟"

فقالت بلغتها الألمانية التي تعلمتها للتو: " لا أعرف العربية؟" ورافق ذلك ابتسامة خجولة منها شعر وقتها برعشة في ركبتيه من حدة جمالها الساحر. استغرب فراس من ذلك ثم استدرك قائلاً: " من أين أنت إذاً ؟ عفواً من أي بلد أقصد ؟ فقالت: " أنا من أفغانستان"

"أفغانستان!"، حركت رأسها بالإيجاب، فهبطت خصلات الشعر كسيل جارف، فاستدركت لتغطيتها بالوشاح الأبيض. لم يتمالك فراس نفسه أمام هذا الجمال الأخّاذ، والذي بدأ يتسلل إلى داخله. دمدم مع نفسه بصوت خافت: "أيعقل أن التطرف والقمع يُخلق بينهم هذا الجمال"

كان ينشغل الاثنان بواجب الدرس وفي كل يوم. بين ابتسامة وحوار روحي يتبادلان طيفاً من كيمياء غريبة بينهما. شيء غريب يدفع فراساً نحو مملكة تلك الأنثى ورياضها الغناء والرحبة. بدأ قلبه يرف ويتسارع النبض وترتجف الشفتان للقياها كل يوم درس بينهما.

***

ذات يوم عاد فراس بعد انتهاء الحصة إلى غرفته منتشياً مرحاً بعاطفة غريبة أصابته من عائشة. بنت رائعة أغلقت كل نوافذ الكآبة والملل في دهاليز الغربة المظلمة. شعر بحالة خدر عند دخوله الغرفة وتنمل جسده. فسَّرَ حالته بهيمنة سلطان النعاس. خلع ملابسه واستلقى على سريره. كان سليمان ينظر إليه باستغراب، لأنه نسي أن يلقي التحية. قال له سليمان:

- ماذا بك فراس حتى لم تلقِ التحية في أثناء دخولك؟

استغرب فراس من نفسه وما حصل له:

- اهلاً. اعتذر جداً سليمان. اعتقدت أني ألقيت السلام عليك. طمئني عنك.. كيف صحتك وأوضاعك؟ كيف حال العلاج معك؟
- بخير. ولكن ما الذي حدث معك؟ وضعك غريب، تبدو كأنك منتشي.
- إنها قصة حلم طويل لا أفضل أن ينتهي.

تعجّب سليمان من حديثه.

- ما الذي تعنيه فراس؟ لقد أخفتني. ماهي القصة التي تتمنى أن لا تنتهي؟ هل حدث مع أختك شيء معينٌ لا أعرفه؟ هل جاء قرار من المحكمة بشأنك؟ هل يوجد شيء في بعشيقة وبحزاني؟
- لا يوجد شيء مما ذكرته. القصة وما فيها هو إحساس داخلي غريب بي. اعتقد أنه لا يهمك، وأنت في هذا الوضع الصحي.
- والله يا أخي أخفتني جداً. تحدّث رجاءً. ما الذي حصل معك؟

استلقى فراس على الفراش واضعاً رأسه على المخدة. ثم وضع يديه متشابكتين تحت رأسه.

- وإن تكلمت معك هل ستفهم قصدي أم لا؟ فقال له سليمان:
- أكيد سأفهم قصدك. نحن مع بعض منذ فترة ومصيرنا واحد، على الأقل خلال هذه الفترة، ولكن ممكن أن أساعدك.
- دعني أنم قليلاً ثم نتحدث لاحقاً.

أثار الفضول شغف سليمان وقال له بعدما جلس على السرير واعتدل بقبالة سرير فراس.

- لن أدعك تنام إلا بعد أن تحكي لي ما بك!

كان فارق العمر يحكم على فراس احترام سليمان ورغباته، بالإضافة إلى شعور الأخير بمسؤولية كبرى للحفاظ على هذا الشاب

النزق المجروح عاطفياً.

فأجابه فراس:

- يوجد فتاة في المخيم سحرني جمالها منذ فترة نتحدث معا عندما ندرس اللغة الألمانية، ولكني شعرت بتقارب روحي كبير بيننا. هذا كل ما في الأمر.

تبخر فضول سليمان من تلك القصة. كان يعتقد أن الموضوع أكبر من الذي تحدث به. قال بفتور:

- فتاة جميلة وشعورك أكيد هذا أعجاب، ربما يصل إلى مرحلة الحب بعد مرحلة الإعجاب المتبادل. ولكن من هذه الفتاة التي تتحدث عنها؟

- عائشة الأفغانية.

رد سليمان بشكل مباشر وبصوت مرتفع:

- الأفغانية!

- نعم الأفغانية.

ذكرها فراس وكأنها بجواره لصدق مشاعره في نطق اسمها. قال سليمان:

- أحسست بذلك من نظراتكما ذاك اليوم، إنها بالفعل جميلة جداً هذه الفتاة، ولكن هذا الأمر عادي أن تحبها وتقضي وقتاً معها لحين أن تنتقل إلى مخيم آخر. أو تأخذ لك شقة، وفي نهاية الأمر سيكون هناك فراق بينكما. هذا طبيعي في كل المخيمات.

لا .... سأتزوج هذه الفتاة!! قالها بشكل مباشر وعفوي وكأنه يرغب في رؤية انطباع سليمان.

ضحك سليمان بصوت عالٍ وقال له:

- أنت مجنون.. كيف تتزوج عائشة ؟ أنت أيزيدي وهي مسلمة،

ألا تعلم أن هذا لا يجوز؟؟ أنا أعرف أنك تحبها ولكن لا يصل الأمر للزواج منها فذلك حرام.

غطى نفسه بلحافه وقال له:

- لا يجوز هناك في العراق، ولكن هنا لا يوجد ما يمنع ارتباطنا وزواجنا. نحن في واحة الحرية. نحن في جنة ألمانيا. هناك عندما كانوا يحرموننا ممن نحب كنَّا نُجبر على الصمت والإذعان للأوامر. هناك كل شيء ممنوع. كل شيء يتدخلون فيه. يضعون العراقيل من أجل ألا تحب. يضعون الحواجز ويتدخلون حتى في المأكل والملبس والدراسة والعمل، ولهذا ترى بلداننا وشعوبنا لا تعيش استقراراً أبداً. هذا الأمر سيحتاج لنقاش طويل بيننا أنا تعبان سأنام قليلاً.

٢٧

استمرت حياة هدى متعثرة، على الرغم من استمرار عملها المرهق في الخياطة. حيث أجبرتها الظروف على العمل ليلاً ونهاراً لتسد كلفة النفقات وقوت الحياة اليومية وسد نفقات ابنتيها مع إيجار المنزل وأمور أخرى تطرأ في الحياة اليومية. ومع الحرب ضد الدواعش تستمر لكن مع سقوط مدن أخرىٰ غدت الحياة أكثر صعوبة وظهور السحب السوداء على أفق المستقبل. لذا تعقدت أكثر متطلبات الحياة. فيما كانت الظروف الاقتصادية تسوء أكثر من ذي قبل يوماً بعد يوم. حتى المبالغ التي تختزنها كانت تحرص عليها خوفاً من أيام سود تلوح في الأفق. هدى لا تجيد سوى التحدث بلهجتها البعشيقية. لا تتقن أية لغة أخرى مما زاد من عذاباتها في العمل. لكنها بمرور الأيام حفظت بعض الكلمات لكثرة تداولها اليومي مع الأقارب والحديث اليومي مع ربِّ العمل "أبي صبري" الذي كان يتعامل معها بشكل متعسف من دون مراعاة لظروفها. لا أحد يتكهن بسهولة مستقبل الغد في هذا البلد، مما يزيد من حيرة وقلق الناس المهاجرين جميعاً. مع توالي الأخبار التي غالباً ما تزيد من نسبة الخوف من القادم.

ذات يوم حضر صاحب العمل "أبو صبري" على غير العادة بقطعتي قماش للعمل في الأسبوع. استغربت هدى، فقالت له:

- أبا صبري؛ جئت لي بقطعتين فقط خلال هذا الأسبوع. لماذا؟ ماذا حصل؟

- بصراحة لا يوجد إقبال على الخياطة في محلاتنا خاصة هذه الأيام. الناس لا تقبل على شراء الملابس. من الآن فصاعداً سوف نقلل من الأجور التي نمنحها لك مقابل كل قطعة خياطة. هناك حل واحد فقط. أن نقلل الأجور ونزيد من ساعات العمل.

فما كان من هدى إلّا الموافقة. رضيت بهذا العرض المجحف والاستغلالي، الذي استثمره أبو صبري على هدى المرأة التي جار عليها الزمن. أما البنت أمل فتنصرف لعملها الإضافي مع منظمات النازحين لخدمة النازحين في مخيماتهم. بعد ما شهدت دهوك موجات متابعة من النازحين في كل يوم. جلست الأم تشكو حالها إلى بنتيها ذات مساء من شتاء كئيب على عسر الحال. وما أمامها إلا أن تنكبَّ على ماكينة الخياطة السوداء للعمل إلى ساعات الفجر من أجل أن تستمر مع الرجل الجشع أبي صبري. رفضت مقترح ابنتها الكبرى لطرق باب شقيقها حسين ليعطيها أية مبالغ من أجل الاستمرار بالحياة. لكنها ترددت عن هذا المقترح لما تعرفه من حقارته.

كانت السماء غائمة والشمس خجولة تتوارى خلف سحب هاربة إلى التيه. توحي لبداية شتاء قارس وثقيل. استأجرت هدى سيارة أجرة لتذهب إلى حسين الأخ غير الشقيق. حسين هذا يعيش بوضع مادي جيد ومريح. وهو الأخ من زوجة أبيها هناري. وقد استولى على تركة أبيه استيلاءً جشعاً ووحيداً من دون إخوته، استولى على كل الأملاك كوريث وحيد للميراث. ذهبت هدى مضطرة إليه، حيث يسكن في سرسنك مع عائلته هناك.

كان حسين الابن الأكبر لهناري زوجة الأب الأولى، وقد أخذ من

والده الكثير من أساليب العمل وجمع الثروة. شق طريقه ليصبح من الأثرياء. كان يصحبه أبوه معه إلى أسواق الزيتون ويكلّفه أحيانا في إدارة أعماله في الموصل كي يدربه على التجارة بوقت مبكر.

استقبل هدى في شقته المؤثثة والفارهة التي استأجرها حديثاً. أجلسها في غرفة الضيوف مع زوجته سميرة. التي رحبت بها في أحسن حال. أنجبت سميرة له ثلاثة أولاد، أكبرهم يدعى بيار الذي كان يشبه طباع أبيه ولكنه أخذ سلوكاً منحرفاً بسبب بذخ والده المادي، كان يحتسي الخمر بشراهة ويعاشر العاهرات بشكل يتناقله أهل بعشيقة عنه، حتى في أثناء وجوده كنازح في سرسنك. استقبل حسين هدى مرحباً:

- أهلاً وسهلاً بك هدى. قبل أيام تذكرتك. ماذا حل بك؟ وماهي أخبار سليمان؟ سمعنا أنه وصل إلى ألمانيا. هل من أخبار عنه؟ وهل يتصل بكم؟

ابتسمت هدى واطمئن قلبها لحلاوة الكلام والترحيب. هذا الكلام يتيح لها أن تفاتحه بعوزها المادي وزوجها المهاجر. إلا أنه كان يلح بالسؤال لأكثر من مرة عن أمل. قالت له:

- ما زال وضعه غير مستقر. أنت تعرف الإجراءات تطول هناك.

طلب حسين من زوجته سميرة التي كانت جالسة تستمع لحوارهما أن تجلب الماء وتعدَّ الشاي.

- لا أعرف ما الذي دفع سليمان إلى الهجرة ويترككم في هذا الوضع؟

- الناس معظمها هاجرت. المعاناة ازدادت بسبب الأوضاع والنزوح، والعمل شحَّ كثيراً. ليس لديه شهادة ولا وظيفة ولا مهنة ثابتة. قرر الهجرة بدعم من نازحين كُثر.

- وماهي أخبار أمل بنتك أعتقد أصبحت جاهزة للزواج؟
- لا. مازالت صغيرة. وليس لها هذه الاهتمامات إنها ترغب بإكمال دراستها.

في هذه الأثناء دخلت سميرة وهي تحمل الشاي. رشفت هدى رشفة من الشاي واستطعمت مذاقه. وضعته وقالت بصورة مفاجئة: "جئت لك بطلب لعلك تساعدني". انتصب حسين على الكنبة وقال لها:

- تفضلي إن شاء الله لن نقصر معك.
- أنت تعرف الوضع الاقتصادي وظروف النازحين وصعوبات الحياة وأنا كما تعلم كل ما نملكه أرسلته لكي يصل سليمان إلى ألمانيا. حتى البيت باعه على أمل تسديد كامل المبلغ بعد التحرير. كذلك بعت ما تبقى لي من الذهب أيضاً من أجل الهجرة. على أمل وحيد حين يستقر بشكل رسمي ويكمل أوراقه الثبوتية نلتحق به. يبدو أن الأمور تجري ببطء هناك. وما تبقى لنا من مال بسيط أنفقته على البنتين والإيجار. الآن نعاني من ظروف صعبة. واضطررت أن أعمل في الخياطة لدى أحد المحلات، ولكن العمل بدأ يوزع على الكثير بسبب حاجة الناس. لو تستطيع مساعدتي بمبلغ بسيط يفي بحاجتي ويمنع عوزي. سأرده إليك بأقرب وقت.

كان قدح الشاي في يديها ونسيت أن ترشف منه الرشفة المعتادة بسبب صعوبة طلبها وكبريائها ومعرفتها بسلوك أخيها.

كان حسين يصغي إلى هدى من دون أن يرف له جفن. للإشفاق عليها، لا بل كان يفكر أبعد من مطلبها. صمت ثم راح يقلب مسبحته. يفكر كيف يستثمر تلك الفرصة المتاحة، لم يكن يؤمن بأن

الحياة تختلف ما بين التجارة والمشاعر والروابط الأسرية. قال لها:

- تعرفين يا هدى يا أختي لا يمكن لي رد طلبك. تعرفين أو لا تعرفين أن أعمالي توقفت كلها بسبب الأزمة. لا أملك مالاً كافياً. وكما تعلمين أن بيار أصبح شاباً وأخاف عليه من الانحراف ومغريات الحياة. أريد تزويجه حالياً، ولهذا فسأكون محتاجاً إلى المال. لكن دعينا من حاجتك الآن. قبل أيام طلب صديق لي يد ابنتك أمل، سبق أن رآها زوجته في إحدى المناسبات فأعجبت بها كزوجة لابنها، لكن ابني بيار يحب ابنته. فكان شرطه الوحيد أن توافق أمل على الزواج من ولده مقابل أن يزوج ابنته لابني بيار من دون مقابل. هو تاجر معروف من أهالي شاريا وسيكون مهرها مقابل مهر بيار. في هذه الحالة الوحيدة أستطيع مساعدتك فقط.

وقفت ونظرت في عينيه وعن مستوى هذه الحقارة التي تشاهدها متجسدة فيه. أيعقل أن يكون بينها وبين هذا الرجل دم مشترك؟ أي أخ هذا!!! أيعقل أن والدنا واحد؟؟ أيقايضني بزواج ابنتي لشخص لا أعرفه فقط، لأنه يريد تزويج ابنه العاق لابنة هذا التاجر؟ قبل أن تغادر هذا المكان قالت:

- صحيح أن بيار كبر بسرعة ولكن الكبار تصاغروا أيضا بسرعة. في أمان الله...

٢٨

تنحدر عائشة الأفغانية من مدينة قندهار. عمل والدها مع الأمريكان عندما احتلوا أفغانستان في سنة ٢٠٠١ بصفة طباخ في إحدى القواعد العسكرية الأمريكية في كابول. انتقلت عائلة عائشة لتعيش قريباً من رب الأسرة. وإذ واصلت تعليمها هناك في إحدى مدارس العاصمة. لكن الأب الطباخ أجبرها على الزواج من ابن عمها المتشدد دينيّاً وفي سن مبكرة، وهي لم تتجاوز سن الخامسة عشرة. اضطرت إلى السكن مع والديها في البيت ذاته، لكونها الوحيدة، لكن زوجها كان يسبب لها المزيد من المتاعب، بعدما تطرَّف أكثر في فتاوى الدين. في البداية كان الزوج يناقش أباها معترضاً على عمله مع الأمريكان، الذين كان يصفهم بـ "الكفار". وكلما تخاصم مع عائشة يصفها بـ "ابنة الكافر".

راحت تتحدث إلى فراس عن تاريخ العائلة وسبب الهجرة وما ألمَّ بها. ذات يوم قالت له: "طلب أبي من زوجي أن يترك المنزل. خوفاً من ملاحقة القوى الأمنية لزوجي. كذلك لتخفيف المشكلات اليومية بيني وبينه."

في خضم العمليات على القوات الأمريكية بدأ يتعرض الكثير من العاملين معهم لمضايقات جمة. كان والدها من الذين تعرضوا

لمضايقات وتهديدات مستمرة، تجبره على المكوث في القاعدة لأشهر من دون الرجوع إلى المنزل.

ففي ذات صباح وفي أثناء ما كان يهم والدها بالخروج من المنزل بعد إجازة قصيرة قضاها مع عائلته استهدفته عبوة مفخخة وضعت امام منزله أدّت الى موته في الحال. كان قد وضعها اثنان ملتحيان بملامح المتطرفين. وضعوا رسالة أمام الباب ذكروا فيها، بأن هذا جزاء من يعمل مع الكفار والمحتل وسيكون الدور لاحقاً على كل أفراد العائلة. مقتل والدها دفع عائشة إلى الحقد المعلن على الجماعات الإرهابية والتكفير والتشدد، لا بل حتى على دينها الذي أفقدها الأب. لم تستبعد أن زوجها كان وراء هذا الفعل، على الرغم من محاولاته النفي والبراءة من ذلك. كانت ردة فعلها كارثية عندما أقدمت على خلع حجابها. إذ انتشرت على صفحاتها عبر المواقع الإلكترونية عبارات منددة بالتطرف والمجاميع المتشددة، لا بل زادت في منشوراتها المشككة من محاكاة مفتعلة لإسلامهم في نسخته التاريخية، الأمر الذي زاد من غضب زوجها، فما كان منها إلا أن تطلب الطلاق منه. فطلقها على الفور.

مكثت بجانب والدتها ترعاها وتندب حظها العاثر. لكن التهديدات لم تنقطع عنها. لذلك بدأت أمها تخشى عليها كي لا تلاقي مصير الأب ذاته. وفي ظل الفوضى التي كانت تعيشها العاصمة والمدن الأخرى، قررت عائشة الشابة الجميلة ذات مساء الهرب هي وأمها من هذا البلد الذي تسفك فيه الدماء وتجري مجرى المياه في الصنابير.

شقّت رحلتها عبر إيران التي استطاعت أن تدخلها مع الأم لتذهب من خلالها إلى تركيا، ثم اليونان وعبر مهرّب خبير وسيراً على الأقدام لأيام مرهقة عبر الغابات، حتى استطاعت الوصول إلى

الأراضي الألمانية. فأستقر بهما الحال بهذا المخيم في مدينة كولن مع فراس وسليمان وآخرين.

سحرت عائشة كل من في المخيم بجمالها البري المحبب إلى الشباب. لها ابتسامة لافتة وسلوك عفوي، وعلى وجهها موجة من البراءة تذيب كل من يلاقيها في المخيم. روت ذات يوم قصتها إلى معلم اللغة الألمانية في أثناء درس اللغة. عندما طلب المعلم أن يروي كل طالب قصته ورحلة وصوله إلى ألمانيا وباللغة الألمانية كدرس عملي في اللغة. ذلك الدرس يشبه الامتحان. حكت قصتها وفي ختام حديثها قالت: " أنا أكره الملتحين والمتشددين، لأنهم يذكرونني بقتلة أبي وطليقي المتطرف بكل شيء حتى في علاقته الخاصة معي. فهو رجل عنيف حتى بتناول طعامه. لا أعلم لماذا يكره الناس بعضهم بعضاً على أساس الدين؟ لماذا يتشدد الناس بالدين بشكل عدواني؟ ربما السبب يعود لمرض في دواخلهم."

أدهشت معلمها الألماني الرجل العجوز، بل أدهشت كل الطلبة المهاجرين في القاعة ومن أدرك محتوى ما قالته في اللغة الألمانية. فقال لها المعلم: "أحسنت عائشة. لغتك الألمانية أصبحت أفضل بكثير، بل أنك تجيدين التعبير عن المشاعر الصادقة باللغة الجديدة."

لذلك كان الجميع يرغبون في الحديث مع عائشة ويستمتعون بكركرتها إلّا "معاذ الجزائري"، الذي لم يكن يتقبل كلامها. الجزائري هذا متشدد آخر يظهر في حياتها. شاب ملتحٍ ذو مظهر كئيب لا يبتسم مطلقاً. هو جاد الى درجة مقيتة. كان مظهره يذكّرها دائماً بالمتطرفين. وإذ قالت لفراس يوما ما: "يبدو أن المتطرفين يلاحقونني حتى في جنة ألمانيا".

٢٩

انجذبت عائشة إلى فراس، في أول دخوله إلى قاعة الدراسة، حيث كان أنيقاً بطلة رشيقة ووسامة مختلفة عن الآخرين. وعندما طلب منه الأستاذ أن يجلس، انتبذ مكاناً إلى جوار عائشة، يتحاشى نظرات الأخذ من حوله. ألقى التحية عليها معطرة بابتسامة فاترة. لكنها وبمرور الأيام وحضور مشترك إلى المحاضرات توطدت العلاقة والابتسامات المتبادلة والتحايا. لم يتكلم معها، لكن كيمياء الانجذاب بينهما أحدثت تواصلاً روحيًّا. وفي اليوم الذي كلفهما المعلم معاً بواجب مدرسي، تبرعمت ثمار العشق وقدحت زهور العلاقة بينهما. قام الاثنان بأداء مشترك للواجب. سألته عائشة بخجل: "من أين أنت ؟" فيجيبها بأنه عراقي وأيزيدي أيضاً.

كانت تعرف وجود عدد من الأيزيديين في المخيم، لكنها لا تعرف عن معتقداتهم شيئاً وعن سبب هجرتهم. كانت تسمع كثيراً عنهم ومن بعض النساء والشباب العرب والعراقيين والكرد، بأن هؤلاء الأيزيدية "عبدة الشيطان" ولا يؤتمن لهم جانب. لهم طباع وعادات غريبة، ولكن كل ما كانت تسمعه أو سمعته لم تره في فراس الأنيق والجميل والهادئ. تساءلت مع نفسها: "أيعقل أن يكون هذا الشاب الوسيم كافراً ؟ أيعقل أن فراساً لا يدخل الجنة ؟ ومن قتلوا أبي من المؤمنين بالقتال سيدخلونها ؟ ثم تتساءل مع نفسها. لما هذا التقسيم الذي وضعته الأديان بين مؤمن

وكافر؟ لماذا لم تقسم البشرية بشروطها القاسية إلى جميل وقبيح ؟ إلى طيب القلب وخبيث ؟ إلى شرير وخيّر؟ لماذا يكون التقسيم على أساس الانتماء والفكر وليس المشاعر والسلوك؟ ولماذا كل هذه الافتراءات التي يحكيها البعض على هذه الاقلية الايزيدية؟ " استسلمت بسرعة لجمال وهدوء فراس وحديثه. هو أيضاً بادلها الشعور ذاته. لا يعقل أن تكون عائشة إلا أيزيدية. كان يقول ذلك مع نفسه ويتكلم أحياناً مع سليمان فيسأل سليمان بعفوية: "يا أخي دمها وطبيعتها الإنسانية الفائقة، كأنها من سنجار أو الضيعة. كأن جسدها الجميل عُمِّد من ماء زمزم[1] و"كاني سبي"[2]. لا يعقل أن تكون عائشة من معقل تفريخ الإرهابيين وتصديرهم إلى البلدان المبتلية بهؤلاء.

تعمقت العلاقة بينهما. كل من يعيش في المخيم بات منتبهاً لتلك العلاقة. صارا متقاربين في قاعة الدرس وخارجها وفي كل مكان. ذات يوم وفي قاعة الطعام حاول معاذ الجزائري مضايقة عائشة، حيث تفوه بكلام بذيء عنها. واصفا إياها بالعاهرة الأفغانية. فما كان منها إلا أن بصقت بوجهه. لكنَّ معاذاً ضربها على وجهها، فوقعت إلى الأرض. كان فراس جالساً مع شلة الأصدقاء الجدد وشاهد ما فعله معاذ. انتفض كالبركان وصرخ على معاذ بقوة وثورة عارمة. ركض ونظر يميناً ويساراً يبحث عن شيء يضربه به، لم يجد سوى قنينة زجاجية في طريقه، فحملها وقفز باتجاه معاذ من فوق المنضدة التي يجلس إليها. ضربه بالقنينة الزجاجية على رأسه. ثم ركله على بطنه ركلة أردته أرضاً. حاول معاذ النهوض للرد عليه. لكن فراساً استمر بضربه حتى

---

(١) ماء زمزم هو ماء مبارك ينبع ويجري داخل كهف في وسط معبد لالش القريب من قضاء الشيخان ويمارس فيه الأيزيديون طقوسًا دينية.

(٢) كاني سبي أو العين البيضاء هي حوض ماء في معبد لالش ماؤها يجري من الجبل ويعمد فيه الأطفال بعد الولادة بطقس التعميد وملزم لكل أيزيدي أن يعمد في هذه المياه.

تحول وجهه إلى بقعة دماء. تخضبت لحيته بالدماء. هنا تدخل بعض من شهد الحادثة بينهما لفك النزاع. لم يكن سليمان موجوداً، عندما حدث هذا الشجار. اتصل بعض الشباب به لمعرفتهم بقربه وتأثيره عليه. حضر سليمان وسحبه من يده بقوة. عينا فراس كانتا تبحثان عن عائشة، التي هربت إلى غرفتها باكية. في هذه الأثناء حضر جماعة من أمن المخيم مع سيارتين واحدة للشرطة وأخرى إسعاف فوري. اقتادوا الاثنين معاً. خرجت عائشة من غرفتها باكية تنظر إلى فراس بحزن وأسى، وهي تنظر ليديه الملطختين بالدم من أثر الزجاج المتشظي.

كان هذا الحادث بداية لحديث الناس في المخيم بعلاقة الحب والاهتمام بين عائشة وفراس، وبعد الأفراج عنهما بعدم تكرار ما حدث من قبل الشرطة. غدت علاقتهما أقوى وأكثر شاعرية وحميمة.

ذات يوم حضر أحد أقارب عائشة من المدن القريبة، ليدعو عائشة ووالدتها إلى حفلة عشاء في منزله. لكن عائشة تعذرت بحجة وجود دروس تفرض عليها البقاء، فاقترحت على والدتها الذهاب لتلبيه الدعوة فتم ذلك، أما هي فخططت للخروج مع فراس، كي ينطلقا خارج قفص المخيم.

في الطريق كان الشارع المؤدي من المخيم إلى محطة الباص رحباً جميلاً تصطف الأشجار الباسقة على جانبيه، منظر جميل بأصوات العصافير لعاشقين يمشيان معاً، كان الحديث بينهما حميماً يلتصقان ببعض لا يعرفان من هذا العالم سوى بعضهما، كانت أيديهما تتشابك بحنان. يتحدثان ويضحكان. وقفا في مكان منزوٍ في محطة الباص. وضع يده على خصرها وقبلها قبلة العاشق المتيم. لم يكن أحد في المحطة سواهما. كرر احتضانها وعاد لتقبيلها بحرارة منغمساً بمتاهة

العشق الساحرة. تدفقت حرارته بين شفتيها الرقيقتين. راح يشم طعم أنفاسها الملتهبة. سرت في جسده رعشة غريبة ودافئة. مستمتعاً بشم أنفاسها التي ذابت في جسده كشرارة من نار حميمة. ذابت البنت بين يديه وبادرت بتقبيله قبلة عميقة أنستهما للحظات بموعد قدوم الباص. وفي الباص الخالي من الركاب جلسا متجاورين. أمسك يدها بقوة متحسساً أصابعها الرخامية. راح يمسِّد على راحة يدها. كأنها طفلته التي يحاول استشعارها بكيمياء الحب الخفية التي تفتَّقت في تلك اللحظة. قال:

- هذه أفضل فرصة لنا. أجمل قرار تتخذه والدتك في الذهاب حين تتركك تكملين واجبك وحدك، فضحك بصوت عال، فقابلته بضحكة أعلى من ضحكته، ثم قالت له: " لولا حيلتي هذه لما كنت بجانبك الآن".
- وهذه أول مرة أكذب عليها.
- كذبة بيضاء.

أدارت وجهها نحو نافذة الباص. تنظر إلى سحر وجمال الطبيعة. إلى الرذاذ الذي يضرب زجاج النافذة. إلى خريطة سرية من قطرات المطر وهي تشق طريقها إلى المجهول تراقص الأشجار الخضراء. استدارت إليه. ثم قالت:

- سأترك الدنيا وما فيها من أجلك فراس.

قبَّل خدها، وكان بارداً قليلاً من لسعات البرد، ثم قال: "سأترك كل الدنيا من أجلك."

- إلى أين سنذهب؟ قالت له.
- إلى السوق القريب. من هنا مسافة خمس محطات. ندخل مطعماً ونتعشى معاً. وبعدها نعود؟

كان السوق مزدحماً بالناس في يوم السبت. تخرج الناس لقضاء يوم عطلتها. ترقص وتشرب في الشوارع. يضحكون ويبتسمون ويعيشون الحياة بأحلى صورها المسالمة.

دخلا إلى المطعم الذي بدا مزدحماً بالشباب على صوت الموسيقى تصدح فيه. أغانٍ بلغة ألمانية لا يدركان كلماتها. ربما تلتقط عائشة كلمة أو أخرى مما تعلماه. قال لها: " سأطلب لي كأساً من الويسكي قبل أن نتعشى". ابتسمت وقالت: "ويسكي !!". فقال لها: "نعم وأنت ماذا تأخذين قبل وجبة العشاء؟" قالت له: "أشرب عصير ليمون."

قال لها:

- " عصير ليمون !!" لماذا لا تشربين عصير العنب؟ فهو أيضاً من العصائر. يطلقون عليه الواين.
- وما هذا الواين؟ هل هو خمر؟

ابتسم وقال" لا أنه بيبسي كولا"، واستدرك قائلاً بحنان "الواين هو عنب معتّق وهو من الخمور، أرغب في أن نعيش ليلة استثنائية تنسيني همومي وتمسح عنك معاناتك. تجعلني لا أرى حولي سواك. هذا أولاً، وثانياً يا حبيبتي!!! قالها في العربية وكانت عائشة قد تعلمت بعض الكلمات منه بالعربي ومنها هذه الكلمة. استغربت لكلمته المنطوقة بعفوية منه، ولكنها كانت نابعة من قلبه، حتى أن أعينهما تسمرت من دون حركة. لما فعلته تلك الكلمة. قال لها:

- نحن لسنا في أفغانستان. نحن هنا في ألمانيا. انظري من حولك. ليس للناس سوى الانشغال بأنفسهم. يختلفون عن مجتمعاتنا. نحن ننظر إلى الآخرين وننسى أنفسنا. نتحدث عن عيوب الآخرين وننسى عيوبنا. ألمانيا غير أفغانستان والعراق. هناك ثقافات وهذه ثقافة مختلفة كليًا.

ترددت قليلاً وقالت له:

- أتعلم يا فراس أني لأول مرة سأجرب فيها هذا الواين. عائلتي لا تعرف احتساء الخمور ولكني سأجربه معك ومن أجلك. لا أرفض لك طلباً.

طلب فراس من النادل بأن يأتي لهما بكأس من الويسكي وآخر من نبيذ أحمر. رفع في يده كأس الويسكي بشكل احترافي أمامها في إشارة لتبادل النخب. ارتبكت ماذا تفعل. فطلب منها رفع كأسها ثم تمس كأسه. شرب كل واحد من كأسه، ثم طلب لهما كأسين ليزيدا من متعة اللحظة العظيمة.

قال لها فراس، وهو ينظر في عينيها ويمسك في يديها بدفء:

- عائشة أرغب أن تخلعي هذا الوشاح الذي يغطي شعرك.
- إنه ليس حجاباً، إنه وشاح. هو تقليد أفغاني فقط. نحن نختلف عن العرب الذين يغطون بحجابهم كل الرأس.
- لا علاقة لي بهذا النقاش، فقط أرغب أن أرى شعرك أمامي.

مد يده بخفة إلى الوشاح ثم أزاحه بهدوء ليسقط إلى خلف الرقبة. بدا شعاع عائشة كشمس ربيعية جميلة وكأنها وهبت المكان رونقه وزادت من سحره. تدلّى شعرها الجميل على كتفيها فرفعته بيديها لتزيد من تعذيب فراس المنبهر بهذه الفتاة التي سحرته. قال:

- "كم أنت جميلة من دون الوشاح؟"

لم يتمالك دفء كلامها في تلك الجلسة السحرية التي استمرت طويلاً وكادا ينسيان نفسيهما. تقرب إليها ووضع أنفه أسفل رقبتها. راح يشم رائحتها العبقة التي كانت تثير مشاعره الخفية. تثير غريزته، واصل التقرب منها برومانسية ليصل إلى أذنها. فهمس بحبه لها وتقدم إلى شفتيها وأخذهما بشفتيه. يمصهما بجنون الشبق المتدفق. بشوق

وحرارة يختلط فيها الرضاب مع مذاق النبيذ. ثمة شهد ينضح من شفتيها. أطال النظر في عينيها ليخبرها في لحظة وجدانية خالصة: "أحبك عائشة" وكررها باللغة الألمانية فابتسمت ونظرت في عينيه وقالت وأنا أحبك كثيراً فراس.

٣٠

عاد فراس من سهرته قبيل الفجر. دخل الغرفة بهدوء، كي لا يوقظ سليمان، لكن الأخير كان يقظاً لسبب ما. تفوح من فراس رائحة الخمر الذي شربه. فتح ضوء الغرفة وحاول أن يستبدل ملابسه، لكن سليمان نهض من مكانه قائلاً: "أصبحت تتأخر هذه الأيام شيخ. إن شاء الله الأمور خير؟"

جلس فراس قبل أن يتكلم. كان يشعر بدوار خفيف، وعلى الرغم من بقايا النشوة التي كانت تظهر على محيَّاه، أجاب: "كيف صحتك؟ كيف وضعك صديقي؟" قالها بنبرة متلكئة بالكلام.

رد عليه سليمان بنبرة حزينة وخائفة من مصيره: "وهل تعنيك صحتي؟ أصبحت يا صديقتي غير مبالٍ بأحد."

- ما هذا الكلام سليمان؟ كيف لا أبالي بأعز الأصدقاء؟ ما الذي تقصده بكلامك؟
- أقصد ما أقصده. قلْ لي أين كنت؟ ولماذا أصبحت تتأخر هذه الأيام. "تكلم سليمان بدافع المسؤولية والمحبة واستشعاره لمصير هذا الشاب الطائش، الذي بدأ يفقد سلوكه الصحيح".
- كنت مع أصدقائي. أجابه بتردد.
- وأي أصدقاء وأنا أعرف كل جماعتنا (الأيزيديين) في المخيم؟ ولا علم لي بأنك معهم أو لديك أصدقاء آخرون؟

- زوجك سليمان. أنا تعبان وأريد فقط أن أنام. "قالها فراس الشيخ محاولاً الهرب من تساؤلات سليمان".
- نعم. قالها سليمان بقوة واستدرك قائلاً: "اعتقد أنها عائشة أفقدتك عقلك وأهلك وأصدقاءك"
- لا أسمح بهذا الكلام أبداً، ولا أقبل أن تأتي بذكرها بهذه الطريقة.

زاد سليمان من حدة كلامه وغضبه بسبب حرصه ورعايته لصديقه الشاب الصغير. قال:

- افهم يا فراس أنت هنا جئت لإنقاذ أهلك ومساعدتهم. ونحن في هذا المخيم بوجود مؤقت. وسنعود إلى حياة أخرى أسوة بالآخرين الذين سبقونا. سنجتمع مع الأهل من جديد حتماً. لا يحق لنا أن نتصرف بطيش هنا. أنت شاب والطريق أمامك. المخيم يتحدث كله عن علاقتك مع عائشة وقضائك اليوم كله معها، هذا يزيد المخاوف من الانحراف عن هدف الهجرة. بل تجاوزت علاقة الصداقة بينكما خاصة بعد دفاعك المستميت عنها وما حدث لك من خصام مع معاذ الجزائري.
- من قال لك أن علاقتي بعائشة علاقة صداقة؟ أنا أحبها وسبق أن قلت لك أني سأتزوجها!

قال هذا الكلام بهدوء وهو يفتح له علبة ماء باردة من الثلاجة. ليقول له:

- هذا ابن القحبة معاذ لولا إنقاذه من يديَّ كنت قطعت وريد رقبته وجعلته عبرة لمن يعتدي على عائشة.
- أنت مجنون بالفعل. زواجك منها. أمن عائشة؟ هي مسلمة وأنت أيزيدي هل تفهم ذلك؟ كيف لك أن تتزوجها؟ ماذا سيقول الأيزيديون وأهلك عنك؟ هكذا أمور ممنوعة في ديننا.

أتعلم ذلك؟

- أية عائلة تتحدث عنها؟ أختي الملعونة التي قفلت الهاتف في وجهي؟ وها أنا أدخل الستة أشهر ويزيد وهي لم تسأل عني. أقاربي اتصلوا مرتين فقط، أنا بالنسبة لهم مشروع تجاري في ألمانيا. الغربة لعنة والوطن لعنتنا الأولى.
- كلنا نعاني مما تعانيه، وأغلب الذين أتوا إلى هنا يعيشون مثل حالتك. ها أنا أمامك لم يسأل عني أحد. والمرض أنهكني وما أخذته من جرعات أنهك جسدي وأسقط شعري. لم يأتِ لزيارتي أحد.
- الحب بالنسبة لي لا يعرف ديناً ولا طبقة ولا طائفة. أحببت في بعشيقة فتاة وكانت أيزيدية وهي جارتي، وعندما كبرت قليلاً أدركت أنه لا يجوز أن أتزوجها لأنها من طبقة أخرى!! أيزيدية ولكن من طبقة أخرى. لا أعرف لماذا وكيف؟ هنا في ألمانيا لا يوجد ما يمنع زواجي ممن أحب.
- وهل تترك دينك وعائلتك وتاريخك؟
- عندما يتركني الجميع أتركهم. عندما تكون جائعاً ومشرَّداً ولا تطعمك سوى عاهرة في مجتمع يتخلى عنك، فهل تحترم الشرفاء الذين تخلوا عنك؟ أم تنحني وتحب العاهرة التي أطعمتك وآوتك؟
- يبدوا أنك سكران يا فراس؟ لا ينفع الكلام معك، فأنت تتخبط في كلامك. نمْ وسيكون لي حديثٌ مغايرٌ معك صباحاً.

كانت ليلة مؤلمة لسليمان. زادت من آلام مرضه. شعر بألم كبير في صدره بسبب نقاشه الحاد مع فراس والأفكار التي بات يحملها هذا الشاب النزق. شاب تربَّى في بيئة محافظة وطيبة هناك، في قريته

الصغيرة بحزاني، وهو أصلاً من عائلة فقيرة تعاني من أجل قوت يومها.

كان ينظر إلى فراس الذي ينام على بطنه، ويشخر بشكل مقرف، وبقايا من لعابه يسيل من جانب فمه. يسأل نفسه عن أي مصير ينتظر هذا الشاب ؟ أي ضياع يعيشه ؟ ترى لو كان في بلده، هل كانت تحدث هذه التغيرات عليه ؟

شعر سليمان بتخبط أفكاره. بدأت موجة من الأفكار الغريبة تتصارع برأسه بقوة. تقلب قليلاً فكر في ابنتيه ومصيرهما. ربما لن يكون أفضل من مصير هذا الشاب الذي أسكرته المعاناة، وزادت الغربة من وحدته. فكيف لو أحبت ابنته هناك شخصاً غريباً عن بيئتها؟ ماذا لو كانت ابنته كعائشة هنا تحب شخصاً من غير ملّتها في دهوك؟

بعد ساعة مضطربة من قلق واحتدام نهض من سريره. كان نور الشمس قد ملأ الغرفة من خيوط ذهبية. يبدو أن الوقت متأخر. نظر إلى فراس، فما زال نائماً. ثمة طرق على الباب. نهض مسرعاً فوجد عائشة أمامه.

- كوتن موركن[1]؟ فراس موجود؟

لم يكن سليمان يكره عائشة على الرغم من تحفظه على مشروع فراس بالزواج من هذه الفتاة. والنقاش الذي دار بينهما ليلة البارحة. فوجهها وجمالها وبراءة ملامحها لم يكن يعطي له قدرة في كره عائشة. فقال لها:

- نعم موجود ولكن يبدو أن احتسى كمية كبيرة من الخمرة ليلة البارحة.

---

(١) صباح الخير في اللغة الالمانية.

على جلبة الصوت نهض فراس مفزوعاً، كأنه سمع صوتها يرن في أذنيه. ارتدى ملابسه وأقبل إليها مبتسماً ومنشرحاً. التفت إلى سليمان قائلاً: "اليوم سوف أتأخر. أرجو ألا تنزعج مني. وأنا آسف حقًّا لما بدر مني ليلة البارحة."

ثم أمسك بيد عائشة والتي هي من جانبها قبضت على يده بشدة، وكأنها لم تره منذ سنين ومشيا في ممرات المخيم كمتيَّمين تحملهما أجنحة سعادة العاشقين.

قفل سليمان الباب وجلس يغلي الماء ليعمل له كوباً من القهوة مهدّئاً عبث الأفكار المتضاربة التي تدور في رأسه.

***

في هذه الأثناء قررت إدارة المخيم وفقاً لقوانينها وأنظمة معاملة المهجرين بنقل عدد منهم وأصدرت كتابها بذلك، وكان من بين من شملهم النقل عائشة ووالدتها إلى مدينة تقع على الحدود الألمانية – الفرنسية تبعد هذه المدينة ما يقارب من ثلاث إلى أربع ساعات بالقطار. علمت عائشة ذلك برسالة من والدتها بأن موظف المخيم جلب لهم بريداً يتضمن قسيمة ترحيلهما إلى هذه المدينة. تغيرت سحنة وجهها. انهمرت الدموع من دون إرادتها. وقف فراس بجانبها. وهي تقرأ رسالة أمها ولم يعلم بما حدث من كارثة. كانا يتناولان الفطور في أحد المطاعم القريبة من المدينة على نهر الراين. سألها فراس وهو يرتشف كوب القهوة: " ما بك حبيبتي؟"

وضعت الهاتف في حقيبتها ونظرت إليه مطوّلاً. وضعت يديها بين يديه. فأحكم فراس بأصابعه على يديها الملساء الناعمة البيضاء. كوَّر يديها وأصابعها بين يديه. كرر عليها السؤال ذاته: " ماذا بك حبيبتي؟

من الذي اتصل بك؟"

فقالت له بصوت خافت: "أمي"

- وماذا تريد؟ وماذا بها؟؟

- جاء موظف من المخيم وسلم أمي ورقة بريد، جاء فيها أنه بعد خمسة أيام سيتم ترحيلنا إلى مدينة بعيدة على الحدود. أعلمتني أن هذه المدينة تقع على الحدود الألمانية الفرنسية، وتبعد من هنا ما يقارب الأربع ساعات مثلما أعلمها الموظف.

ابتسم فراس لها مقبلاً يديها:

- وما المشكلة في ذلك؟

ردت عائشة بعصبية: "ماذا تقصد وما المشكلة؟" المشكلة يعني سأكون بعيدة عنك بأربع ساعات. في مدينة بعيدة عنك. يعني أنني لن أراك يومياً.

بدت عليها علامات الحيرة. صوتها تحشرج بغصة عميقة. عيناها ازدادتا احمراراً. ثم أردفت القول:

- يبدو أنك فرح لهذا الخبر.

قالتها بصوت هادئ والدمع ينهمل على خديها. لكم كانت جميلة تلك الدموع التي تجري على تلك السفوح الثلجية. كأنها فصوص ألماس تتدحرج بانتظام.

رفع فراس يده ومررها على خديها. راحت أصابعه تمسح الدموع من عينيها. قال لها:

- حبيبتي عائشة أننا خلقنا لبعضنا. هذه الأقدار هي التي جمعت روحينا معاً. نحن من عقيدتين مختلفتين ووطنين متنافرين وثقافتين مختلفتين. ولكن إصرارنا على الحياة أقوى من كل هذه الظروف. هي كفيلة بجمعنا وقت ما نشاء لا ما يشاء القدر.

هذه الأقدار يحددها الله، وقدري هكذا أراه بين عينيك. أن أعيش معك لأني أحبك. سألغي التباعد والمسافات البعيدة عندما أقرر أنا وأنت فقط.

زاد كلامه من حدة حزنها. شرعت بنوبة بكاء صامت. نظرت إليه، وقالت:

- ماذا تقصد؟
- أقصد أني سأكون معك وسأذهب معك إلى هذه المدينة؟
- كيف؟ ونحن .....؟ "وكأنها أرادت أن تسرد كل الممنوعات والمحظورات أمامه لترى كيف وجد كل الحلول لها".
- أنا أحبك وسأتزوجك وسأختصر كل المسافات بيننا.

وضعت يديها على وجهها وبدأت تضحك ضحكاً مختلطاً ببكاء هستيري. كأن ما قاله محض خيال. فقالت:

- تتزوجني؟
- نعم. أتزوجك وبإصرار. هل تقبلين أم لا؟

أمسكت بيديه وكأنها تحاول أن تميز حديثه بين الجد والهزل. ولكن محيَّاه وعينيه فيهما من الإصرار والصفاء مما يدل على جدِّيته.

- لكن كيف نتزوج؟ وأنت تقول إنكم في الأيزيدية تمنعون ذلك؟
- وأنتم في الإسلام تمنعون أن يبدل الفرد دينه أليس كذلك؟
- نعم؛ هذا صحيح.
- إذن لنتفق أن يكون لنا دين واحد لنا يجمعنا إن كان ذلك ضروريّاً. يوحدنا دين نحب فيه بعضنا كبشر ائتلفت قلوبهم وستعيشين أنت كما تريدين، وأنا كما أريد، المهم أن نكون معاً.

قبلت يده بقوة لأكثر من مرة. كأنها تقدم الشكر والامتنان لفروسيته وحبِّه وصدقه.

٣١

في ذلك الصباح الذي ترك فيه فراس صديقه سليمان وذهب بمعيَّة عائشة. جلس سليمان في غرفته مكتئباً حائراً في زمانه. يفكر بحديث الليلة الفائتة مع فراس الذي باغته بحزمة من أفكار غريبة، جعلته يعيد النظر بوضعية فراس. وعن نيَّته في الزواج من هذه الأفغانية ضارباً بعرض الحائط كل التقاليد والموروث المحلي الذي تربى عليه، هذه الأفكار ربما يحملها الكثير من أمثال فراس، وربما ستكون أمراً معتاداً في هذه البلاد التي تضفي برودتها على كل شيء، ليس فقط على الأجساد وإنما المشاعر والتقاليد والعادات، فكل شيء يفقد فيها حرارته وعبقه.

كانت صحة سليمان حينئذ قد تدهورت بشكل متسارع، فبعد ثلاثة أشهر من اكتشاف وتشخيص المرض الخبيث تفاقمت الحالة الصحية وتردَّت. بانت على وجهه سيماء المرض وجسده الواهن كالثمرة التي تقضمها يرقات الأشجار. ففي الأيام الأولى كان فراس يلازمه ويحرص على مرافقته في فترات العلاج. يرافقه إلى المستشفى لتلقي الجرعات الكيمياوية بمواعيدها ويشد من أزره ويخفف عنه المرض. عليه منذ الآن الاعتماد على نفسه بعد انشغال فراس بحبيبته..

شعر بالدوار قليلاً في رأسه، لكنه أقنع نفسه أن هذا الدوار

المتلازم لحالته هو نتيجة قلة النوم والإجهاد في التفكير والكآبة الملازمة. كان يأمل في البداية في حياة وردية آمنة عند وصوله إلى ألمانيا، لكن الأمر تبدل نحو رحلة علاج مضنية، ربما ستنهي حياته، أو ربما سيعيش لفترة محدودة. في تلك اللحظة رنَّ هاتفه النقال ففزع من حدة الصوت. نظر في الشاشة فاستغرب بأن الذي يتصل فيه أخوه فرحان، الذي لم يكلمه منذ أكثر من عشرين يوماً.

تحدث الأخ مع أخيه عن الحياة اليومية مقدماً له النصائح المجانية والجاهزة عن أثر الغربة وطرائق التكيف معها. بدا أن الاتصال هو مجرد التزام عائلي مفروض عليه. بدأ الحوار بأسئلة تقليديه نحو: "كيف حالك؟ أوضاعك؟ تحتاج شيئًا ما؟ "

كان بود سليمان أن يخبره عن حالته المرضية ووضعه الصحي والألم الذي في صدره ورأسه، وعن تأثير العلاج الكيمياوي الذي بدأ بالنحول والاصفرار وتساقط الشعر والغثيان المصاحب. لكنه في لحظة ما كابر على نفسه إخبار فرحانَ الذي لم يكلف نفسه يوماً بزيارة أخيه في المخيم، سوى مرة يتيمة فقط.

قفل خط الهاتف على الرغم من أن المكالمة آلمته كثيراً، وإحساسه بالغربة أكثر من ذي قبل. ثم أمعن النظر بوسادته والشعر المتساقط يتجمع عليها. إنه لأمر مرعب أن ينظفها في كل صباح ثم تتجمع الخصلات المتساقطة من جديد. نام متمدداً على فراشه يحلم كثيراً وينام قليلاً ، كان يباغته بين فترة وأخرى ذلك الحلم الرهيب، حلم الفريق عمر وهبي باشا ، يفكر كيف كان السيف لا يغير دين الكثير من أهله في ذلك الزمن، وكيف الآن تتغير قناعاتهم وانتماءاتهم بسهولة كحال فراس وربما الكثيرون غيره.

استيقظ في وقت المساء. صباح كئيب ثم مساء آخر أشد كآبة

واسوداداً. ما الذي يعنيه الوقت لرجل يكابد؟ وما تبقى له من حياة آفلة ستتضح تنبض بريقات السرور على شجرة العمر. حضر فراس عند الثامنة مساءً ودخل الغرفة ملقياً التحية وهو مشغول بخلع ملابسه. ومن ثم تمدد في فراشه. كان يسأله الأسئلة التقليدية المعتادة في كل يوم عن صحته ووضعه فأجابه بأنه بخير.

ثم بدأ فراس حديثه بشهية مفتوحة:

- أنا قبل يومين تحدثت معك بشأن عائشة. واعتقد كنت سكراناً في ساعة الحديث. ولا أعرف ماذا تحدثت وأنت الصديق الذي أحترمه كثيراً وتحترمني. عشت معها رحلة متعبة من العراق إلى هنا. تحملنا معاً كل الصعوبات والمشاق. ثمة صداقة نقية تجمعنا. وهي الأغلى والأعز عندي. أعرف أني أصغر منك بكثير وكنت لي بمثابة الوالد والمعلم والناصح. أقدم لك أسفي عن ما حصل تلك الليلة. لقد أزعجتك وأنت في وضعك الصحي الصعب هذا والذي يؤلمني كثيراً. أتمنى من كل قلبي أن تكون بخير وتسامحني. وأن تتحسن حالتك وتجتمع مع أهلك قريباً.

كانت هذه المقدمة التي استهل الحديث بها فراس. كان جالساً على سريره بقبالة سليمان الذي جلس هو أيضاً يستمع إليه، ثم استكمل حديثه بالقول:

- أنا قررت الذهاب مع عائشة إلى مدينة "Freiburg" (١) وسنكون معاً. أرجو منك أن لا تخبر عائلتي أو أهلي. وإن كنت مضطراً لإبلاغهم، فقل لهم إنني انتقلت من هذا المخيم إلى مكان آخر، ولا تذكر لهم قصة عائشة. هذا ما أطلبه منك. أتمنى أن تلبي طلبي.

شعر سليمان بالضيق بعد نوبة حمى تتصاعد كالبخار من جسده.

---

(١) مدينة ألمانية على الحدود الفرنسية.

يصاحبها ألم فظيع في الصدر ونوبة سعال متقطع. لم يكن يرغب في إطالة الكلام معه، إلا أنه اختصر رده قائلاً:

- أنا لن أجبرك يا فراس على الذهاب مع عائشة على الرغم من معرفتي بأنك ترتكب الأخطاء بحق أهلك وأقاربك ومنطقتك وكل انتماء تنتمي إليه. نحن يا بني لم نأتِ إلى ألمانيا لكي نضيع فيها ونفقد كل ما تربينا عليه. لقد جئنا مكرهين ومضطهدين، فجذورنا هناك. أفهم كثيراً سلوك أختك وأقاربك وعدم سؤالهم عنك أفهم كثيراً تحفظاتك على كل ما عشته. ولكن بالنتيجة أنت شاب تستطيع أن تبني مستقبلك هنا وتستمتع بما في هذا البلد من حياة إيجابية، ولكن لا تقطع صلة المودة مع أهلك ولا تنسف المعتقدات التي تربيت عليها.

استكمل سليمان بعدما وضع الوسادة بين يديه وانحنى عليها، قائلاً:

- الحب إحساس جميل نعيشه بوجداننا، في فترات من أعمارنا. من الممكن أن تعيشه مرة أو مرتين، ولكنَّ هناك نوعاً خاصّاً من الحب. حب العِشرة والصداقة والمودة. هناك نساء نحب عشرتهنَّ لكن في النتيجة لا نحب الزواج منهنَّ. هنَّ قريبات وإيجابيات منَّا فقط. الحياة ليست في الحب فقط، إنما سلسلة من قضايا عديدة مترابطة. اعلم ذلك يا عزيزي. أعلم أنك تحب عائشة، ولكنك بالمقابل ستفقد أمك وأصدقاءك وسمعة عائلتك، ربما لن تعود إلى مدينتك مرة أخرى، نصيحتي لك أن تتريث قليلاً في قرارك هذا.

- أشكر كلامك الصادق هذا سليمان، ولكن سبق أن قلت لك نحن لا نعيش حياة مريحة لا في وطننا ولا في بلدان الغربة، وما

يحكمنا من أعراف تصعب أن تجعلنا نعيش بحرية في محيطنا
ونحن لا نضع حلولاً لها فنضطر للقفز عليها والهرب منها.
هناك من لا يقبل أن تبقى هذه الأعراف هي من تحدد خياراته.
ثمة معوقات كبرى هي من ترسم خريطة حياتنا. لا بل أحياناً
تفرض علينا خيارات نرغم على قبولها. لهذا أطلب منك عدم
الحديث عن هذا الموضوع وسأبقى على اتصال بوالدتي. أما
عائشة فهي مثلي بكل هذا الاغتراب. نحب بعضاً واتفقنا أن
نعيش بما يؤمن كل أحد منا. هل تعرف أنها طلبت مني أن
تصبح أيزيدية، لا أعرف لماذا لا نقبلها في ديننا؟؟ ولكن كما
تعرف فالمحظورات كثر في شأن هذا الانتماء.

- أعدك بأني لن أخبر أحداً بذلك، ولكن لي شرط وحيد أيضاً.
- ما هو؟
- إن تبقى على اتصال بوالدتك وتساعدها. وأنت حر سواء إن
قلت لها أم لا. تتصل بها دائما وترسل لها ما تحتاجه.
- أعدك بذلك وسأتصل بها دائما.

في الصباح كان فراس قد جهز حقيبته. وضع فيها ملابسه
وحاجياته اليومية. كانت تنتظره عائشة أمام الباب بكل أناقة السفر:
بملابس رياضية ضيقة تزيد من جمالها، ملابس تتماشى مع موضة
العصر، مسكت يده وكان في يده الأخرى يجر وراءه حقيبته السوداء
ونظر إلى سليمان نظرة أخيرة وكأنه يودعه إلى الأبد، ثم توارى في الممر
الطويل وبعدها انعطف يساراً. بقي سليمان أمام الباب لفترة قليلة من
الوقت ثم قفل الباب عائداً إلى فراشه.

٣٢

بدأت حرب تحرير بعشيقة في ٢٠١٦. تواترت أخبار التحرير في كل ساعة من جبل بعشيقة عبر مواقع التواصل الاجتماعي وبعض قنوات محلية. كانت أعين الناس مشدودة إلى متابعة الأخبار المتلاحقة، بعد أن تركوا أعمالهم وشؤونهم إلى ما بعد التحرير. تنقل لهم الصور المباشرة عن حجم الخراب والدمار، الذي خلّفه تنظيم داعش لهذه المدينة الجميلة. ربما أيضاً توالت بعض إشاعات مضادة عن قوة داعش بأنها حفرت أنفاقها في بيوت المدينة وابتدعت طرائق مبتكرة لتفخيخ البيوت. لكن الجيش عزم على تحريرها، بدأها بالقصف الصاروخي المكثف وقصف آخر مركز ودقيق من الطائرات الأمريكية تمهيداً لاقتحامها.

ثمة صور فوتوغرافية لبعشيقة بدأت تنتشر أيضاً على صفحات عالمية. مدينة نحيفة أبادها الجوع والتعب والاشتياق لأبنائها. صورة مأساوية لمدينة جرداء أوجعها المرض وأنهكتها الوحوش. الغزاة لم يغتصبوا النساء فقط، إنما اغتصبوا الشجر والحيوانات وكل شيء أمامهم. سبي مرعب وتهجير أكثر رعباً لمدينة مسالمة وحالمة كانت تغفو تحت سفح جبل جميل بعشق وتحتضن العصافير على أغصان أشجارها بأمان.

في هذه الفترة أنهت أمل فصلها الدراسي فكانت تبقى حبيسة

البيت تبحث عن عمل يساعدها ووالدتها، بعدما توقف دوامها في المنظمة الخاصة لمساعدة النازحين، لأنها لم تنتم إلى الحزب الذي يدير هذه المنظمة، بل رفضت المساومة في هذا الجانب كثيراً. فانصرفت لمساعدة والدتها في الخياطة. أما هدى فقد تعبت كثيراً وبانت خيوط الشيب في شعرها. وغدت تزداد لديها حالات ارتفاع الضغط وخفقان القلب وصعوبة في التنفس.

ذات مساء كانت تجلس أمل مع والدتها وهي منهمكة في الخياطة فقالت لها:

- أمي أنا أوافق على الزواج وفق مقترح خالي حسين.

استغربت والدتها من كلامها هذا، فقالت لها:

- "ما الذي استجد في الموضوع؟"

- هذا الوضع المتعب والمزري دمَّر حياتنا. أنا من دون عمل والحياة صعبة. أبي ما زالت أوضاعه غير مستقرة في ألمانيا. خالي لن يساعدك إلا بزواجي وفق مقترحه. وأنا أقبل بذلك.

- يا ابنتي يبدو أن النزوح غيَّر نفوس الكثيرين، ومنهم أخي، مثلما تكشَّفت معادن الناس في هذه الفترة من حياتنا، فالنزوح والهجرة كشفت طباع الكثيرين من الذين كنا نظنهم طيبين. علينا أن نكتشف حقائق البشر في هذه الظروف الحرجة. ليس من الصحيح في هذه الظروف القاسية أن نبيعك يا ابنتي سواء لمن اقترحه أخي حسين أو لأي شخص آخر. الزواج إما أن يكون حياة تليق بك وإلا تجلسين معي حالك من حالي. أنا تزوجت والدك سليمان عن حب، وكنتُ صغيرة وقتها وحاول كثيرون من أقاربي أن يتقدموا لي فكنت أرفض. نعم أحببت سليمان وتزوجته وأنت ثمرة هذا الحب، فالزواج الذي يكون عن حب

تكون ثمرته أطفالا في قلوبهم رحمة ومحبة أكثر من زيجات أخرى. لا عليك يا أمل. لن تتزوجي إلا شخصا تحبينه أنت. واصلي البحث عن عمل في الفيس بوك مع صديقاتك مثلاً. هناك الكثير من المنظمات التي تعمل ولا تتطلب تزكية حزبية.

أحسّت أمل أن والدتها تتحدث بحرقة، وكأنها تكتشف شيئاً في نفوس الناس القريبين. حديث الأم هدى أعجب أمل الفتاة الواعية المتعلمة. فابتسمت وقالت لوالدتها: " أنت عظيمة يا أمي ".

***

كان على الجبهة في جبل بعشيقة الشاب الوطني المتحمس مراد. وهو جيران بيت هدى من النازحين أيضاً. شاب لم يتجاوز٢٨ سنة انخرط في التشكيلات القتالية لتحرير منطقته. لكن مرادًا الشاب الجميل يميل إلى التطرف في الحماسة. يرى ويعتقد أن كل المسلمين هم دواعش!! إنه مستعد لتفجير نفسه فقط في سبيل تحرير بعشيقة. وكان كلما سمع عن ما جرى من فظائع في احتلال سنجار ازداد غضباً وتصاعدت في نفسه روح الانتقام.

ترد الأخبار من مراد عبر اتصالاته إلى أمه وأخته وتصل إلى هدى وابنتيها: "نحن الآن نتقدم في مساحة الجبل. نعم التقدم بطيء لغايات عسكرية. فالطيران الأمريكي يعتمد على إحداثياتنا ومعلوماتنا ويقصف بعض البيوت والمناطق التي يختبئ فيها الدواعش في بعشيقة وبحزاني والقرى المجاورة، وعندما ينالهم القصف ترى من ينجو يقفز كالجرذ من بيت إلى آخر فنصطاده. يتمركزون حاليًا في حي الربيع ومحلة السوق في بعشيقة وحي الانتصار في بحزاني."

كان مراد متحمساً جداً للتحرير. يتحدث عن أمنيته لاقتحام

المدينة ليكون في مقدمتها مع الشباب الآخرين. تجمعت النسوة والبنات أمام بيت أمه كل يوم يتلاقفن أخبار التحرير التي ينقلها إليهم مراد في أثناء إجازته وينصتن إلى كلامه. كانت أمل معجبة بحماسته. يشرح في فيديوهات مرسلة الخطط المحتملة لاقتحام المدينة. يقول: "يجب أن نحرر المنطقة نحن شباب كثيرون نضغط على القوات المهاجمة. نقول لهم نحن نذهب لتحريرها إذا ما تقاعستم." كانت أمل تعيد الفيديوهات أكثر من مرة. نظرات أمل إليه توحي بأعجابها بهذا الشاب الوطني، على الرغم من أنه يحمل أفكاراً متطرفة أحياناً.

ذات يوم عاد مراد في إجازة مؤقتة وكانت القوات قد تقدمت وأصبحت قاب قوسين من بعشيقة. حدَّثهم عن الخراب. شاهد بالعين المجردة البيوت والأماكن والمعابد المهدمة. تحدث عن مزار ناصر الدين وملك ميران والشيخ بكر[1] وغيرها من المزارات التي فجرها الدواعش. في الإجازة أيضاً تحدث مباشرة مع أمل واقترح أن يعملا على إنشاء صفحة عبر الفيس بوك لنشر أخبار التحرير. تحدث أيضاً عن عمليات التحرير والحياة الحربية على الجبل، عن الطموحات ما بعد التحرير. توطدت العلاقة بينهما. حاولت والدته أن تدافع عن وجهة نظر مراد الحماسية في أثناء الجلسات العصرية التي تجمعهم. أما مراد فكان لا يتحدث عن كل ما يراه. هناك فظائع ومشاهد عميقة تحدث في بعشيقة وبحزاني من حرق وتدمير وتفجير المعابد والقتل أحيانا لا يذكر تفاصيلها المؤلمة."

عندما عاد إلى الجبل أرسل بشكل مباشر بعض الصور إلى أمل بعد أن أعطته رقم هاتفها للتواصل في أيام إجازته القصيرة. صورة أخرى إلى الضيعة. بدت واضحة وقريبة من البيوت التي عاشت

---

(١) مزارات أيزيدية في ناحية بعشيقة وبحزاني.

فيها. تظهر فيها البيوت منهكة، وفيها الأشجار صفراء دون حشائش، والشوارع مهجورة والطرقات الفرعية خاوية. التقطها مراد قبيل الغروب وأرسلها عبر الواتساب. كتب تحت الصورة عبارات شاعرية. انشري هذه الصورة في موقعنا واكتبي عليها:

(سأعود إليك يا حبيبتي.. فالشوق إليك وطن والفراق هناك موت)

قرأت رسالته وعلى الفور كتبت له: هذه العبارة للضيعة أم لمن؟

صمت ثم كتب لها: للصورة؟

كانت تتمنى أن يقول إليها، أن يقول لها إنه يقصدها. ثم كتبت له: أهكذا تعشق الضيعة؟

كتب لها: ربما أكثر مما تتصورين......

كتبت له: كم هي محظوظة بعشيقة وبحزاني بك!

ابتسم وأدرك ثمة طعماً خاصاً لهذه البنت الجميلة. لعبت المشاعر بوجدانه. انتابته حالة غريبة في محاولة الكتابة إليها في كل وقت. فراح يكتب "صباح الخير" وفي كل ليلة يكتب "مساء الخير"، أو "تصبحين على بعشيقة مثلك". تبادله كلمات لطيفة. هكذا نمت براعم علاقة رائعة بينهما في ظروف أيام التحرير.

في إجازته الأخيرة جاء وقد بدا عليه التذمر من شيء ما. استغربت أمل من سلوكه هذا. حاولت أن تعرف السبب. أرسلت له رسالة عن وضعه في هذه الأيام. فلم يجبها. ازداد قلقها عليه. في آخر الليل اتصل مراد بها. فرحت وانزوت جانباً لتجيب على مكالمته: "ماذا بك مراد؟ وضعك لم يعجبني." صمت قليلاً ورد عليها: "لا تحزني أمل. أود إخبارك بخبر أرجو أن لا يحزنك فأغلب الناس أصابها ذلك، ردت عليه بقلق ماذا تقصد يا مراد؛ ما الذي تعنيه قُل؟

[illegible] قال وقال لها إن بيتكم تم تفجيره بالكامل. واستدرك وقال بأنه كان يستخدمه الدواعش مقراً لهم."

في البداية لم تستطع الرد. بقيت صامتة من هول الصدمة. ما هذه الأقدار التعيسة التي حلّت بهم. ردت عليه: "هل أنت متأكد من أنه بيتنا؟" قال لها: " نعم إنه بيتكم. وسأرسل لك صورته." شاهدت الصور فأصابتها الصدمة القاتلة. صور مؤلمة. تلاشى بيت الذكريات إلى ركام ورماد.

بدأت تبكي بحرقة وهو على الطرف الثاني من السماعة حاول تهدئتها قائلاً لها إن بيوتاً عديدة تم تفجيرها واستهدافها، ولكنها لم تمالك نفسها، انهارت أمل لتقطع الاتصال. تذكرت البيت الذي باعه سليمان والدها ليهاجر الى ألمانيا وكان عليه أن يلتزم بشرط البيع وهو أن يبقى البيت سالماً ما بعد تحرير مدينتهم من داعش، وقتها يدفع باقي ثمنه. تلقفت والدتها الخبر بعدما سألتها عن سبب بكائها وكأنه صاعقة بعدما أخذت الهاتف وشاهدت الصور. نعم إنه بيتنا. بدأت هي أيضاً تصرخ وتضرب على رأسها.

في الليل لم تنم هدى فكانت تبكي في غرفتها بحرقة لا تعرف بالضبط هل كانت تبكي على مرض زوجها، أم تفجير بيتها، أم حالها وحال ابنتيها أم تبكي الآمال التي زرعتها لمستقبلها ومستقبل بناتها؟

بعد سماع خبر مرض زوجها كانت تزداد حالتها الصحية سوءاً، أما اليوم فأصبحت المآسي لا تمنح لروحها الاستقامة. كل هذه المعاناة كانت تضغط على كاهلها، شعرت هدى بالاختناق وضيق النفس. إنها حالة تتكرر لتزيد من مرارة النكبة العظمى. حاولت أن تنهض من فراشها كي تصل إلى الباب لتنادي على ابنتها أو تشم أي هواء يساعدها على التنفس.

كان جسدها يتثاقل مع كل خطوة، ورأسها ثقيل بثقل الجبل، زاد من ظلام عينيها حتى شعرت بالغثيان والدوخة. حاولت أن تصرخ لكن جسدها تحجّر. هموم ووجع ومعاناة جثمت على صدرها. صوتها يختنق داخلها. حاولت أن تتدحرج إلى الباب وتفتحه. لم تكن تسمع شيئاً سوى دقات الساعة الرهيبة في رأسها. شعرت بأن هناك من يحاول أن يقبض على روحها ويخلعها من مكانها. كانت في كل لحظة تختنق ويزداد الظلام في رأسها، حتى أن الهواء بدا شحيحاً. نظرت إلى النافذة الموارية كي تسعفها نسمة الهواء. ليس سوى لمسة من ضوء بعيد وشحيح يقترب يأتي من النافذة العالية في الغرفة.

شاهدت روحاً تدخل إليها وتغمرها كفيضان نهر على خندق يبحث عن المياه. كانت صورة سليمان وهو يبتسم أمام شجرة الزيتون بوسامته المعهودة المعلقة على الحائط أمامها. أحسَّت أنه يدخل جسدها. هو يقترب شيئاً فشيئاً فيها. رفعت يدها لعلّها تحتضنه، حاولت أن تقول شيئاً، انغلق فمها، وضعفت أنفاسها، رمت يديها إلى الأرض بقوة، وتوقفت أنفاسها تماماً، وهمد الجسد كتلة صماء ليبقى الظلام في عينيها إلى الأبد.

٣٣

ينطوي رحيل فراس الشيخ مع عائشة الأفغانية على حالة من الحزن في وجدان سليمان، الذي كان يرى في فراس الشاب الأيزيدي المكافح والمتطلع إلى شغف الحياة. فراس المتدفق بالهمة والنشاط، وهو من الذين لعبت بمقدراتهم الحياة وهم في عزِّ شبابهم، ثم جاء زمن الهجرة كي يقضي على ما تبقى من أحلام الشباب. تبدلت رؤى الأفكار لديه، غدت الأحلام أكثر شراسة وسلبية، فدفعته إلى التمرد على تراثه العقائدي وعلى عائلته وانتمائه، والذهاب وراء حب فتاة أجنبية، سلوك ربما كان ردة فعل لواقع سيِّئ لمجتمع ووطن مقيد بأغلال تعيق الحرية.

يرى سليمان أن لفراس بعض الحق في التمرد. فالحرمان والعوز والمعاناة وتخلخل العلاقة الأسرية مع جحود أخته؛ كلها أسبابٌ لهذا التمرد. فضياع فراس هو الضياع الأعظم لجيل كامل من المهاجرين.

غادر فراس وبقي سليمان وحيداً. لم يتأقلم بسهولة مع الأصدقاء المهجَّرين في المخيم. لم يتعاطف معه إلّا القلة في محنته ومرضه. فتفاوت الأعمار واختلاف المشارب والتطلعات واللغات غدا عائقاً للتواصل الروحي.

كانت أفضل طريقة للعزاء هي بالانفراد مع ذاته. ينفرد مستئنساً بالماضي الجميل باسترجاع الذكريات والإطلالة المؤنسة على بعشيقة

المدينة الأمل. يعيد تلك الذكريات وهو يقلب صفحات الفيس بوك والتي تأتيه بصور جميلة من مدينته ومعزوفات خدر جميع الجميلة التي تصدح من هاتفه. يصغي لها فتبعث في روحه الأمل ممزوجاً بحسرة الغربة والاغتراب وذكريات الماضي والحنين لمدينته وذكرياته فيها. يطالع صور المزارات والطوفات والبساتين الخضراء فينعش ما تبقى من روحه المتهالكة، كان يشتاق لرشفة خمرٍ تطرب روحه المتعبة والمغتربة، ولكن الأطباء منعوه حتى من كأس خمر واحدة.

ازداد السعال المُصاحب لنزيف الدم. لذلك اضطر لأن يأخذ قطعة قماش في يده ويمسح فيها أطراف فمه. كان يحلم بأن يوماً ما ستلتحق به هدى والبنتان ويعيش حياة مرفهة سعيدة بعيداً عن العوز والحرمان والاضطهاد في ذلك البلد البعيد. هذا الحلم يجعله يتشبث بخيط الحياة الواهن. قال مع نفسه مستذكراً فراساً:

"فراس يا عزيزي أنت على حق. اخترت عائشة، فهي الوحيدة التي كانت ذات روح مرحة في المخيم. ربما كنت ذكيّاً بأن هذه البنت ستكون مفتاح سعادتك. منحتك أفقاً للسعادة. منحتك الأمل في حياة حرة بطعم السعادة. منحتك القوة كي تطعن نواة الاستسلام في الغربة اللعينة، فنحن دائماً بحاجة لأسباب سعادة نقاتل من أجلها، نرحل معها إلى حيث هي"

بدت الحياة أكثر ثقلاً على سليمان، وكأن النهايات تقترب، وكل شيء أصبح ماضياً. ذاكرته توقفت هناك عند ذكرياته الجميلة. كانت الغرفة التي تحتضنه ملاذه الوحيد الذي يؤنسه لاسترجاع تلك الذكريات مع هاتفه الذي يساعده على ذلك من خلال الصور والأغاني والمقاطع التي بدأ يدمن على سماعها، مقاطع تشفي روحه، كأن الحياة توقفت فقط عند ماضيه ومدينته، ذات صباح نهض سليمان

على رنين هاتفه باتصال من العراق. كانت الساعة السابعة صباحاً. كانت الأجواء في الخارج غائمة وباردة مع زخات مطر متقطعة تنتشر على زجاج نافذة غرفته. أمطار تضرب على الشباك، والريح تبعث صفيراً من موسيقى الخوف والكآبة. كان الاتصال من العراق. لكنه فضّل عدم الرد في البداية، وبعد الإلحاح فتح زر الرد:

- مرحباً سليمان كيف الحال؟
- أهلاً وسهلاً منو؟
- أنا رشيد، جاركم في الضيعة؟

راح يسأل أسئلة كثيرة عن الصحة والأحوال والعائلة. سأله عن أحواله وعائلته، ثم وصل إلى زبدة الكلام المفيد:

- خير رشيد إن شاء الله؟
- حقيقة لا أعرف من أين أبدأ الكلام.

ثمة أصوات تتصاعد بالقرب من سماعة الهاتف. بكاء وأصوات عويل ونحيب. لم يكن يميزها، ولهذا انتابه الخوف والقلق. استشعر بأمر ما. كرَّر قوله:

- خير هل هناك شيء ما؛ قل؟
- أخي سليمان، هل تستطيع أن تأتي إلى العراق الآن؟

استغرب طلبه. ودارت الدنيا برأسه. تساءل مع نفسه: ما هذا الطلب الغريب؟ كيف أعود من ألمانيا؟ وبأية طريقة؟ ولماذا؟ يبدو أنه لا يعرف بحالته المرضية؟

- إلى أين أعود يا رشيد؟
- هل هدى مريضة ويلزم حضوري وأنا في الغربة؟ ولماذا لم تتصل هي أو إحدى البنات؟

بدأ صوت سليمان يرتفع بعد أن انهار على سريره. حتى جاءته نوبة

سعال حادة. بحث عن قطعة القماش ليلجم فاه. بدأت الدماء تنساب من زاوية فيه.

- تكلم يا رشيد خير؟ لماذا هدى لم تتصل بي؟ لماذا لم تتصل إحداهن بي؟

- هدى صار لها شيء؟ هل حدث شيء على البنات؟

في البداية حاول القول فقط بإن هدى مريضة في المستشفى، لكن دوي الصراخ وتصاعد البكاء كان مسموعاً. تردّد رشيد قبل أن يحسم الموقف قائلاً:

- الله يرحمها ويصبركم. هدى إلى رحمة الله. سليمان لا بدّ أن تأتي.

وقع الهاتف من يد سليمان وبدا مصدوماً من الخبر. ما الذي يفعله؟ هل يكذّب كلام رشيد؟ الأمر الذي دعاه الاتصال برقم هدى. فوجده مغلقاً. اتصل بأمل فوجد هاتفها أيضا مغلقاً. لذلك اتصل بأحد أقاربه فأكد له صاعقة الخبر الحزين.

جن جنون الرجل المريض. ضرب رأسه في الحائط. صرخ صرخة هزت أركان المخيم كله. راح يضرب الباب لكنه وقع على الأرض من شدة الصدمة والوهن. بكى بجنون، حتى أن عويله كان مسموعاً في الغرف الأخرى. نهض لا يعرف ماذا يفعل. حدّق في المرآة، فشاهد سيلاً من الدم متدفقاً من فمه. أحس بدفئه ولزوجته وهو ينساب على رقبته وعلى صدره ملطخاً ملابسه. صرخ بصوت عالٍ طالباً للمساعدة.

سمع حراس المخيم صوت عويله فهرعوا إليه مع بعض المهاجرين من غرف أخرى. فتحوا باب الغرفة بكسر المزلاج. وجدوه ساقطاً على الأرض واضعاً يديه على رأسه. يبكي ويصرخ بشكل هستيري حتى أُغمي عليه تماماً. مرت دقائق عدة لتحضر سيارة

الإسعاف. ثم نقل على الفور إلى مستشفى الطوارئ. وضعت له المهدئات لتنويمه قسرياً.

ازداد قلق الأطباء بعد الفحص وانتشار المرض الخبيث في كل أرجاء جسمه. حاولوا الاتصال بأحد أقاربه. كان الرقم الذي وضع في إضبارته يعود إلى فراس الشيخ. لكن الهاتف كان مغلقاً. اتصلوا بالرقم الثاني في الإضبارة وكان يعود لأخيه فرحان. رد عليهم ببرود عجيب. طلبوا منه الحضور الفوري. لأن وضع أخيه سليمان في خطر.

في الصباح وصل فرحان إلى المستشفى في مدينة كولن. وأدخل إلى غرفة سليمان فوجده بصورة مرعبة، مربوطاً على أجهزة كثيرة. من فمه وأنفه ومن رئتيه. وجهه شاحب لا يتنفس إلا بصعوبة. عيناه مسبلتان. صوت أنين خافت يصدر منه يمتزج مع صوت إشارات تبعثها الأجهزة.

جلس إلى جانبه متألماً. لما وصل إليه حال أخيه. أحسَّ بالتقصير وتأنيب الضمير لما فعله من إهمال مع أخيه. حتى انفجر بموجة بكاء مخنوق، ما لبث أن يعلو صوت البكاء بحرقة. فتح سليمان عينيه الزرقاوين لينظر إلى أخيه. حاصره البكاء أيضاً. فانهالت الدموع بخجل منه. دموع فيها الكثير من الألم والعتب على الأخوَّة المهدورة في المهجر، دموع القهر والحيف وتبدل الأحوال والغربة والحنين.

أخبر الطبيب أخاه بأن حالة سليمان خطيرة. والنظام لا يسمح لأحد المكوث معه. كما أخبره الطبيب أن يبقى قريباً من المستشفى، وعليه وفي هذه الأوقات الحرجة أن يمتنع عن السفر ويبقى قريباً منه. قال له الطبيب: "قد تكون هذه أيامه الأخيرة."

حلَّ الليل سريعاً وما زالت الأجهزة تصدر صفيراً متقطعاً بانتظام قاتل. فتح سليمان عينيه. كانت الغرفة معتمة، تشع بعض

الأصوات الشحيحة من فتحة الباب الذي بقي مواربا. استدار سليمان يحدق في الأفق من خلال النافذة القريبة من سريره. نظر إلى السماء، لكنها كانت معتمة. ثمة غيوم سود تداعب القمر بلعبة الاختفاء والظهور. ينصت من حوله إلى طنين الأجهزة والجهاز المركزي وخطوط بياناته تتلوى في شبكة على الشاشة صعوداً وهبوطاً بمنحنيات رتيبة. تم زرقه بكمية عالية من مسكنات الآلام، لكنها بمرور الوقت بدأت تضعف. عاد الألم يهاجم جسده. تساءل لماذا هو هنا؟؟ وما الذي جاء به إلى هنا؟؟ وكيف؟. لا أحد يجيب عن تلك الأسئلة.

هدى هي سؤاله الوحيد الذي يلح عليه. يشعر أنه معها يحاورها بحنان في آخر ليلة قبل هجرته. تذكر أنه كيف مسح بأصابعه دموعها التي انهمرت دفعة واحدة. كأنه يخاطبها قائلاً: "من أجلك كل هذه الغربة والعذابات يا هداي."

يهذي ويئن بصوت خافت. تخيلها تنظر إليه من نافذة غرفة المستشفى من هناك صوب القمر الذي يختفي ويظهر ويأتي بصورتها بالزي التراثي الجميل بين النجوم والغيوم، تومئ له ثم تتهتق. يتذكرها هناك بين البساتين الخضر حيث اللقاءات الأولى. تذكر طعم القبلة الأولى قرب شجرة الزيتون. تهرب من القبلة حيث بساتين الزيتون في بعشيقة وبحزاني ثم يلتف من الجهة الأخرى لتسقط في حضنه بين واحات العشب الخضراء وزقزقة العصافير.

تذكر الرسالة الأولى في الأزقة القديمة بين البيوت والدرابين، شاهد في السماء أيضا خالة حسنة جالسة بملابسها البيض ترفع يدها لتصلي أدعية تصل إلى السماء على داعش. تشكوهم لربِّها، لأنهم قتلوها بحجة الكفر وهي المؤمنة الطيبة والصادقة التي خدمت ربها ونذرت روحها لمساعدة الناس. بيضاء نقية كسحابة صيف قريبة إلى

الله في ملكوته. شاهد أيضا من النافذة هناك الكثير من حولها؛ شيخ بركات وهوري بملابسهما المبللة تسقط أمطاراً على النافذة وترسم خرائط البساتين والزيتون والأزقة والدرابين القديمة، والوشاح الذي ربطا بعضهما به في البحر تحول إلى خيط طويل يفصل السماء عن الأرض، لم يجد في ملكوت السماء هناك عمر وهبي باشا ذاك السفاح الذي كان يقتلهم باسم الله، فربما طرده الله من ملكوته، فالله عادل ولا يقبل الأشرار مهما كذبوا باسمه.

جال في نظره بين الجمع، وجد هدى بين الجمع الأيزيدي على طلتها الأولى، جميلة هي كعادتها. أخذت موقعها بينهم في الفردوس الأبيض. فسحت له المجال إلى الجلوس بقربها.

قالت له: " تعال سليمان هنا يوجد مكان سيجمعنا إلى الأبد." مدت يديها إليه وهمست بهدوء عذب: "تعال يا ضوء العين. تعال حبيبي."

رفع سليمان يده ليلمس يدها الرخامية الممدودة نحوه، بدأت تقترب اليدان لبعض، وصلت إليها سحبته ورفعته إلى الأعلى. ليشكو إلى الله مما فعلته عصابات داعش. ليشكو إلى الله هجرته وفراق أهله ووطنه ومدينته. ليشكو غربته ومرضه ودنو أجله.

في تلك اللحظة المبهمة من الزمن أطلقت الأجهزة المربوطة إلى قلبه صفيراً متصلاً، ثم خفت الصفير شيئاً فشيئاً. تحوَّل إلى نشيد جنائزي حزين وتوارى هارباً خلف غمام أسود يحجب القمر. هرع الطبيب الخفر إلى غرفة سليمان عندما سمع سلسلة صفير الصوت المتصل لكن سليمان غادرت روحه مع هدى إلى الفردوس الأعلى.

٣٤

أحكمت القوات المحررة خطتها العسكرية لاقتحام بعشيقة وبحزاني تحت غطاء كثيف من طيران الجو الأمريكي والتحالف. بدأت هذه العروس الجميلة تحت مرمى كثيف من نيران المدفعية وقصف دقيق للطائرات. فيما لاذت جماعة داعش للاختباء في المنازل وخلف المتاريس وفي الأنفاق. لذا عملوا فتحات داخل البيوت المتلاصقة لسهولة التنقل من بيت إلى آخر.

ومع أولى خيوط الفجر انهالت النيران على أرض المدينة، إذ دكّت المدفعية والطائرات مواقع العدو المحتملة. ثم شرعت قوة الأرض المسلحة بالتقدم نحوها والنزول من الجبل بمسارين أحدهما للمشاة والآخر للدروع. بخطة محكمة كما بدا وبتصميم فولاذي. المسار الأول من طرف جبل بعشيقة باتجاه مدخل المدينة. على أن يكون ملتقى الجناحين عند نقطة شروع قريبة من مزار ناصر الدين، فيما تحرك المسار الثاني باتجاه مزار الشيخ بكر. كانت خطة الدواعش تقتصر على عرقلة التقدم بالمفخخات والألغام، ثم القتال بمجاميع وزمر من داخل البيوت. كان مراد من ضمن المقاتلين الذين دخلوا أطراف المدينة وفي أول خط المشاة. وكلما تقدمت القوات البرية قام مراد بالتصوير والبث المباشر. نقل مراد بعض الصور المرعبة عن جثث بلحى طويلة متفسخة ومتروكة في

الشوارع، أشكال غريبة لم تألفها هذه المدينة الجميلة أبداً، نقل صوراً عن حجم النار المفتوحة اتجاه العدو.

حزن مراد لمشهد بعشيقة المأساوي بفوضاها وخرابها وحواجز التراب والحاجيات المرمية والمسروقة من المنازل التي تقطع الشوارع الرئيسة. نشر مراد صورة معبِّرة أخرى جديدة على صفحته وكتب تحتها: "سنعيد الحياة لهذه المدينة. وستكون أجمل من ذي قبل". حصل تفاعل قوي لصفحته وتشجيع كبير بالتعليق أو بالمشاركة لحماسه وحبه لمدينته. كل النازحين والمهاجرين داخل الوطن وخارجه يتابعون عن كثب هذه الصفحة التي تنقل بصورة مباشرة آخر أخبار التحرير.

***

وصل الى أمل خبر موت أبيها سليمان، كادت أن تفقد عقلها: "أيعقل أن أفقد أبي وأمي في أيام قليلة متقاربة؟" بضعة أيام فقط بين الميتين، قررت أمل قراراً تاريخيّاً بأن يدفن الأبوان في الضيعة، في الأرض التي تبزغ عليها شمس التحرير. اعترض عليها بعض الأقارب والمعارف ووجهاء المدينة بحجة بعد المسافات والظروف الأمنية والعسكرية هناك بالإضافة إلى أن عودة جثمان والدها إلى العراق قد يستغرق بضعة أيام وأن والدتها متوفاة فكيف لا يتم دفنها وانتظار جثة والدها ؟. كما أن الأوضاع في بعشيقة وبحزاني لم تستقر بعد، صحيح أنه تمَّ تحريرها، وهي الآن في مرحلة التمشيط النهائي للتحرير، لكن ما زالت بعض الشائعات تخيف الناس من العودة إليها.

حاول كبار المنطقة من الوجهاء ورجال الدين إقناع أقاربها للحيلولة دون تنفيذ فكرة أمل، لكنها دخلت عليهم في اجتماعهم

الموسع، وهي متشحة بالسواد، ومع أول كلمة انهارت بالبكاء أمام الجميع وقالت لهم: "أعرف كل ما تفكرون به، وأعرف أنكم تنوون ثنيي عن ما أفكر به، ولكنني مصرّة على تنفيذ رغبتي وأمنيتي. لن يدفن والداي إلا في بعشيقة. أما بخصوص جثمان أمي فسيبقى في المستشفى حالياً. أما جثمان أبي فسيأتي بعد ثلاثة أيام. ولا أقبل أن يتدخل أي مخلوق في قراري هذا.

ساد الصمت في جلسة الكبار والوجهاء. بعضهم حاول أن يتكلم، ولكن في النهاية احترم الجميع رغبتها وتعاطفوا معها لهول المصيبة العظمى التي أنزلت على البنت أمل. فانصاعوا لإرادتها فهي صاحبة المصاب الأكبر. ولكنهم طلبوا من أقاربها بأن يتم الإسراع في عودة جثمان أبيها سليمان، حتى يتم الدفن في أقرب وقت. فإكرام الميت دفنه كما قال أحدهم.

٣٥

كشف فرحان شقيق سليمان إلى إدارة المستشفى عن نيَّته نقل الجثمان فوراً. فلم يمانعوا، بل عرضوا عليه تسهيل المهمة بطريقة فورية. ثم خرج من المبنى واتصل ببعض الأصدقاء والأقارب كي يساعدوه في نقل الجثمان. عاد وجلس في الحديقة الخارجية ينتظر قدومهم. جلس لساعات طويلة متنقلاً بين الحديقة وإدارة المستشفى. ما بين الرواق الأبيض بانتظار إنهاء الإجراءات لجثمان أخيه وانتظار أحد الأقارب في الحديقة، في تلك الجلسة الطويلة انهالت عليه ذكريات الطفولة مع سليمان في ذلك المنزل الصغير في بعشيقة. عادت به الذكريات عن الأب جمعة المسكين الذي كان ينظر بنظرة حزينة إلى سليمان.

بعد يوم طويل نقلت جنازة سليمان إلى البيت الأيزيدي في كولن[1]، ليُغسَّل الجثمان ويُشيَّع في اليوم ذاته إلى العراق، بعد استكمال الإجراءات الرسمية لطريقة النقل سمعت الناس بخبر وفاة سليمان، حيث هاجت صفحات الفيس بوك بخبر وفاة البعشيقي سليمان وغربته في الحياة، حتى أن الصفحة التي أنشأها مراد وأمل نشرت الخبر، وقد توجت الصفحة بصورة الفقيد وبوشاح أسود على النحو التالي: (مدينة الزيتون تودع إحدى أشجارها الجميلة سليمان جمعة البعشيقي).

---

(١) أحد المدن الألمانية ويوجد فيها جالية أيزيدية.

بدأ الأقارب والمعارف بالتوافد إلى مكان التشييع من كل المناطق والمقاطعات الألمانية إلى البيت الأيزيدي، وضع نعشه المصنوع من الخشب الساج المهاب داخل القاعة الرحبة على طاولة طويلة ومرتفعة تزينه باقات ورد حمراء. كذلك وضعت صورة لسليمان على عتبة النعش. صورة جميلة بشعره المائل للصفرة وعينيه الزرقاوين وشاربه الكث ووجهه الأبيض وابتسامته الخفيفة. كان المنظر مهيباً، وحول الصورة الكثير من الشموع التي تضيء وتنعكس على صورته.

اتشحت النسوة بالسواد وأخذن يضربن على وجوههن ويبكين بحرقة، وبعض الشباب يرثيه بالبكاء، آخرون يبكون على أحوالهم، على غربتهم، ربما سيأخذ الموت الكثيرين منهم وهم غرباء عن وطنهم، لا يحيطهم الأحبة ولا تحملهم أرض الوطن كحال سليمان. للموت في الغربة قصة حزينة يكون فيها فعل الموت قاسياً.

صدح صوت الدف والناي (الشبَّاب)[1] وارتفعت سحابات البخور لتملأ المكان عبقاً برائحة هي مزيج من الحزن والأسى، زادت الصيحات والعويل والبكاء وارتفعت هلاهل لبعضهن. كانت المشاعر تأخذهم بحماس حزين من ألمانيا إلى بعشيقة وبحزاني مروراً بسنجار.

تقدم رجل الدين الشاب مروان وهو شاب متدين عيناه تشع إيماناً ووجهه يشع بالتقوى ذو لحية خفيفة سوداء زادت من وسامته. يصدح ويرتل بالأقوال الدينية:

---

١) الدف والناي (الشبَّاب): هي الآت موسيقية يستخدمها رجال الدين الايزيديون في المناسبات الدينية ومراسيم العزاء بالعزف عليها بمعزوفات دينية.

((يا غريب في ليالي الخريف الطويلة. لم يدخل النوم إلى عينيه.

في السماء توقفت نجمتان، هما السهم والميزان.

يا أيها الغريب.. يا أيها المغترب

يا مسكين يا من في قلبه حزنٌ شديد..

طيرٌ تأخر عن سربه. ذهب بعيداً ثم تاه.

يا غريباً عن الديار وتائهاً بين الدروب

يا بعيداً عن الأهل وكل محب وحبيب..

يا غريب ليس لنا نهار ولا ليل، فكلاهما أصبحا سواء

ولحال غربتنا فالنجوم لاذت بالفرار..

هذا هو حالنا نحن الفقراء..

حالنا نحن الضعفاء..

حالنا أن نعيش غرباء

هلموا وتعالوا ياكُلاً من الوالد والوالدة والأشقاء

هلموا واقتربوا من الأهل والجيران والأصدقاء

اقتربوا من نعشه فهذا آخر وداع وآخر لقاء

وأفصحوا ما في قلوبكم من شجون ورجاء

وا أسفاه على ثغر كالجواهر والدرر البيضاء

وا حسرتاه، فلن يتمكن من الحديث والألقاء

وا أسفاه على هكذا شباب يموتون غرباء..

رحلوا وكانت أمنيتهم رؤية ديار الآباء))[1]

كانت كلمات مروان وصوته الشجي تهزان المكان حزناً، صوته يدغدغ مشاعر المشيِّعين. بكلمات منتقاة بدقة من مرثية الغربة. كلمات تمر على الجميع وتنبش في ذكريات حزينة لتخرج دموعاً.

---

(١) من التراتيل الدينية الأيزيدية.

بعد سويعة من الوقت ما بين ذهول الفقد الرهيبة حمل الرجال نعش سليمان على الأكتاف، تبعهم صدى الزغاريد والعويل. ثمة ألمان من نساء ورجال ينظرون بمهابة على هذا الغريب المحمول على الأكتاف، كانت الناس تبكي سليمان قتيل الغربة والهجرة اللعينة.

رفع الرجال جثمانه بتؤدة وضعوه في سيارة وسط مسيرة الأحزان هذه، كانت السماء هي الأخرى تبكي مطراً. صرخت إحدى النساء (أبلغ سلامنا لمن هناك، أبلغ سلامنا لبعشيقة وبحزاني، أبلغ سلامنا لذاك الوطن، لأرض النكبات والأحزان، الله يرحمك) وبدأت تهلهل وتبكي وزاد البكاء عليه، سار النعش المسجى على السيارة في طريقه إلى المطار، في رحلة العودة إلى العراق.

وصل الجثمان الى مطار غازي عنتاب في فجر اليوم التالي. وبعد ساعات من المسير البري دخلت قافلة التشييع الحدود البرية من منفذ إبراهيم الخليل وسار الموكب الجنائزي، استقبلته الجماهير المحتشدة هناك في مفرق الشيخان. نعش سليمان مسجى على سيارة بيك آب بيضاء تتوسطها صورته بحجم كبير، وكأنه يطوف بعينيه بالقرى والمدن مثل موكب عرس.

في مفرق الشيخان كان نعش هدى ينتظره. تقارب النعشان "سليمان وزوجته هدى" في مشهد كأنه عرس سماوي من الأساطير، كأن الحب أعادهما ليكملا شوط الحياة في جنته الأبدية. كانت أمل تنتظر نعش أبيها وهي تقف باكية أمام نعش والدتها. صدمة مذهلة أصابت الناس المتجمهرة للمنظر الفريد والمصادفة الغريبة.

استقبلهم الأهالي بسياراتهم، وُضع النعشان في المقدمة وهما يسيران ببطء في موكب مهيب. تقدمت سيارات الشرطة المشهد في أول دخول إلى بعشيقة وبحزاني، التي مضى على تحريرها ما يقارب الشهر.

حشد بشري هائل يتشح بالسواد تسير الناس خلف الجنازتين، سواد بشري يتحرك ببطء. وبناءً على وصية أمل التي أرادت أن يكون نعشا أمها وأبيها أول من يدخل مدينة الزيتون بعشيقة. أنزلت الناس النعشين من السيارة في بداية المدينة وحملهما الرجال على الأكتاف. في مقدمة هذا الحفل الحزين، في مدخل المدينة، حضر رجال الدين تتقدمهم امرأة بملابسها المحلية والتراثية الجميلة بيدها وعاءٌ في داخله قطع فحم حمراء تشع وهجاً ترش البخور عليها فترتفع وتتصاعد الأبخرة وروائح قدسية مذهلة، بمنظر روحي مهيب ترتعش له الأبدان. أخذ رجال الدين يعزفون بالدفوف والناي ويمشي وراءهم الحشد الجماهيري بشكل بطيء، عزف بشجن غريب وكأنه يصدح في أصداء وأطراف المدينة الصامتة، هذه المدينة التي غدت مدينة أشباح، البيوت المهدمة، البساتين المتيبسة ذات الأوراق الصفراء، الشوارع الجرداء، لم يكن في تلك المدينة لا حيوانات ولا طيور ولا ماء ولا حتى حشرات، وكأن الله غادرها. ذهب جمالها، اصفرت ومرضت وأوشكت على الموت، كان البخور الذي يتصاعد يبخِّر المدينة ويباركها، وكان العزف الديني يخلق فيها روحاً جديدة يخترق الجدران والأزقة والمنازل والأشجار والبساتين المصفرة والمعابد والمزارات المندثرة والمدمرة.

كانت النغمات تذهب تناشدها بالنهوض واستعادة الحياة، تسأل البساتين أين رونقها؟، كانت الألحان تناشد الطيور في السماء لكي تعود بعدما غادرت المدينة، كانت رائحة البخور كألحان الدف والناي ينتشرون في كل المدينة ليعمِّدوها ويعيدوا تقديسها بعدما دنسها الدواعش؛ هذه الغربان السوداء التي هاجمت كالوحوش هذه المدينة الوديعة فيما سبق، وكأن الأقدار هي من رسمت دخول هؤلاء النازحين مع النعشين بهذا الكرنفال الحزين.

كانت أمل متشحة بالسواد ببنطلون وقميص أسودين. تضع على كتفيها وشاحاً أسود. تمشي وراء نعشي والديها، منظرها الحزين أصاب الملأ بهستيريا البكاء. أحدهم يبكي سليمان وزوجته وآخر يبكي مأساة الغربة والتهجير، وآخر يبكي على نفسه أو على بيته المهدوم وبستانه الذي فقده، على مدينته التي حطمتها غربان الظلام السوداء. المشيعون يسيرون بوجل وبطء، وثمة روائح ما زالت لجثث الدواعش مرمية بالطرقات مع بقايا من قنابل غير منفلقة وخرق عسكرية مرمية بالطرقات وخلف المتاريس.

واصل النعشان المحمولان على الأكتاف المسير الجنائزي الحزين. في الطريق الذي يشق الضيعة إلى مدينتي بعشيقة وتوأمها بحزاني. تتوسط رابية تنتصب أمامهم، كان عليها أثرٌ لثلاث قباب دينية سُوِّيت بالأرض وتم تفجيرها من قبل هذا التنظيم الإرهابي.

وصل النعشان إلى المفرق الأخير، حتى انبرت أمل لتوقف المسير. لتقول: "سأدفن أبي وأمي هناك وسط هذا الوادي بين بعشيقة وبحزاني."

استغرب الناس طلبها هذا، إذ أحدثت رغبتها هذه ضجيجاً بين رافض للفكرة أو موافق صامت، ففي العادة يدفن الميت في مقبرة أهله. هدى في مقبرة أهلها في بحزاني وسليمان في مقبرة أهله في بعشيقة ، غير أن رغبة أمل قلبت الموازين، أصرت دفنهما وسط المدينة عند "وادي الجكيلة"[1] الوادي الذي كانت تجري منه سابقاً مياه البساتين. يفصل بين رابيتين صغيرتين تفصلان بين بعشيقة وبحزاني بسهل بسيط تتوزع فيه بقايا المقابر والمعابد والمزارات.

تم إنزال النعشين في منطقة المدفن التي حددتها أمل، في مكان

---

(١) بقايا لوادي قديم بين بعشيقة وبحزاني كان يجري فيه ماء في السابق.

خاص بين الرابيتين. وقفت أمل وطلبت أن يتم الحفر في المستطيل التي خطته بأصبعها. تكاثف وفود الأهالي إلى المدفن الجديد. مرت لحظة صادمة أصابت المتجمهرين بالذهول، ثم عادت أصوات الدفوف من جديد. تعالت أصوات تراتيل حزينة مع إيقاع الدفوف بحماس أعلى من ذي قبل. وقف رجل الدين "قوَّال حسين" ذو اللحية الطويلة البيضاء والشارب الكثّ يرتّل بصوته الشجي أقوالاً دينية حزينة.

راح الدفان يمارس عمله في إزاحة التراب عن القبرين. إذ حفر قبرين متجاورين وملاصقين لبعضهما. هي حالة نادرة، لكن رغبة البنت أمل سارت على الجميع. ومع ذلك احتجت بقوة على حفار القبور إذ صرخت بوجهه:

- قلت لك أريد أن أحفر قبراً واسعاً لهما. ليس قبرين منفصلين. أردم الهوة بينهما.

بعد هرج ومرج وأخذ وعطاء بين رجال الدين والأهالي ورغبة البنت امتثل الجميع لرغبتها، كل ما فعله الحفَّار هو ردم الحاجز الترابي بين القبرين، ليتحول إلى قبر واحد يسع الجثمانين معاً.

في البدء أنزلوا جثمان سليمان إلى قبره، ثم تبعوه بجثمان هدى في القبر ذاته. الرأس قرب الرأس، والحفار يحاول بمشقة أن يجعلهما قريبين امتثالاً لرغبه البنت المنهارة.

وفي لحظة درامية قاتلة انهال التراب فوقهما. كانت أمل تنظر إلى اللحظة الأخيرة حين تساوت أرض حفرة القبر مع الأرض وكأنهما لم يولدا أو يعيشا أو لم تكن لهما ذكريات قط.

دُفن سليمان ودفنت همومه وطموحاته ومعاناته وآماله متخلّصاً من آلام المرض الخبيث، ودُفنت هدى ودفنت معها آلامها ومكابدتها

في دوامة النزوح والعمل المضني، لتقضي سني عمرها على ماكينة خياطة. دفنت ذكرياتهما معا تحت تراب بعشيقة وبحزاني. دُفن الحب الصامت بينهما وسوِّي بالتراب. دُفن عشق سليمان إلى مدينته. البعشيقي الطامح إلى رؤية مدينته بحلة أجمل بعد التحرير، لكنها الآن جرداء موحشة، دفن طموحه لحياة هانئة في بلاد عانى للوصول إليها ولكنها كانت حتفه.

بقيت أمل في المكان تدور حول القبر كالمجنونة جريحة بعمقٍ داخلها، تصرخ وتولول وتدور ثم حفرت حفرة ليست بالعميقة فوق القبر المشترك. اعترض من اعترض من الأقارب على سلوكها. لكن لا أحد يستطيع إمساكها أو منعها عن ما تراه مناسباً. أحضرت شتلة زيتون طرية غرستها وأهالت التراب من حولها عند رأسيهما. سقتها بدموعها التي انهالت على نبتة الزيتون هذه، كي تثمر مستقبلاً ليستظلّا بظلها الوارف، نبتة لشجرة على أرض الآباء والأجداد تُسقى من عبقهم وشغفهم بحب هذه الأرض، لتستمر الحياة وتعود إلى هذه البقعة التي كانت ذات يوم مدينة زيتون وأفراحٍ وحب، لعلَّ شتلة الزيتون هذه التي زرعتها تكون بداية لغد أجمل كان سليمان يحلم بها لأولاده وأجياله هناك ما وراء البحار.

***

انتهت

بغداد - آيار/ ٢٠٢٣

شكر وتقدير

أشكر كل من حثَّني على إكمال هذا العمل الروائي وقدَّم لي بعضَ الأفكار والملاحظات لتخرج بصورتها الحاليَّة.

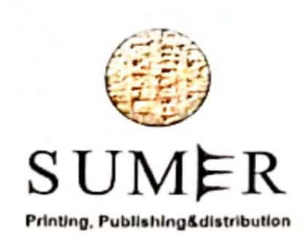
تغريبة الأيزيدي

كانت النغمات تذهب تناشدها بالنهوض واستعادة الحياة، تسأل البساتين أين رونقها؟، كانت الألحان تناشد الطيور في السماء لكي تعود بعدما غادرت المدينة، كانت رائحة البخور كألحان الدف والناي ينتشرون في كل المدينة ليعمِّدوها ويعيدوا تقديسها بعدما دنسها الدواعش؛ هذه الغربان السوداء التي هاجمت كالوحوش هذه المدينة الوديعة فيما سبق، وكأن الأقدار هي من رسمت دخول هؤلاء النازحين مع النعشين بهذا الكرنفال الحزين.

لوحة الغلاف الفنان : محمد كريم نباية



دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
07700492567 - 07711002790
Email: bal_alame@yahoo.com



SUMER
Printing, Publishing&distribution



ISBN 978-9922-628-79-0
9 789922 628790
Designed by: Maher Adnan